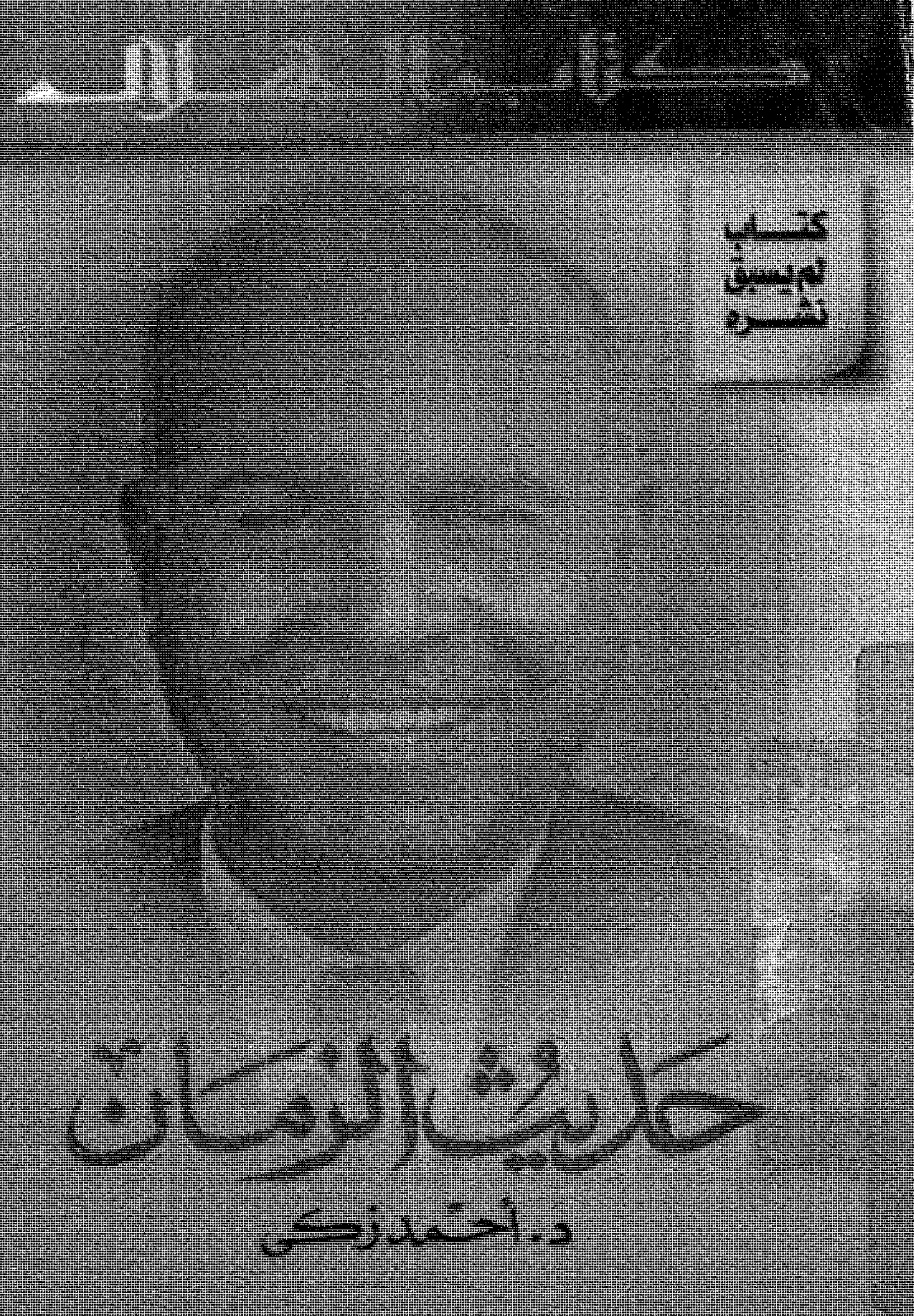

كتاب
لم يسبق
نشره
حديث الزمان
د. أحمد زكي



سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٠٣ - ذى الحجة - مارس ٢٠٠١

NO- 603- MA - 2001

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - قطر
مان ١,٥ ريال.

darhilal@i

اهداءات ٢٠٠١

مهندس/ محمد عبد السلام العمرى

الإسكندرية

حديث الزمان

كتاب لم يسبق نشره

بقلم :

د . أحمد زكى

دار الهلال

الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

● د . أحمد زكى فى سطور ●

● من مواليد ١٨٩٤/٤/٥ بمدينة السويس .

● التحق بمدرسة المعلمين العليا وزامل فيها مجموعة من العظماء.

● عمل بالتدريس ثم ناظراً لمدرسة وادى النيل الثانوية .

● رشح لبعثة إلى انجلترا لكنه لم يفز بها وسافر على نفقته .

● حصل على بكالوريوس العلوم من ليفربول عام ١٩٢٣ .

● حصل على الدكتواه فى الفلسفة (Ph . D.) عام ١٩٢٤ .

● حصل على الدكتوراه فى العلوم وهى أعلى الدرجات العلمية عام ١٩٢٨ ، وأصبح ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة العلمية فى مصر بعد على مصطفى مشرفة وعبدالعزيز أحمد .

● حصل على الأستاذية عام ١٩٣٠ ليكون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء .

● انتخب أول عميد مصرى عام ١٩٣٦ والغى تعيينه للجامعة .

● دخل مجمع الخالدين وأصبح عضوا عام ١٩٤٦ حتى وفاته.

● رأس تحرير مجلة الهلال أربع سنوات من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥٠ .

● أسس المركز القومى للبحوث عام ١٩٥٢ .

● عين وزيرا للشئون الاجتماعية عام ١٩٥٢ .

● عين مديرا لجامعة القاهرة عام ١٩٥٣ .

● أنشأ مجلة العربى عام ١٩٥٨ .

● توفى فى ١٣ /١٠/١٩٧٥

مقدمة

بقلم : مصطفى نبيل

الدكتور أحمد زكى ، العالم المثقف الذى أثرى الحياة الفكرية والعلمية ، والذى أرسى فى كل كتاباته قيمة «الحرية» . نقدم ملامح شخصيته . ولماذا رحل من القاهرة إلى الكويت عام ١٩٥٨ ؟! ولماذا اختفى اسمه كرئيس لتحرير مجلة الهلال رغم أنه كان يتولى المسئولية كاملة عامى ١٩٥٧ و١٩٥٨ ؟!

نذكر فضل د. أحمد زكى اليوم – ونحن نقدم هذا الكتاب الذى لم يسبق نشره من قبل – فهو أحد رموز الثقافة المصرية وأحد الذين ساهموا فى بناء مجلة «الهلال» ، ولم ينل حقه من التكريم ، فقد وصل قبل ثورة يوليو إلى منصب الوزارة ، ولم يتخل يوما عن دوره الثقافى ، ولم يترك قلمه حتى آخر يوم من حياته .

تولى رئاسة تحرير مجلة «الهلال» بين يناير ١٩٤٧ وحتى نهاية عام ١٩٥٠ ، وعاد وتولى رئاسة تحرير الهلال فى سنوات ٥٧و ٥٨ وتولى مسئولية مدير جامعة القاهرة أقدم وأعرق جامعة عربية ، ولكنه استقال بعد أزمة مارس ١٩٥٤ ، عقب الصدامات التى وقعت بين الطلبة والبوليس وترك منصبه فى الثامن من سبتمبر

١٩٥٤ ، إما احتجاجاً على دخول البوليس الحرم الجامعى ، وإما بعد فصل عدد كبير من أساتذة الجامعة ، وإما استحالة تعامله مع وزير تعليم عسكرى! .

وفى عملية كيميائية مزج أحمد زكى بين العلم والأدب ، فلم يحصل أحد على ما يطاول شهادته العلمية فى الكيمياء ، ولكنه ألف وترجم ، يقول عنه العقاد .. « لا أقرأ له إلا وأتصوره قد جلس إلى مكتبه وبيده قلم وبيده الأخرى مسطره وبرجل ..» ، ويقول عنه أحمد أمين .. « إنه أدب العلم ، إنه كيميائى عظيم وأديب كبير، مزج العلم والأدب كما يمزج بين السكر والماء ، فبينما نراه فى معمله بين الأنابيب والمحاليل ، نراه فى مكتبه يحلل الكلمات ، ويستخرج المعانى ويصوغ الأفكار ..» .

أما أحمد زكى فيقول .. «كنت أستاذ جامعة ، ومدير جامعة ، ورئيسا لمركز علمى مدة ربع قرن ووزيراً .. ولو أن الحياة عادت بى من جديد ، وأذن لى أن أتمنى ما تمنيت شيئا من هذه المناصب ، لقد تمنيتها قبل أن أكونها ، فلما كنتها ، تعلمت منها ما رغبنى عنها . إن الحياة طعام وشراب ، وهى أيضا فكر ، والفكر لذة يستمتع بها الإنسان وحده ، والفكر قراءة وكتابة .. » .

ثالث رئيس

وكاتبنا هو ثالث رئيس تحرير لمجلة «الهلال» ، فقد جاء بعد كل من منشئها جرجى زيدان ، ثم رئيسى التحرير ولديه إميل وشكرى زيدان ، ثم جاء أحمد زكى الذى اختار القطع الحالى للهلال، والمدهش أنه عاد إلى القطع الأول عندما أسس مجلة العربى - واعتنى بتطوير الطباعة والإخراج ، وأصدر «الهلال» اثنى عشر عدداً فى العام بدلا من عشرة أعداد ، واهتم بالغلاف والعناوين والإخراج ، وحرص على أن تكون صورة الغلاف فتاة عصرية رائعة الجمال ، وسعى لكى يصل برسالته الثقافية إلى القارئ فى كل مكان . وجعل «الهلال» جزءا حيا من الثقافة العربية ، ولم تعد بعيدة عن ثقافة القارئ ، ولم تعد تعزل نفسها عن قضايا الوطن الملحة ، وأصبحت وعاء لحركات فكرية واجتماعية ، ومنبراً لدعوات ومدارس فنية جديدة ، وحاضنة لتيارات فكرية فعالة ، وكانت أداة تجمع وتوحد حول قضايا حيوية وخلق تيار عام مؤثر ، ونقل أحمد زكى الهلال نقلة كبيرة فى الشكل والمضمون ..

وأهم إضافاته جعل العلم جزءا من نسيج المجلة وتلمس تأثيره عندما تجد بروازاً يعود فيه إلى دائرة معارف ، وعندما تلاحظ أنه يندر أن تجد خطأ لا يعقبه تصويب ، فقد كان بحق عالما موسوعياً مدققا ، يزن أبواب المجلة ويرتبها وينسقها بتوازن جمالى متميز .

وكانت المجلة الثقافية قبله لا تعتنى بالشكل وتكتفى بالمضمون ولكن بعد أن تطورت فنون الطباعة والاتصال ، أصبح من الضرورى العناية بالجماليات ، وخاصة بعد ظهور دراسات ووسائل مبتكرة للجذب البصرى ، لذا لم يغفل عن عناصر التشويق والجذب ، وإراحة العين بالفراغ والصورة .

الدنيا قصة

وتلحظ اهتمامه بالتشويق والجذب فى قوله .. « ليس ألذ فى أحاديث الناس من قصة ، وليس أمتع فيما يقرأ الناس من قصة ، والعقول قد تخمد من تعب ، ويكاد يغلبها النوم ، حتى إذا قلت قصة ذهب النوم ، واستيقظت العقول ، وأرهفت الآذان ..» .

ونجده يفتح صفحات مجلة «الهلال» على الكتاب العرب في كل مكان وفي عدده الأول في يناير ١٩٤٧ نجده يقول :« إننا نعود فنذكر أن «الهلال» مجلة العالم العربي كله ، وأنه يسرنا أن يساهم فيها أدباء الأقطار الشقيقة ..» .

وكما تلحظ فتاة جميلة على أغلفة «الهلال» في فترة رئاسته للتحرير ، تلحظ أيضا قصر المقالات التي تتجاوز أربع أو خمس صفحات ، فهي مقالات ينطبق عليها المثل القائل : « ما قل ودل» ، وهي مقالات عالية المستوى ، راقية الأسلوب ، ولن تجد كاتبا مهما لم يسهم بالكتابة في هذه المرحلة .

ولا يتناول هذا الحديث رصد ما أدخله من تغييرات ، وإنما هو مجرد ملاحظات سريعة ، يضع كاتبنا صيغة موسوعية للأدب والعلم والطب والفن ، ويأخذ من كل قسم بطرف ، ويحرص على التوازن الدقيق بين التراث والحداثة ، وبين العربي والغربي ، وبين القديم والجديد . وتعامل مع المجلة كأداة تثقيف عام ، يعرف القارئ بكل شئ ولم يقتصر عالمه على الغرب بل امتد إلى كل أنحاء العالم ، ويقول شارحاً رؤيته ومذهبه في دور المجلة الثقافية .. «إن أستاذ الطب تلميذ غالباً عندما يتصفح مقالاً

فى فلسفة الأديان ، وأستاذ الفقه الإسلامى تلميذ غالباً عندما يتصفح مقالاً فى نفسية المراهقين والمراهقات ، وأستاذ التاريخ تلميذ غالباً عندما يقرأ مقالا فى إنتاج الكهرباء من الذرة وهكذا ..» .

ويفتح صفحات «الهلال» لكل موهبة وينادى .. «يجب ألا يقتصر «الهلال» على ما يكتبه أصحاب المكانة المعروفة ، والصيت الواسع ، بل يجب أن يساعد على إبراز النبوغ الكامن وتشجيع الكفاءات الجديدة .. وسنبذل عناية خاصة بفحص ما يرد إلينا من الكتاب الناشئين ، ولعلنا بذلك نخدم هؤلاء الأدباء وجمهور القراء».

الثقافة العلمية

ويكاد يكون د. أحمد زكى هو أول من بشر ونادى بإدخال الثقافة العلمية لكى تصبح جزءاً من نسيج الثقافة العربية ، فهذا هو الطريق الوحيد للتقدم ، وأرسى بالفعل قواعد تناول العلوم ومعالجة الثقافة العلمية ، وتبسيط العلوم وتقديمها .

صحيح كانت مجلة «المقتطف» أسبق فى الاهتمام بالعلوم، فهى من أولى المجلات التى قدمت نظرية النشوء والارتقاء ، ونقلت

الكثير من العلوم الحديثة من الغرب ، ولكن أضرها تلك الرابطة التى كانت لها مع المقطم ومع الاستعمار البريطانى ، خاصة أن كل من فارس نمر وفرح انطون قدما إلى القاهرة مع الاحتلال البريطانى .

ولعله يمكن تبين الفارق بين «هلال» أحمد زكى ومجلة «المقتطف» فى تعريف الثقافة ، فإذا اقتصر تعريف الثقافة على مجموعة المعارف ، فقد قامت بها المقتطف ، ولكن الثقافة كما قدمها د. أحمد زكى أوسع وأرحب من مجرد المعلومات ، فهى هذا الشئ الذى نرثه ويتناول إدراكنا لذواتنا وسلوكنا ومواقفنا إزاء كل ما يحيط بنا ، وهو بالضرورة لا يعزلنا عن قضايا الوطن الملحة ..

ويبدو أن الاستعمار البريطانى جاء بفكرة أن العلم الحديث قادر على القضاء على التراث ، فوضعت «المقتطف» العلوم الحديثة فى مواجهة التراث ، وجعلت الاختيار ضروريا بين العلوم الحديثة فى الغرب وبين تراث الشرق، على اعتبار حتمية التناقض بين العلم الحديث وبين نظم الحياة ، وهياكل المجتمع فى الشرق !

لذلك لم يكن غريبا أنه عندما ترك فارس نمر مصر أن يترك ثمانية آلاف فدان ، حصل عليها من عمله فى المقتطف والمقطم ، أما أحمد زكى فقد مات غريبا بعد جهاده الطويل .

وقام أحمد زكى ومعه كوكبة من العلماء مثل د. عبدالحليم منتصر و د. عبدالمحسن صالح ، بسعى صادق لإدخال المنهج العلمى فى نسيج الفكر العربى من أجل تحديث البلاد .

مجمع اللغة العربية

وماذا بقى من سيرة حياته وإننى تلقى الضوء على بعض جوانب شخصيته فالدكتور أحمد زكى جزء من جيل لا تقف أمامه العقبات ، فعندما لم يحصل على بعثة للدراسة فى انجلترا ، عمل ناظراً لمدرسة وادى النيل الثانوية بباب اللوق لصاحبها المهندس وهبى بك والد يوسف وهبى ، مكان المدرسة الألمانية الحالية بباب اللوق ، وادخر راتبه وسافر للدراسة على نفقته ، ومن مدخراته ، عام ١٩١٩ ، وعاد عام ١٩٢٨ ، وأسهم فى تأسيس الجمعية الكيمائية سنة ١٩٣١ ، وظل رئيساً لها لمدة ربع قرن ، وأسهم فى إنشاء المجمع العلمى المصرى عام ١٩٢٩ وتولى رئاسته فى أوائل الأربعينيات وفى عام ١٩٤٦ أختير عضوا فى مجمع اللغة العربية.

وشغل مناصب علمية ثقافية عديدة : رئاسة الجمعية الكيمائية المصرية، ورئاسة الأكاديمية المصرية للعلوم ، ورئاسة المجمع المصرى للثقافة العلمية ، وعضوية مجمع اللغة العربية ، وعضوية المجمع العلمى بدمشق ، وعضوية معهد فؤاد الأول للصحراء ، وعضوية المجلس الأعلى لدار الكتب .

ومنذ كتابه الأول «مبادىء الكيمياء» توالت كتبه ، فاشترك مع الزيات فى ترجمة «غادة الكاميليا» وترجم « جان دارك» و «قصة الميكروب » و «سلطة علمية» و «ساعات السحر» و«بين المسموع والمقروء» واعتبر كل عدد من «الهلال» خلال رئاسته لتحريرها كتابا كأحد أبنائه .

وفى قصة حياة أحمد زكى العديد من المصادفات ذات الدلالة .. ومنها أنه زامل كلا من محمد فريد أبو حديد ومحمد عوض محمد وعبدالحميد العبادى ومحمد بدران ومحمد شفيق غربال ومحمد أبو زهرة وعبدالوهاب خلاف ومحمد كامل سليم ، وهى مجموعة متميزة ساهم كل منهم بإنجاز فى مجاله ، وخرج هذا الجيل من عباءة ثورة ١٩١٩ .

وها هو ذا يقول : « إنه كان هو ومصطفى عبدالرازق ومنصور فهمى وأحمد أمين زملاء فى مدرسة ثورة ١٩١٩» .

وتمضى الأحداث مع حركة المجتمع ، ويزامل فى جامعة نوتنجهام على مصطفى مشرفة ومحمد أحمد الغمراوى ، وكان أحمد زكى ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة العلمية فى مصر بعد مصطفى مشرفة وعبدالعزيز أحمد .

ويروى جانبا حزينا مما صادفه فى حياته حول قصة بناء السد العالى .. يقول .. «جاءه مهندس يونانى . « صاحب فكرة بناء السد» ، وعرض عليه فكرة إنشاء السد العالى وأقنعه بها وطلب مساعدته ، فذهب به العالم الكبير إلى الوزير - قبل الثورة - فرد عليه الوزير مستنكراً وقال .. «إحنا فى إيه ولا فى إيه يا زكى» !!

محمد عبده وأحمد زكى

ومن يعيد قراءة حياة وأعمال «أحمد زكى» يلحظ أنه وهو الحاصل على أعلى الدرجات العلمية ، لم يأخذه البحث العلمى ، ولم يعكف على العمل فى معمل الكيمياء ، بل أخذ يكتب فى الصحف ويلقى المحاضرات ، ويقيم المؤسسات العلمية والجمعيات الأهلية ويساهم فى إصدار الدوريات المختلفة ، مما يعنى أنه أيقن أن زراعة الفكر العلمى فى التربة المصرية ، هو الدور الذى يبحث

عن من يؤديه ، ونجده يكتب فى هذا الصدد نحو موسوعة علمية ومع الله فى السماء ..

وألح علىّ سؤال حول انصراف د. أحمد زكى عن البحث العلمى وانصرافه الكامل للتأليف ، وهنا تذكرت تجربة الاستاذ الإمام محمد عبده ، الذى كانت بدايته مع جمال الدين الأفغانى ، وبعدها اشترك فى الثورة العرابية ، وبعد فشلها سجن ولوحق ونفى ، وغرق فى العمل السياسى والسرى وأصدر مجلة «العروة الوثقى» ثم انصرف عن العمل السياسى المباشر ، وأدرك ضرورة الاهتمام بالتربية والعمل الثقافى ، فأخذ يساهم فى تطوير التعليم وتطوير الدراسة فى الأزهر الشريف ، وإقامة الجمعيات الأهلية وغير ذلك من الأنشطة الفكرية .

وكذلك فعل د. أحمد زكى الذى وجه إهتمامه للعقول وأدمغة البشر التى تصنع النهضة ، ومن كلماته .. «أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح .. كل السلاح فى المدى الطويل ، إنما هو العلم والعرفان .. فألقينا سلاحنا ، هكذا أعلنا ، واستبدلنا بالسلاح القلم ، وألفنا عام ١٩١٤ لجنة سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر» .

وكان أول كتاب صدر عن اللجنة هو «مبادىء الكيمياء» لأحمد زكى فقد اضطلع العالم الكبير بالعمل على بناء صرح العلم الحديث، وتمكين الثقافة العلمية من النفوس .

وها هو ذا يقول ما يوضح رسالته .. «الفارق بين العلم والأدب مفتعل ، وهو أكثر افتعالاً فى الشرق . فكل كاتب فى الشرق مفروض أن يكون أديبا ولو كان عالماً .. ومن غرائب الشرق أن يستغرب أن يكون العالم أديباً..» .

الرحيل من مصر

وشغلنى أيضا السؤال التالى ، وهو لماذا رحلت هذه الشخصية الفريدة من مصر ، وسافر إلى الكويت لإنشاء مجلة العربى ؟! ولماذا لم يوضع اسمه رئيساً لتحرير مجلة «الهلال» فى السنوات ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، رغم أنه كان يمارس عمل رئيس التحرير .. ؟! وهل هذا من عمل أصحاب الدار ؟! أم باختياره ؟ ولماذا رحل من القاهرة إلى الكويت ، علما أن الكويت فى هذا الوقت لم تكن قد استقلت بعد ، وأن مجلة العربى صدرت من مبان مؤقته ، أقيمت على عجل تطل على الخليج العربى ..

وتقترب إجابة هذا السؤال من المسكوت عنه من تاريخ ثورة يوليو ، والتى تتمثل فى سعى بعض المسئولين ملاحقة السياسيين

من بقايا العصر الملكى ، كأحد نتائج الصراع السياسى الحاد الذى واجهته الثورة ، وخاصة بعد أزمة مارس ١٩٥٤ . واعتبرت الثورة د. أحمد زكى سياسياً سابقا لأنه تولى الوزارة قبل الثورة ، ولأن أخاه كان الطيار الخاص للملك فاروق ، وأنه كان ينتمى للمدرسة الليبرالية التى قامت مع ثورة ١٩١٩ .

رغم أن بعض السياسيين والمثقفين القدامى نجحوا فى الإفلات من الاستقطاب ، مثل د. طه حسين إلا أنه لم تفلت شخصية أخرى مثل د. محمد حسين هيكل الذى كان رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ورئيسا لمجلس الشيوخ وفى نفس الوقت أحد أهم الكتاب .

وكان على الثورة أن تميز بين السياسيين والمثقفين ، فالبعض كان بالفعل فى خدمة السراى والإنجليز ، ولكن معظم السياسيين، كانوا يعملون من أجل نهضة البلاد ، وإن تعاونوا فى بعض الأحيان مع السلطة القائمة حينئذ .

وكان د. أحمد زكى قد بلغ الستين قبل خروجه من الجامعة وبدأ حياة ثقافية جديدة انتهت برحيله إلى الكويت ، بعد الحصار الذى تعرض له ، ويكفى أنه عمل رئيسا للتحرير كالجندى

المجهول، وكانت عملية الرحيل جزءا من ظاهرة عاسة ، اشترك فيها، السنهورى باشا الوزير السابق ورئيس مجلس الدولة ، ووحيد رأفت ، وسابا حبشى وزهير جرانه .. وغيرهم .

وها هو ذا د. أحمد زكى يعبر بأسلوب غير مباشر عما تعرض له من الثورة بقوله .. « من الثورات التى أعرفها ، ثورات نحت من رجال الفكر رجالاً لهم كفايات ترجح بهم فى الموازين ، لو أذن لهم فى البقاء حيث هم ، فى العهود الجديدة لسهلوا الطريق وكشفوا عن الأخطار ، ونفعوا نفعا عظيما .. ولكن بدلاً من هذا ركنت هذه الثورات فى كثير من الأحيان إلى أصناف من الرجال لم يكن فيهم النضج الكافى ، ولا حتى الإيمان بالجديد الذى خشيت الثورة أن يكون قليلا فيمن أبعدوا ، ولم يكن فى الكثير ممن أبعدوا عن مشاركة ، نقص فى إيمان ، ولا عزوف عن جديد ، وكانت لهم قلوب مليئة بالنقمة على القديم ، لكنها عادة فكر كان من شأنها النظر قبل القطع والاستماع إلى الرأى الحر قبل إبداء المشورة ..» .

ويعود ويروى تجربته فى تولى المناصب السياسية بقوله .. «وكانت تجربتى فى الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها أن للحكم

ظاهراً يعرفه الناس ، وأن للحكم باطنا لا يعرفونه ، .. رجل مثلى تعود أن يقيس الأطوال بالمتر ، فإذا قاس شيئا طوله عشرة سنتيمرات فلا يستطيع أن يقول إنها عشر بوصات ، لو قرأها عشرون رجلا من حوله من أهل الحكم .. إنها عادة أهل العلم يضيق بهم أهل السياسية ..» .

وتذهب المناصب السياسية بحلوها ومرها ، ويبقى خالداً العمل الفكرى ، وتستمر مدرسته قائمة على طريق النهضة والتحديث ، ونحو آفاق المستقبل .

بين الشباب والكهولة

يعجبنى الشباب إذا.. *

يعجبى الشباب إذا هو أدرك إنه الشباب، فأخذ له أكثر حقه، وأعطى عنه أكثر واجبه، ومضى على ثقة يداعب الآمال، ويحلم الأحلام.

يعجبنى الشباب إذا هو استقام واستطال، ثم انفتل، عضل مشدود يستطيع أن يرتخى، وذراع ممدودة تستطيع أن تنطوى، ورأس مرفوع، وصدر مفتوح، يستقبل الريح باردة، ويستقبلها لافحة، وظهر عريض يحمل الأثقال ابتساما، وقدم ككرة المطاط لا تمس الأرض حتى ترتد عنها، ومفاصل كمفاصل الفولاذ أغرقت فى الزيت، وجسم صحيح سليم كالدينار، إذا ضربته على الرخام رن، له متانة الحديد وليس به مسه، نشأة أبواه فأحسنا تنشئته، وروضته الرياضة فأحسنت ترويضه.

يعجبنى الشباب إذا هو تأنق وترقق فى غير أنوثة أو خنوثة، فيعجبنى منه الوجه الطلق النظيف الذى يعمل فيه الموسى كل يوم،

---

* الهلال – يناير ١٩٤٨

أو لا يعمل أبدا والشعر المقلم الممشوط والثوب البسيط الأنيق، فتلك زينة خليقة بابن آدم، وهى أخلق ما تكون بشبابه، وهى ضريبة المنظر الطيب الذى لابد أن يشيع فى دنيا يخفف من عنتها أن تقع العين فيها على الحسن الجميل، ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنق، وينبو عن الترقق، فإن كان العمل فحما وزيتا انغمس فى الفحم والزيت، وإن كان انبطاحا على الأرض تمرغ فى تراب الأرض، وإن كان بخارا وعفارا، نشق الأبخرة، ولم يشح بوجهه عن الأعفرة. فإذا انتهى النهار دخل الحمام، وخرج منه فعاد إلى التأنق على الصحة التى أكسبها العمل ، وإلى الترقق على القوة التى اكسبها مران العضل.

يعجبنى الشباب إذا هو تفقع وتفرقع بالحياة، فإذا ضحك ضحك عاليا، وإذا نكت نكت مسموعا. ويعجبنى فيه الحس بالفكاهة، يتلقفها طائرة، ثم هو يطلقها ليلقفها الناس.. ويعجبنى منه أن يخلع عذاره أحيانا، كما يخلع الفرس، فيطمح ويجمح، ولا يكون ذلك منه ديدنا. وهو مع هذا يعزف عن الخنا ويحبس لسانه عن مقالة السوء ، ويجيب داعى المروءة، فيتمهل فى سرعته ليعين طفلا، أو يقوم عن مقعد لتقعد امرأة، وهو يحترم أخت صديقه إذا

لقيها فى الطرقات، ويعلم أن كل من يلقى من نساء إنما هن أخوات وأمهات وعمات.

وهو يحترم وقار المواقف وسكون المجامع، فلا يقف والناس قعود، ولا يقعد والناس قيام، ولا يضحك والناس محزونون مكروبون.

* * *

يعجبنى الشباب إذا هو أدرك أن الصبا عهد متعة ولكنه كذلك عهد تحصيل، وأن حياة الرجل المدنية الحاضرة غير حياة رجل الغابة ورجل الصحراء. وأن المدنية جلبت للناس الراحة، وجلبت المتعة، وأنها لم تنزل من السماء جاهزة، ولم تسقط إلى الأرض على الدعاء والتمنى، وإنما هى نتاج مجهودات عقلية جبارة، وهى حصيلة القرون وإرث الأجيال. والأمم تتوارثها بالحفظ، وتقوم عليها بالكد، فتجدد باليا، وتملأ فارغا، وتزيد على ما كان.. وكل فرد يولد على هذه الأرض مسئول عن هذا الإرث، وله فى حفظه، وتجديده، وزيادتها نصيب. وهو إرث لا يتأهل لحفظه وتجديده وزيادته كل أحد.. فالمدنية الحاضرة مدنية من نتاج الصنعة.. وهى صنعة الإنسان العاجز إذا هى قورنت بصنعة الطبيعة القادرة

الخالدة، ومن أجل هذا جاءت مدنية الناس كبيرة ضخمة غليظة معقدة كثيرة المحاور، كثيرة العجل، كثيرة التروس، كثيرة التعاشيق، لايمسها فلا يفسدها إلا من درس وحصل، وورث علم القرون ووارثو علم القرن، وحاملو المشعل من جيل إلى جيل، إنما هم شباب الجيل، لهذا وجب أن يكون الشباب متعة ودرسا . أما المتعة فلأن الشباب أقدر على متعة، وأحس بلذة، وكل لذة عنده جديدة، وعمره من بعد ذاك كعمر الورود قصير، وأما الدرس فلأن الدرس تبعة الانسان لنفسه، وعلى عمده يقيم بناء مستقبله، ومستقبله إذا ساء بكى عليه، وبكى وحده، وبكى حين لا ينفع بكاء. ثم لأن الدرس حصة الإنسان فى مواصلة المدنية وفاء بمسئوليته للقبيل وللأمة والجيل.

يعجبنى الشباب أن يكون مجددا متجدداً، يعلم أن عربة الحياة لابد أن تسير، وأن تسير دائماً نحو النور. فالعلم لابد أن يتجدد، وتتجدد أساليبه. والمال لابد أن تتجدد طرائقه، ويتجدد كاسبه، وتتجدد حظوظ الناس فيه. والصحة لابد أن تتجدد فيها المرافق، وتجارى الزمان، وأن تتوزع منافعها وفقا لما يراه الجيل الجديد من توزيع المنافع على بنى الإنسان، والأدب لابد له فى العصر الجديد،

والبيئة الجديدة، والحاجات الجديدة، ومن مذاهب فى البيان جديدة تساير الناس فى معاشهم، وتمس الحياة من قريب، والحكم يتجدد، فهو من حيث أسلوبه لابد أن يجرى على أحسن الأساليب، ومن حيث إدارة دولابه، لابد أن يجرى على أحدث ما تجرى الدواليب. ومن حيث اقامته لابد أن يكون لكل فرد في الناس صوت فيه مسموع. وهو من حيث الثمرات، لابد أن يكون لكل عضو في مجتمعه فرصة متساوية عند الزرع، لتكون له فرصة مواتية عند الحصاد والصناعة يتجدد، فينتقل بها المجددون من عمل اليد إلى عمل البخار، ومن البخار إلى الكهرباء، ومن الكهرباء إلى الطاقة الذرية حين تكون، والتعليم يتجدد، فتتجدد كتبه، وتتجدد فنونه، ويستهدى فيه أكثر استهداء بآخر ما وصلت إليه علوم النفس من كشف بواطن النفس وخفاياها، كل هذا جميل أن يتجه الشباب فيه إلى التجديد، فهو مما يتغير ويتبدل على الأيام..

ولكن فى الحياة عناصر قديمة لا يمكن أن يعتريها تغيير وتبديل، إلا أن تتزلزل أركان العيش، ويتقوض بناء الحياة، فالأمومة قديمة، والأبوة قديمة، والبنوة قديمة، وواجبات هذه وهذه كلها قديمة، وكذلك حقوقها. وهى حقوق وواجبات قد تطول وقد

تقصر، وقد تتسع وقد تضيق، ولكن قدرا منها لابد ثابت لضمان سير الحياة واتصال روابطها. فالتحرر قد يكون في شئ وشئ وشئ، ولكن التحرر لا يمكن أن يكون لطفل رضيع أو صبي يافع، والتحرر كل التحرر لا يمكن أن يكون حتى لشاب بالغ، ما دام أن هناك شيئاً يسمى العجز، وما بقى الزمن عاملا في بلوغ القدر اللازم من خبرة الحياة.

يعجبني الشباب إذا هو أصغى إلى الملق الكثير الذي يكال له هذه الأيام كيلا، فأخذ منه بمقدار ما يأخذ من المنبهات التي تنعش وتنشط، ولا يزيد فيكون ذلك إدمانا، فالمدح والاطراء للتشجيع، وليس أحوج إلى تشجيع كناشئ وليس أجمل من تشجيع هدفه شباب الأمة.

ولكن الذين يتملقون الشباب لأغراض شتى، ليست كلها مما يباركها الله، قد أفرطوا، حتى حسب كثير من الشباب، أن الشباب في ذاته مؤهل لولوج كل باب، وهو أنما يتأهل لولوج الأبواب بالذي يحصله في صباه، وبالقدرة والخبرة اللتين يكتسبهما فيه وجعلوا بين الشباب والكهول خصومة، لا تجد خصومة مثلها، ولا في مثل حدتها، في أمة من الأمم.. ودخلوا بالسعاية بين الأبناء

والآباء، جموحا بالأقلام، واسترسالا فى البغى، ومناقضة للطبيعة، حتى حسب النشء أن مطالب العصر، وحوائج الاصلاح، يجب أن يسبقها تحضير الاكفان، وحفر القبور، وشق اللحود، ليكفنوا ويدفنوا ويواروا عن الدنيا كل من خانه الحظ من الرجال فاستطال به العمر إلى الخمسين أو الستين.

ونسوا أن من هؤلاء أمهات لهم وآباء. ونسوا أن هذا لو كان من خير الحياة ما أغفلته الطبيعة، ونسوا أن فترة شبابهم بحكم الزمان قصيرة، وأنه لا يلبث طالب منهم أن يكون مطلوبا، وكافن منهم أن يكون مكفونا، ودافن منهم أن يكون مدفونا لقد كدنا نخال من كثرة ما سمعنا أن الشباب علم على جنس قائم بذاته، وعلى حدته، وما هو الا دور فى حياة جنس واحد من أجناس الاحياء يعرف بالجنس الإنسانى.. ومع الدور أدوار.. فدور الطفولة يأتى من بعده صبا فيفاعة فشباب فرجولة فكهولة، ثم شيخوخة.. ولو أن المرء إذا بلغ شبابه استطاع أن يوقف هذه الكرة الأرضية فلا تدور، وأن يطلب إلى الشمس أن تثبت فى سمائها فلا تغيب، إذن لركعنا للشباب وسجدنا، وسبحنا ومجدنا، ورتلنا التراتيل وأحرقنا البخور، ولكنه مع الأسف الشديد ساعة واحدة متزايلة فى نهار العيش، وكل نهار أوله شروق وآخره غروب.

حب الأوطان *

ليحى الوطن، ولتحى مصر، ونحن نحب الأوطان، كلمات كنا نقولها على الصبا فى صوت جهير، وفى غير فهم كثير، أيام الأحاسيس هى المرهفة، وهى الغالبة، وهى المتسلطة، وأيام الفكر منضمر.

متخاذل، قد زحمته العواطف، فدفعته، فانزوى إلى جانب الطريق يفسح للموكب المتدفق السبيل. وتمر الأيام فيصبح الصبى شابا، فرجلا، فكهلا، فتقل عاطفته ويزيد فكرة، ويضعف صراخه ويقوى منطقه، وقد يستحى أن يهتف مع الهاتفين، إلا أن يكون زعيما من صناعته الهتاف، ومع هذا فهو يجد فى القرارة من نفسه، وفى المهجة من قلبه عاطفة قوية جامحة، كعاطفة الحب على الشباب الجامح، هى حب وطنه، وحب أهله وعشيرته، وهو إن لم يهتف للوطن بحياة، هتافا يشق الهواء مسموعا، فهو يهتف به فى حنايا نفسه هتافا ترن فى جنبات النفس أصداؤه، فيهز جدرانها،

* هلال - فبراير ١٩٤٨

وينالا من أعصابها نعم.. أن حب الوطن ليس وقفا علي عمر دون عمر، ولا على جيل دون جيل، ولا على قبيل دون قبيل، وأحسبه بدا مع آدم. تلك الالفة التى يألف بها القلب المكان، ويألف العيش، ويألف من صحب من الناس، ولما كانت الالفة تزيد على السنين، فهى تزيد بتقدم العمر. فإنا ذكر الشاب الوطن بما قضى فيه من طفولة وصبا، ذكر الكهل الوطن بما قضى فيه من طفولة وصبا وشباب واكتمال.. فكان بالذكر أعلق، وبه امتع، وللوطن من أجل ذلك أحب:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبا فيها فحنوا لذلك.

والشاب قد يفتدى وطنه حبا فى سورة من سورات الشباب تحجب عنه العواقب. والشيخ قد يفتدى وطنه، ولكن على ثقة وعلى علم بالعواقب. وعلى مثل هذه الثقة هذا العلم افتدى ريجليوس الشيخ الرومانى المشهور وطنه، وصار مضرب الامثال فى حب الاوطان، عند رومان وغير رومان. حاربت روما قرطاجنة وغلبتها بحراً وعادت الأخرى فغلبتها برا.. ووقع ريجليوس، وهو قنصل روما وسيدها وقائد جيشها، وقع أسيرا فى أيدى القرطاجنيين. ثم فكوا أساره على أن يعود إلى روما فيغرى قومه، إما بالصلح وإما

مبادلة أعدائه بعدة من أشرافهم وقعوا فى أسر روما، فإن لم يكن صلحاً أوافتداء، عاد إليهم أسيرا، وحلف لهم بشرفه أنه يعود. واجتمعا شيوخ روما فى مجلسهم يتشاورون. وقام ريجليوس فيهم يبدى رأيه فإذا به لا يرضى للحرب وقفا ولا يرضى عن افتداء نفسه بفكاك الأسرى، وإذا به يقول لهم إن صالح الوطن فى غير هذا وهذا، وأنه رجل شيخ لم تبق منه بقية ترجى، وأنه هم اليوم أو غد. وترددوا فى الحكم فقال لهم: «علام التردد، وفيم حبسكم إياى عن العودة لأختتم أيامى الطويلة بيوم للفخار كبير، أستقبل فيه عذابا شديدا، ولكنه عذاب قصير، أرقد بعده رقدة الابد، على الراحة والطمأنينة».

واقروه على ما رأى.. وقام يودعه أهله والصحاب، على قلوب كسيرة وأعين دامعة.. وسار إلى موت لا شبهة فيه، ولقى قبله من العذاب ما ظن أنه ملاقيه وحب الوطن ككل حب، لا يحس به صاحبه حتى يمتنع، وتمتنع أسبابه، وتجف منابعه وتنحبس أفاويقه.. كالثدى لا يفتقده الطفل كافتقاده عند فطام قيل لاعرابى: «أى بنيك أحب إليك؟» قال: «الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يؤوب». والوطن أحب ما يكون عند الغائب حتى

يؤوب. وقد ينام حب الوطن فى قلب أهله، حتى توقظه الغربة، فيصحو على الصراخ والعويل.

ونعيم العيش فى غيبة الوطن يهون، وتعز السلوى ويغلب الاسى بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن هكذا قال المتنبى فى غير شرخ من شباب، ولقد أغترب المتنبى كثيراً، فأحب وطنه كثيراً. وجاء العيد، وهو محرك الذكريات، فيما احتفل فى غربته بعيد، وود لو أن بينه وبينها الصحارى والبيد:

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى، أم لأمر فيك تجديد

أما ألا حبه فالبيداء دونهم

فليت دونك بيدا دونها بيد.

ومنذ عامين خرج عن مصر أستاذا جامعة أعرفهما. وخرجاً ضيقا بمصر وضيقا بأهلها. وخرجا إلى الولايات لغير رجعة وخرجا بقضهما وقضيضهما. والجنسية الجديدة طلباها. ونزلت من أمريكا حيث نزلا، فلم أود لهما لقاء.. وألح أحدهما فلقيه على مضض. وقص لى قصة طويلة مرة كانت له بمصر، لم تكف عندى فى تبرير هذا الهرب من الواجب الوطنى، فى وقت.. الوطن فيه

أحوج ما يكون إلى رجاله. وانفتحت ثغرة فى الحديث تلقفتها لأغريه بالعودة إلى مكانه القديم استاذا. فغضب غضبا كدت أحسبه غضبا خفيا على نفسه لما سولت. فقلت لا والله، ما أغضبك الا حب فى قلبك لوطنك، ولأهلك، ما تستطيع لجذوته أخمادا، ولا لصوتها أخفاتا وتركته وبعد أشهر قرأت فى الجرائد المصرية خبرا: «توفى أمس فى نيويورك الاستاذ المصرى فلان، الباحث فى معهد كذا، قضى على نفسه بنفسه، فشرب السم زعافا، ومات لساعته. وخلف كتابا».

وودت لو أطلعت على هذا الكتاب، أذن لو جدته كتابا بللته دموع غزيرة لا شك سكبها عليه كاتبه ، فى ساعات العمر الاخيرة، وهى تحفل بذكريات السنين، ذكريات الوطن الذى زعم أنه ضاق به، ولم يضق به قلبه. والاستاذ الثانى ماذا صنع؟ إنه يتربص الفرص، وهو الشاعر، ليرسل إلى الوطن الحبيب رسائل الغزل من بعيد وأهل المهجر الامريكى، ماذا صنعوا بعد أن خلفوا الأوطان؟ تشبثوا بها، وتشبثوا بلغتها، فكانت لهم فى المهجر البعيد صحف بالعربية، واجتماعات يؤكل فيها الطعام عربيا، ويشرب الشراب عربيا ويجرى الحديث عربيا صميما، عربى اللفظ،

عربى الموضوع. وخلف منهم خلف لم ير الوطن العربى، ولكن بقى في قلبه منه بقية شوق.. دخلت مطعما هناك، أنا وزميلى المصرى. وجرى الحديث بيننا عربيا، وكان حامل الطعام بالمطعم شابا وسيما، لا حظت أنه كانا يركن إلينا طويلا على غير عادة. فنظرت إليه نظرة استفسار قال: «بالله استرسلا فى حديثكما.. فإن جرسا هذه اللغة يذكرني بأمي الذاهبة، وأنى لا أفهم شيئاً مما تقولان إلا كلمات يكفينى منها أنها تذكرنى بطفولتى الحبيبة»..

نعم.. لم يبق من وطنه القديم من صلة إلا طفولة قصيرة، قصرتها وفاة أم عزيزة..

وسيأتى من بعد هذا الخلف أخلاف، تختلط فيها الذكريات وتنبهم، ويحل جديد منها محل قديم، وتستبدل فيها أوطان بأوطان.

إلى أين المسير ؟ *

سألنى شاب : «إلى أين المسير؟»

وأجيبك فأقول:

– لو أنا نسير منها فى أرض مبسوطة كل البسط، ولو أن لنا أعينا تبصر إلى أبعد مدى، إذن لعرفنا إلى أى شئ تؤدى بنا هذى الخطى، ولكن الأرض ليست بالبسيطة، فهى ذات نجاد ووهاد، والأعين التى لنا لا ترى إلى ما لا نهاية له. وهى كذلك لو رأت ما جاز لها أن تخترق ببصرها التلال والجبال لترى ما وراءها، وعدا هذا، فالهواء غير صاف. إن فيه ضبابا لا ينقشع أبدا. إن العناصر قد تعاونت جميعا علينا، وتناصرت، وتآزرت حتى لا نرى من مسيرنا، أو مصيرنا، شيئاً.

ولكن ما أنت أيها الشاب وسؤال فى المسير والمصير!

إن الشاب يسأل عن غده، وكفاه بغده فى المستقبل ايغالا وأنت صائر فى غدك إلى الرجولة وكفى بها اليوم غاية. فإذا بلغت

* هلال – فبراير ١٩٥٠

الرجولة، فسوف تسأل عن الكهولة، وعندئذ يخبرك الخابرون كيف تتزود لها. فإذا أنت بلغت هذه، فسوف تعلمك الأيام أنه لا معنى للسؤال، ولا فائدة ترجى، فإن أنت ألححت فما تزيد نفسك إلا ضيقا، وما يدخل في روعك ألا قلقا وذعرا.

على هذا درج الناس.. وعلى هذا سوف تدرج.

ولكن من الشباب من ولدوا شيوخا، وأنت منهم.. ومن الشباب من هم على الجدة شديدو الحس بالزمان وفوته، وكذلك أنت، وكذلك كنت أنا فى شبابى..

قضيت بهذا الكون عشرين حجة وثنتين، يا لهفا على ما أنقضى منى ويا حسرتا أن يمضى الدهر دائبا حثيثا ولا أقضى اللبانة من سنى بهذين البيتين، من أبيات، سجلت هذا الحس الشديد، الحس بالزمان وفوته، الذى كان بى فى تلك الأيام الخالية.. ومضى الدهر دائبا حثيثا على الرغم منى، ولكنه علمنى شيئاً، أن لا أحفل بالزمان، وأن أكف فلا أسأل إلى أين المصير إن المصير الظاهر هو مصير كل الناس، بهذا يقضى المنطق والقياس.

لما رأيت مواردا.

للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها..

يمضى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضى إلى

ولا من الباقين غابر

أيقنت أنى لا محا

لة حيث صار القوم صائر

ولكن إلى أى شئ صار القوم؟

عن هذا سكت قس بن ساعدة فلم يقل شيئاً، لأنه لم يستطع أن يقول وراء ذلك شيئاً..

لا يا سائلى الشاب، يا صاحب الاهاب المشدود، والعضل المفتول، والدم المتدفق الحار! ما تستقيم هذه الغضارة، والنضارة مع سؤال تسألنيه: إلى أين المسير».؟

ولقد ساورتك الشكوك فما تكاد تستبين شيئاً.

ونصيحتى إليك، إذا اختلط غليك ما تقرأ، وإذا هوش عليك ما تسمع، وإذا ذهب بايمانك فى كل شئ ما ترى، نصيحتى إليك أن ترد كل أمر مما تتشكك فيه، أو تستهدى، أو تسفتى، أن ترده إلى شئ جربته أنا، فوجدته لا يخطئ أبدا، ولا يكذب ابدا، ولا يضل ابدا، ولا يخدع أبدا.. تلك هى فطرتك..

فطرتك هذه هى منار الهدى لك، ما بقيت سليمة. هى مصباحك الذى ينير لك السبيل ما حفظت عليه فلم تأذن لأحد أن يفسد زيته أو يعبث بفتيلة أو يحطم زجاجه. فطرتك هذه، هى فى داخلك، تستمد منها العون فتغنيك عن عون يأتيك من خارجك أنك إذا اتبعت ما توحى به الفطرة سلمت عاقبة.

أن فى فطرتك أن تجوع، وعندها تستجيب لها فتأكل، وتأكل هنيئا، وتخرج من أكل كهذا، استجابة للفطرة، سليما.

وفى فطرتك أن تعطش، وعندها تستجيب لها فتشرب، ولو اجتمع أهل الأرض حولك لينصحوك فيما تشرب، لما علموا متى تشرب ولا كم تشرب. وانما يأتيك خبر ذلك همسا من داخلك، من فطرتك.

وفى فطرتك أن تحس البرد، فتستدفئ. وفى فطرتك أن تحس الحر فتستبرد وتستروح، وفى فطرتك أن ترى الأنثى فتحب وتطلب الألف .. ولو أنك لم تر الأنثى قط، ولن تسمع عنها قط، لقام الحب يصرخ فى جوفك فتقوم تطلب له ريا فتهيم على وجهك فى فجاج الأرض حتى تقع على الأنثى فتطيب، وأنت لا تعرف لماذا تطيب، وأنت لا تعرف أنها الأنثى.

وفطرتك هذه تعمل على رغمك. فأنت تجوع وتعطش، لا لأنك تشاء أن تأكل وتشرب، ولكن لأن الفطرة تعمل لك على البقاء، فتقترح عليك ما تفعل، وعليك الطاعة، وأنت تحس البرد وتحس الحر لا لأنك أردت أن تبرد أو تحتر، ولكن لأن الفطرة تقوم عليك حافظة لك من تلف، فتقترح عليك الدفء والاسترواح، وعليك الطاعة. وأنت تحب، لا لأنك تشاء أن تحب، ولكن لأن الفطرة شاءت أن يكون منك الولد، فقامت تسخن قلبك، وتلهب عاطفتك، وأعطتك مع الحب اللذة، لكى تستوثق منك بالطاعة..

فأنت في طعامك وشرابك ولباسك وحبك تعمل بما توحى به الفطرة، وأنت بالعمل على طوعها فى هذه الحقول الأربع تجنى الوجود وتجنى الصحة مع الوجود، وتعمر الأرض، وفى عمار الأرض الخير، أو هذا على كل حال غرض من أغراض الفطرة تعمل هى فيك على تحقيقه..

وأذن فلست أدرى لماذا لا تستوحى هذه الفطرة الطيبة الخيرة فى غير هذه من الحقول.

أرأيت كيف تستريح وتقعد، وتطول بك الراحة والقعود، فتهمد جسما، وتسأم نفسا، فتطلب القيام والحركة، وتتحرك ولو إلى غير

غاية، وتستلذ التعب وتستعذب الجهد؟. فما الذى أقامك من قعود، وأيقظك من راحة، وحركك إلى التعب اللذيذ؟ أنها الفطرة التى لم تشـأ أن تنشق الأرض عـمـا ينبت الحب ألا من بعـد بذر ورى، والرجـال باذروه وهـم راووه. أن الفطرة تأبى الراحـة الا طارئة، لأنها لما خططت، جعلت من حاجات هذ النظام الأرضى العمل. وهى من أجل ذلك تسئم المستريح الذى طال به استجمام.. وما اسأمها إلا أصبعها تشير به إلى وجهتها، وكيف تريد بالإنسان أن يسلك ثم أرأيت كيف تلد الأم شيئاً لا تعرفه، ليس بينها وبينه سابق صحبة، ولا يربطها به رابط من مودة أو ألفة، وهى ترى وجهه لأول مرة، ومع هذا فهى تفتديه بروحها – ولقد ندرك لهذا الافتداء سببا لو أن حياتها متوقفة عليه، ولكن ما هى بذلك، بل لقد تسوء به حياتها – فأين المنطق فى هذا ؟ إن أحدا لا يسأل عن المنطق فى هذا. والأم صاحبة الشأن لا تسأل عن المنطق فى هذا. أنها تطيع الفطرة ولا تأخذ تفتق عن عللها. إنها تطيعها اطاعة الأعمى.. وتأخذ الفطرة بيدها لتسير بها فى الظلام فلا تتأبى. ومن الظلام تخرج على يد الفطرة إلى النور فتحمد العاقبة فانصت يا سائلى الشاب إلى ما أقول، وأعمل فيه فكرا.

إن الذى أريده منك، فيما ترتاب فيه، أن تستوحى الفطرة، ثم تسلم لها قيادك كما أسلمت الأم، فتخرج بك من الظلام إلى النور، فتحمد العاقبة.

ودع عنك الأسباب وتقصيها إن المرء يتقصى الأسباب ويفحص النتائج، فيما يمكن أن يتقصى الأسباب فيه ويفحص النتائج. وليس كل أمور الدنيا يمكن فيه ذلك.

إن الفكر كالبصر له غاية، وليس جواب «إلى أين المصير» مما يدركه الفكر، ذلك لأنه جاوز تلك الغاية. وهنا تتدخل الفطرة فتعمل حيث يعجز الفكر.

إن الرجل منا فى فطرته التعبد. أنه يسهر الليل ملفوفا بسواده، فينظر فى سمائه، ويمعن فى نجومه وأجرامه، فى اعدادها وأبعادها، فى هذا المهرجان القائم، فيكاد يسجد وهو يسجد ولو لم يكن له دين يعلمه السجود، وينفض المهرجان فى هزيع الليل الآخر رويدا رويدا، ثم يخرج من الشرق قرص أصفر يضىء الكون، ثم إذا هو أبيض، ثم يعود إلى صفرته، ثم يتصوب ليبدأ مهرجان الليل من جديد. أفليس فى ذلك على الفطرة، ما يغرى بالسجود؟

فإذا أنا تعبدت وسجدت، فلا تسألنى لم تعبدت وسجدت، ولا تجادلنى بالمنطق، لا لأنى أخشى المنطق، ولكن لأن المنطق يخشانى، أن المنطق يخشى هذا المجال لأنه ليس مجاله. أنك لا تسألنى إذا أكلت بأى منطق أكلت. أنى أكلت لأن الفطرة تغرينى، وأنا تعبدت فسجدت، لأن الفطرة تدعونى. وكفى بالفطرة هاديا.

وإن أنت ألححت فسألتنى: «على أى دين سجدت؟» لقلت: «على دين الفطرة سجدت».

وأنا مثلك لا أعلم المصير إنى اعلم اليوم ما الشباب وما الكهولة، وحتى الشيخوخة أعرفها، ولكننى عن علم فى غد عمى.

ما خشيت الشباب، وماخشيت الكهولة، ولن أخشى الشيخوخة، لأنها الفطرة، والفطرة عودتنى ألا يكون منها إلا الخير. وأنا لن أخشى ما وراء ذلك لأن الفطرة تريده. والفطرة طيبة خيرة، فهذا ما علمت منها فى سابق الأيام.

وأنى بالفطرة أحس دبيب الفرح فى قلبى: إن هذا الخلق ما كان عبثا، وأن هذا الفكر الذى أفكر به لا يجوز فى إحساس الفطرة أن يكون ثم لا يكون، وأن هذه الدنيا لها ما وراءها..

الفقر داء عز دواؤه .. *

الفـقـر داء قـديم ، وهو من الداءات التى أعـيت الأمم وأعـيت القرون .

وكما أن الفقـر قديم ، فكذلك الثراء قديم . فلـم يوجد فقـر ألا وجد إلى جانبه غنى ، ولم يوجـد غنى الا وجد إلى جـانبـه فـقـر . إنهـمـا ككفـتى الميـزان ، إن شـالت إحـداهمـا من خـفـة ، حطت الأخرى من ثقل . أو هـمـا كـالضــوء والظـلام ، لا ينعكس الأول عن بيـاض حـتى تكون عند جــوانبـه ظلال من سـواد . أو همـا كـ «نعم» و «لا» . فلولا نعم ما كانت لا ، ولولا لا ما كانت نعم . ولولا الاثبات ما كان نفى ، ولولا النفى ما كان اثبات .

والذين يستوحون أصول الاخلاق والتخلق من الطبيعة ، يجدون هذا الخـلاف فى الحظوظ هو القانون السائد فى الكون . فالأدغال فيها القوى والضـعيف ، وفيـها السـائد والمسود ، وفيـها الشـابع والجائع ، وفيـها الأكل والمأكول . والنبات فيه الشـجرة السـامقة

---

* هلال – مايو ١٩٤٨

الطويلة ، والشجيرة القزمة القصيرة ، والعشب الذى انتفى منه حتى السوق والازهار . ومن النبات ما ينبت ، على الشبع والرى ، فى طينة النيل السوداء ، ومنه ما ينبت ، على الجوع والظمأ ، فى رمال الصحراء . والجماد فيه الجامد وفيه الهش .

والأرض فيها الجبال والوديان . والنجوم فيها الجليل والضئيل، والمعتم واللامع ، وفيها الشموس والأقمار ، وفيها التابع والمتبوع . فقانون الخلاف هو المسيطر على الطبيعة ، من حية وجامدة .

والإنسان ، سيد هذا الكوكب ، لو أن ذراريه ولدت متساوية الحظوظ فى الثراء ، ما بقيت لهم هذه المساواة فى الحياة طويلا . فلابد أن يفتقر منهم هذا ، ويثرى ذاك . ولابد أن يسعد هذا ، ويشقى ذاك لأنهم عندما ولدوا لم يولدوا بحظوظ متساوية ، فى أجسام وعقول وقلوب . لقد ولدوا وفيهم الطويل والقصير ، والبدين والنحيل ، والقوى الشديد ، والضعيف المسترخى . وولدوا وفيهم الأبيض والأسود ، والجميل والقبيح ، والذكى والغبى ، والجرىء والحيى ، والشفوق والقاسى ، وكل هذه صفات تسلك بالناس فى الحياة مسالك شتى ، تؤدى بهم إلى ما سيطر على الخلائق والكون من خلاف .

فإلى أن نستطيع أن نسيطر على الطبيعة ، لتخلق من الناس عند الولادة خلقا واحدا ، ذا كفايات واحدة وصفات واحدة ، وقوى واحدة ، فكل مجهود نحن باذلوه فى مساواة الناس بعضهم ببعض مجهود ضائع ، تأباه القدرة عند القادر ، والكفاية عند الكافى .

ولست أحسب أن مذهبا من المذاهب ، قديمها وحديثها ، ذهب يطلب هذه الغاية ، أعنى المساواة الكاملة بين الناس ، فى المكاسب والارزاق .

إن الذى يطلبه الطالبون اليوم ، وقبل اليوم ، ليس المساواة الكاملة ، ولكن حزم الأمور ، بحيث لا يبعد الناس عن هذه المساواة بعدا كبيرا .

قال رجل ممن يؤمنون بالخلاف ، يحتج عند رجل ممن يؤمنون بالمساواة : «أنظر إلى أصابع يدك ، هل جعلها الله طولا واحدا ؟!» فأجاب الآخر : «نعم ، أنها ليست على طول واحد ، ولكن ماذا يكون الحال لو أن الله أطال أصبعا منها أو أصبعين حتى صارتا مترا أو مترين ، أكانت يدك عندئذ قادرة أن تقبض على شىء» .

فالأمر إذن ليس كنه الخلاف بين الناس ، ولكن مقداره .

إن الذى أرق ذوى الضمائر من مفكرين وفلاسفة ، ليس الفرق فى المتاع بين إنسان وإنسان ، ولكن ضخامة هذا الفرق ، لا سيما تلك الضخامة التى لا يمكن أن تكون بسبب ما بين فرد وفرد من قدرة وكفاية .

ولقد حاول الفلاسفة والمفكرون ، من أقدم العصور ، تقريب شقة هذا الخلاف ، فأفلحوا قليلا وخابوا كثيرا . وحاول الانبياء والقديسون ما حاول الفلاسفة والمفكرون ، فأنصت الناس أولا ، وسدوا آذانهم أخيرا .

* * *

جاء ت المسيحية فكرهت فى الثراء الفاحش ، وشبهت دخول الغنى فى الجنة بدخول الجمل فى عين الأبرة . وجاء الإسلام فوقف من الغنى موقفا وسطا . حمد المال بحسبانه نعمة الله يهبها عبده لينفق منها فيكسب بها ثواب الله ، وذمة ذخيرة للخزن وأداة للغرور . وفى القرآن «ويل لكلِ همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده» . وفيه «ما أغنى عنه ماله وما كسب» . وفيه «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» . وفيه «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم» . وقبله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم

وتزكيهم بها» وفى القرآن ثلاثمائة آية فى الرحمة ومشتقات الرحمة، ذهبت كلها ادراج الرياح .

وزاد الإسلام فجعل الزكاة فرضا واجبا على كل ذى مال لمن لا مال له ، ربع العشر يؤخذ من صنوف الأموال جميعا والمتاع . ومات النبى ، فكان أول ما ثار العرب فارتدوا من أجله هذه الزكاة . وتحدى العرب أبا بكر فيها فتحداهم ، وقال قولته المشهورة : «والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه» .

وغلب أبو بكر . ولكن أمر الزكاة ، أمر هذه العدالة الاجتماعية الأولى لم يدم طويلا . ورجع الناس إلى طبعهم من الأثرة ورجع الخلفاء، وصارت الخلافة من بعد ذلك «ملكا عضوضا» .

وعم الشرق والغرب ، على الرغم من اسلام ذاك ونصرانية هذا، عمهما ضروب من الظلم رخصت عليها الحياة الإنسانية ، وضاعت الكرامة الأدمية وصارت الشعوب كالدواب عند السيد الأخرق ، تجاع وتركب .

* * *

وجاءت النهضة أوربا ، ونفذ اليها من العرفان نور ، فقامت

الشعوب ترفع عن أعناقها الغل الذى أثقلها قرونا طوالا . فكانت الثورة الفرنسية وماتبعها من ثورات . وتحرر الناس من قبضة الطغاة ، وصار أمرهم شورى بينهم . ولكنه كان تحررا سياسيا لا تحررا اقتصاديا . وتحت البرلمانات ، وفى ظلال المجالس النيابية ، بقى الناس يستعبد بعضهم بعضا ، فى حقول للزرع ، وفى أسواق للبيع .

ثم جاء الانقلاب الصناعى الكبير ، بانتاجه العظيم وثروته الهائلة ، فجعل فرق ما بين العامل وصاحب العمل فرقا كبيرا لم يكن يخطر لأحد ببال . وتجلت هذه الفروق فى بذخ هؤلاء حتى السفه ، ومحاولة أولئك أن يسدوا أرماقهم باللعقات يلعقونها من أطراف صحون العيش وهى فارغة . وفى أحضان المصانع ، وفى استراحات ما بين العمل ، خلقت الاشتراكية .

وظلت الاشتراكية تدأب قرابة قرن من الزمان حتى نالت ما نالت .

ولقد قضت الاشتراكية بزيادة الأجور ، وتقصير ساعات العمل، ثم تأميم ما استطاعت تأميمه من عمل وصناعة . فكل المرافق فى الدولة تؤمم ، والبنوك تؤمم . ثم يأتى دور الصناعة ،

فهى كذلك لا بد من تأميمها . فإذا ملكتها الأمة ، لكل عائدة منها تعود على الأمة ، أى على الناس وعلى العمال . وليست اغتصابا ، ولكن بيعا وشراء . ثم الضرائب تفرض على كل ذى مال بنسبة ماله . وهو إذا مات لاحقته الضرائب إلى باب القبر ، لتمنع عن ذريته أى احتمال لثراء ضخم .

وقصدت الاشتراكية بذلك إلى غرضين : الحد لا المنع – من استغلال الرجل الآجر للرجل المأجور . والحد – لا المنع – مما تراءى لهم أنه الظلم ، ذلك ولادة المولود فى غير حاجة إلى عمل بالذى ورثه أبوه.

ولقد كان من تطبيق المبادىء الاشتراكية ، على اختلاف درجاتها ، أن تقاربت المكاسب فى الأمم ، حتى الرأسمالية منها ، تقاربا كبيراً ، وأصبح ذو الثراء الضخم ليس بمستطيع أن ينفق من ماله ، مع كل هذه القيود ، إلا بمقدار ما ينفق الكثير من سائر الأمة .

* * *

وإلى جانب الاشتراكية ، خلق مذهب جديد سموه الشيوعية وما هو بجديد .

إن الفرق بين الاشتراكية والشيوعية ، بصرف النظر عما قد نفهمه من معانى اسمائهما ، فرق ابتداء وانتهاء . أنهما يبتدئان مختلفين ، ولا شك أنهما سوف ينتهيان مجتمعين .

الاشتراكية بدأت بالحياة الواقعة كما هى ورضيتها ورضيت أوضاعها ، ثم أخذت فى تعديلها برفق ، وفى حذر ، وفى غير معارضة كبيرة للطبيعة البشرية خشية أن تثور . فهى تؤمن بالفروق غير الكبيرة، وهى تؤمن بالحرية العاقلة الراحمة ، وهى تؤمن بالآمال الفردية أن لها مجالا لا يجب أن يضيق فتضيق به النفوس كما تضيق الأنفاس .وهى تؤمن بحق الفرد أن يشكل حياته اختيارا ، ولكن فى غير استغلال لغيره أو عدوان عليه .

أما الشيوعية فبدأت بالحياة كما خالتها أن تكون . وقد خالتها فى أول الأمر كحياة الجند ، ساوى بينهم المأكل والملبس ، وانقسموا فرقا ، وأطاعوا نظاما ، وما كان لهم أن يعصوا أمراً . ونظروا إلى الحياة الواقعة فوجدوها أبعد ما تكون مما خالوا ، فحطموها تحطيما ليبدأوا من جديد . فالملكية ألغوها ، والارث ألغوه ، والادخار منعوه ، واستئجار الناس بعضهم لبعض فى عمل نسخوه ، فلا آجر غير الدولة ، ولا تاجر غير الدولة ، ولا طاعم ولا

كاسي غير الدولة . حطموا الحياة ثم بدأوا من جديد يركبون من حطامها على التساوى ، من بعد دماء كثيرة سالت .

ثم تدور السنون ، فإذا المتساوون يبدأون يختلفون كسبا ، ويختلفون نصيبا من نعمة الحياة واضطروا تحت ضغط الطبيعة الإنسانية أن يجيزوا الادخار ويجيزوا الثراء للفرد على أن تستغله الدولة له . واضطروا تحت ضغط الجبلة البشرية أن يجيزوا الارث فى حدود . ومن دلائل هذا التغيير فى المزاج أن وزير خارجيتهم يلبس اليوم «القصب» فوق سترة الدبلوماسى .

فالشيوعية سوف تنتهى صاعدة ، إلى ما انتهت إليه الاشتراكية هابطة .

* * *

وتسأل ، فما الذى دها الشيوعية حتى تغيرت كل هذا التغير ، وتنكرت لماضيها كل هذا التنكر ؟ دهاها ودعاها إلى هذا التغير خبرتها المرة ، أن المساواة فى الفقر تطمس العقول النيرة ، وتخرب القلوب العامرة ، وتقتل الأمل فى نفوس قضى طبعها ألا تعمل إلا على أمل . إن زعماء الشيوعية اليوم يقولون أنهم ليسوا من الشيوعية فى شىء .. وأن الشيوعية ، بمعنى المساواة الكاملة

الشاملة ، هدف سوف يبلغونه يوما . وهم بالغوه عندما يصبح انتاج الحقل ، وانتاج المصنع ، بمعونة العلم ، من السهولة ومن الكثرة بحيث يغمر الناس ويفيض . يغمرهم كما يغمر الناس ماء السماء ، وعندئذ لا يشكون الظمأ ، ولكن يشكون الغرق .

* * *

وعندئذ تكون الأرض كالجنة التى وعد بها المتقون !

عطشان ياصبايا ! *

بعد ليلة كثيرة الأحداث ، مضطربة النوم ، قمت لأتثبت من أن الشمس على عادتها طالعة ، وأن الحياة على سجيتها جارية .

وكان صباحا من أصباح الشتاء البليلة العمياء ، بلله وأعماه الضباب الكثيف المترامى . وخرجت أطلب الشمس ، بين الريف والصحراء ، فوجدتنى لا أزيد فى هذا العماء ايغالا ، إلا لتزيد الشمس عنى احتجابا . ويتنفذ إلى منها أحيانا على غرة شعاع ، فأقول هنا . فما أكاد أتحسسه وأتلمسه ، حتى لا أجد منه شيئا وأسائل نفسى ، أكان حقا ، فتقول لا كان ولا يكون ، إلى حين ، وإنما هو صورة لهفان وحلم يقظان وأمنية المتمنى .

وسمعت عند الحافة ، أو ما خلت أنه الفارق بين الرمل الأصفر، والحقل الأخضر ، قوما بالغناء يصدحون . أنهم قوم من أبناء الصعيد على الحفر عاكفون ، كما حفر آباء لهم من قبل ، من قرون وقرون . حفروا اليوم كما حفروا بالأمس ، ولغاية كتلك

---

* هلال - مارس ١٩٤٨

الغاية. وغنوا اليوم كما غنوا بالأمس البعيد ، ولكن بلسان غير ذلك اللسان .

كانت الأغنية «عطشان يا صبايا ، دلونى على السبيل» .

فقلت : «أى والله ، ما أحوجنى ، بالذى أنا فيه ، إلى دليل على سبيل . والعطش أحسسته فى تلك الليلة الماضية الثائرة ، وأحسست حاجة إلى ارتواء» .

كان عطش هذه الفئة الميمونة إلى المرأة ، أو بهذا جرت الأغنية المشهورة . وكان سبيلهم إلى ذلك الحب .

أما طريقى إلى الحب فقد عرفته ، وأما عطشى إليه فقد ، على الحلال ، أرويته .

ولكن بقى لى عطش لا ترويه النساء ، وبقيت على ضلالة لا تخرج منها الادلاء .

ذلك عطشى إلى الحقيقة ، وتلك ضلالتى عن سبيلها .

* * *

فمن يدلنى على الحقيقة فى الحياة ، لأى شىء تقمصناها .. لماذا بدأناها أو نبدأ ، ولماذا انتهينا منها أو ننتهى ؟ وإذا نحن انتهينا ، فلماذا نبدأ ؟ وإذا نحن بدأنا ، فلماذا ننتهى ؟ وهل حافز خفى غامض يدفع إلى الحياة غير حوافز الجسم البينة العارية ..

غير حافزه إلى استنشاق هذا الهواء والمغالبة فيه إذا هو خف أو امتنع ، وغير حافزه إلى الطعام واستمرائه ، والحرب إليه ، إذا هو صوح غصنه أو جف مورده ، وغير حافزه إلى أرواء شهوة ، تتولد من بعدها حاجة إلى اشباع لذة فى احتضان ما ينتج عن تلك الشهوة الأولى من نتاج ، كل غايته وصل العيش وربط أسبابه ، ونسخ صور منه ، كما ينسخ الكتاب من غير كبير تصحيح ولا تنقيح ؟

* * *

ومن يدلنى على الحقيقة فى هذه الدوائر التى يدور فيها العيش وتدور الأفلاك ؟ الشمس تجرى فى دائرة . وفى دائرة يجرى القمر . وفى دائرة تجرى الكواكب والنجوم . ولكثير من النجوم أقمار تدور منها فى دائرة . إن الدائرة تسيطر على الكون .

والأرض التى نحن عليها تجرى فى دائرة ، فيتعاقب عليها الليل والنهار . والعيش على هذه الأرض قد اقتبس من دورانها ، فهو يجرى فى دورة من بعد دورة . فالنبات يعيش فى دورة . والحيوان يعيش فى دورة والإنسان يعيش فى دورة ودوائر . صبحه اليوم كصبحه بالأمس ، وضحاه اليوم كضحاه بالأمس ، وبأمسه الأول وبغده . وكذلك أمساؤه ولياليه . وكذلك شتاؤه

وصيف . وهو كنهاره ، يبدأ من ضعف لينتهى إلى ضعف . أنها نقطة الدائرة التى بدأ منها ، إليها لابد أن ينتهى . ما السر فى هذه الدائرة ؟ ما السر فى هذه الدوائر ؟

والإنسان يبلى ولا يبلى الزمان . وهو يقدم ولا يقدم الجديدان . فهكذا سموا الليل والنهار .. وعللوا ، فقالوا : أن الدائرة رمز الخلود .. وقالوا : أن الحلقة المفرغة لا تنتهى . وقالوا : إن الإنسان لا يخلد فردا ، ولكنه يخلد جنسا ، وأن الجنس ، كالنهار وكالليل ، جديد خالد ، لأنه يجرى فى دائرة . ونسوا أن الدائرة التى لا تنتهى قد تنقطع .

فأين الحقيقة فى هذا ؟ دلونى .. دلونى !

والحظوظ ، أين الحقيقة فيها ؟ طفل يولد فلا يكاد يمر عليه حول حتى يموت . وآخر يولد فيعمر حتى يسأم الحياة ويقول مع لبيد :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وتجرى الناس فى سنواتها فلا تدرى فى أية سنة تموت ، ولا بأية أرض تموت ، ولا على أية حال . وذو صحة وقوة ينقطع خيطه على السلامة والطول ، وذو مرض وضعف يمتد به الخيط كأنما يصدر عن بكرة تتراءى قليلة ، وفيها الطول ميل وميل .

وطفل يولد فيورثه أبواه فى العقل الفطنة ، وفى اللسان الطلاقة وفى الجسم البسطة ، وفى الخلق الدماثة . وآخر يولد فيورثه أبواه فى العقل الغباء ، وفى اللسان الفهاهة ، وفى الجسم القصر ، وفى الخلق الفظاظة . ومع هذا تقاس أعمالهما فى الدنيا مقاسا واحدا، وتوزن فى الآخرة ميزانا واحدا .

وطفلة تولد فيورثها أبواها عينا نجلاء ، وأنفا مستقيما ، وخدا أسيلا ، وفما صغيرا ، وعودا رخصا نحيلا .. وطفلة تولد فيورثها أبواها عينا كأنها ثقب فى حائط ، وأنفا أفطس كأنه أنف لقرد ، ووجها تتوقف عنده لتحقق أوجه هو أم قفا ، وعودا إذا حاول أن يتثنى صات كما يصيت الباب العتيق . الطفلة الأولى تسير من الحياة على أطرى من القطن وأرق من الحرير . والطفلة الأخرى تسير من الحياة على الأشواك إمتدت طبقة من بعد طبقة . وتنعم الأولى لا لفضل أتته ، وتشقى الأخرى لا لجرم جنته . وهان الأمر لو أن الجنة لا يدخلها إلا قبيحات الوجوه .. ولكن أين الجنة من هؤلاء ، والقبح لا يؤدى فى هذه الدنيا إلا إلى الكراهة والنقمة ، والنقمة لا تؤدى إلى العمل الصالح .

فأين الحقيقة فى هذا ؟ دلونى .. دلونى !

* * *

وحظوظ الحيوان ، على العبودية ، كحظوظ الإنسان على الحرية. فهذا حصان يولد للسباق فيجول فى الميادين ويصول ، يملأ أذنيه التصفيق والتهليل ، ويأكل أشهى مأكل ، ويقبع فى أرحب مربط . وهذا حصان يولد وفى انتظاره الاثقال ليجرها ، كل ما يرجوه لحافره الشارع الممهد ، ولمعدته ألا تحس الجوع طويلا ، ولأذنيه ألا تسمع صوت السياط كثيرا . وهذا كلب سيده فى قصر، فهو لا يعرف إلا نعمة القصور . وهذا كلب سيدة فى كوخ ، فهو يجرى يطلب الرزق من أركان الطريق ، ومن القمامة فى الصناديق ، كما يطلبه صاحبه تماما . وقطة عند عانس تنام على الوسادة الوثيرة ، وفى عنقها شريط الحرير الأحمر .. عقد حوله ، طرافة وأناقة وزهوا . وقطة أخرى لا تعرف الدور إلا لتسرق رزقها الحلال ، ثم تولى الادبار ، ومن ورائها قعقعة العصى وقذف الاحجار .

فأين الحقيقة فى الحظوظ ؟ دلونى .. دلونى !

* * *

والخير والشر ، أين الحقيقة فيهما ؟ وأى المعاجم أفتح لتفسيرهما ، معاجم الدنيا أم معاجم الدين .. معاجم ما كان ويكون ، أم معاجم ما يرجى أن يكون . معاجم الوقائع الحاضرة

القريبة ، ام معاجم الوعود الغائبة البعيدة ؟ قالوا : «الشر ضلالة وخسران ، والخير كسب ورجحان» وقد يكون هذا فى السماء ، أما فى الأرض فالاستقامة كما عرفناها اعوجاج وشذوذ ، والقناعة فى الزحام تزحم صاحبها إلى الموقف الأخير ، والأمانة ميراثها الفقر، والصدق جزاؤه التأفف فالكراهة .

ومظاهر الشر السافرة تؤذى حقا ، ولكنها تحت النقاب الجميل تسبق فى الميدان ؛ وتكسب الرهان . وأنت إذا أردت أن تربح طلبت من الشر جليله ، وعفت حقيره . فالشر الضخم مهيب، والشر الضئيل الحقير صاحبه مكشوف مغلوب . إن السرقة مفضوحة معيبة ، أن اتصلت برغيف ، ولكنها غير ذلك إذا هى اتصلت ، أسهما ، فى سوق الغلال بألف ألف رغيف . والكذبة يفتضح صاحبها إذا قيلت فى حارة بين اثنين ، والكذبة يهتف لها الناس إذا قيلت فى زحام من فوق منبر تعمله أعواد من ذهب والبنت تقتل إذا بذلت عفتها فى كوخ على حصير ، والبنت لا تحس نقصا فى تكريم إذا هى بذلت عفتها على السرير الفضى من وراء أسجاف الحرير .

ولذاع الناس عن أنصبتهم من الدنيا ، ابتدعوا طيب الذكر وحسن الأحدوثة من بعد خروج من دنيا: ولا يبالى الميت فى قبره،

بذمه شيع أم حمده فأين الحقيقة فى هذا ، وفى كثير غير هذا ؟

دلونى أيها الصبية .. وانتن أيتها الصبابا !

* * *

وكانت ساعة ، انحسر من بعدها الضباب عن شمس قوية باهرة ، فإذا به الضحى . وانكشفت الطرق واتضحت السبيل . وبانت حدود الصحراء الصفراء ، وحدود الحقول الخضراء ، وتدفق فى قناته ولمع فى ضياء الشمس الماء . ومع هذا ظل أبناء الصعيد ينشدون أغنيتهم الخالدة : «عطشان يا صبايا ، دلونى على السبيل» .

ظلوا على الماء يشكون الظمأ وظللت . وعكفوا فى الضياء يطلبون السبيل وعكفت . ومضيت أنشد مع عمر الخيام أنشودته الخالدة :

ولفهم الاسرار والالغاز

ذات يوم حلقت تحليق بازى

فى سماء المعنى الخفى المجازى .

ولقد عدت بعدما اجتزت ذاك

الباب مثلى لما طرقت الباب .

دفاع عن القديم *

إنى لأعجب لهذه الشمس وهذا القمر وهذه النجوم ، اذ تشرق ثم تغرب ، ثم تشرق ثم تغرب ، فتسبب للناس كل هذا العنت ، فيقولون هذا أمس وهذا غد ، وهذا ماض وهذا مستقبل ، وهذا قديم وهذا مستحدث .

إن الشمس وأن القمر وأن النجوم ، بدورانها ، أعطتنا معنى الزمان ، وأعطتنا مع هذا المعنى معانى تبث فى الافئدة الخوف والرجاء ، وتبث فيها الكراهة والحب ، فنحن نخاف الغد أو نرجوه، ونحب الأمس أو نكرهه ، ونعيش فى اليوم ، فى الحاضر ، ولكن قل أن نعيش فيه . بعضنا يعيش اليوم ، فى أمسه ، ترحما وذكرى . وبعضنا يعيش اليوم فى غده ، تطلعا وأملا .

إن الزمان جلب على الناس الهم ، وجلب القلق ، وجلب الريبة ، فأورث النفوس الغثيان ، وأورث القلوب الخفقان .

إن الزمان فكرة من خلق الإنسان ، وكثيرا ما ود خالق أن يحطم خلقه .

* * *

* هلال - يناير ١٩٤٩

ومما جر الزمان على الناس من أعنات ، معنى الجدة والقدم ، والمقارنة التى لا تهدأ أبدا بين عصر يستقبل وعصر يستدبر .

وقد قال الناس كثيرا في معنى الجدة ، ودافعوا عن الحداثة حتى اختل الميزان فرجح ، وآن للقدم أن يتحدث ، ويلقى فى كفته بأثقاله ليعتدل العاتق ويستقيم الميزان .

فأول ما يقال فى القدم : إن الله قديم ، وأن الكون قديم ، وأجرامه قديمة ، وأن أمنا الأرض قديمة ، وأن النبت أو التنبت على ظهرها قديم ، وأن دبيب الحياة من فوقها قديم ، وأن المضغ قديم ، والهضم قديم ، والنسل قديم ، وبذورنا الأولى موغلة فى القدم حتى ما نعرف لها أولا . وأن العقل القديم هو الذى ابتدع البيت الذى يبنى ، والملاط الذى يمسك أحجاره ، وابتدع الملابس سكنا يلبس ثم يخلع ، وابتدع السكين ليقطع ، وابتدع المقص ليجز ، وابتدع المنشار الذى يأكل من الخشب ويأكل من الحجر ويأكل من الحديد ، وابتدع العجلة وهى عماد كل حركة ومدار كل صناعة ، وابتدع السفينة قلعها وسكانها .

والفكر القديم هو الذى ابتدع هذا الورق ، وابتدع القلم ، وابتدع الأحرف وابتدع الكلمات ، وابتدع الحديث ، وابتدع النثر والشعر .

والشعر القديم له الجرس الحبيب والديباجة المتينة والمعنى الحلو .

والأشربة أحسنها قديمها ، والخمر أجودها العتيق :

عتقت حتى لو اتصلت

بلسان ناطق وفم

لاحتبت فى القوم ماثلة

ثم قضت قصة الأمم

ومن الاطعمة ما يجود على التعتيق ، ومن ذلك الجبن والفسيخ . والبصل الطازج ، أشهى منه ما تعتق فى الخل . والخضر تطيب على التمليح والتعتيق .

* * *

والناس تفخر فتنتسب دائما إلى الماضى ، فيقولون فعلنا قديما، وفعل أجدادنا ، ونحن أبناء الفراعنة الشداد ، والعرب الأمجاد ، فلابد أنهم كانوا على قدمهم ، من الحمد بحيث يكونون أهلا للفخر .

والحب قد يجىء من بعد الحب ، يجىء من بعده الحب ، ومع هذا يظل يتعلق القلب من هذه بأقدمها ، ومن الاحباب من يقع فى كتاب الذكريات فى الصفحة الأولى :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يسكنه الفتى

وحنينه أبدا لأول منزل .

والمعلم الأول أكبر أثرا فى النفس ، وأثبت صورة فى الخيال ، ممن يأتون من بعده ممن هم أجد على الزمان .

والوفاء قديم ، والكرم قديم ، وكل خلق كريم قديم ، أو بذلك تجرى الشائعة ، وكثير من الشائعات صوادق . وفى الوفاء يقول الناس : «من فات قديمه تاه» والقديم هنا ليس الصديق القديم فقط ، ولكن الأم وهى قديمة ، والأب وهو قديم ، وعلائق القدم جميعها ، فهى روابط تربط صاحبها بالأرض . كما تربط الحبال السفن فتحفظها من الرياح الهوج .

والموسيقى أفعلها فى النفس أقدمها . أوربا تعيش بالروح على موسيقى سمتها «الكلاسيك» أى تلك التى اكتسبت الحياة على رغم الزمان . وبرأها وخلدها كل الجديدين .

والفن قديم ، الفن فى الحجر ، والفن على القماش . لقد أحسن القدماء فيهما فما كادوا أن يبقوا للأخلاف مزيدا .

* * *

والقديم يعطى الحديث معناه ، ويعطيه الكثير من مبناه ، فلو أن الرجل هنا خلق من غير أمس ، لمضى بحكم الطبع يتساءل عن أمسه وكيف كان ، ويتساءل عن أحداثه .

والتاريخ ؟ ما اهتمام الناس بالتاريخ يحفظون كتبه ، وهى مجلدات ضخمة عديدة ؟ ثم هم لا يكتفون بالكلمة المكتوبة فيحفرون الأرض يبحثون وينقبون عن أسطر أخرى كتبها الزمان فى الحجر ، وفى الحفر، تزيد الحاضرين من أهل الأرض بالذاهبين علما .

ونحن ، الحاضرين اليوم من أهل الأرض ، لا نفهم معنى الحياة إلا من التجربة التى قاساها الغابرون من أهلها . فالحياة قديمة ، والفناء قديم ، وهما يعتوران أهل الأرض حديثيهم والأقدمين . ومن القديم يفهم ويتعلم المستجد :

فى الذاهبين الأولى	ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلى	ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا	له حيث صار القوم صائر

هذا قس بن ساعده ، وهو رجل قديم ، عاش منذ ثلاثة عشر قرنا ، وتعلم ممن هم أشد منه قدما . وشعره قديم فيه حلاوة القدم . وفيه المنطق البسيط .. منطق القدم .

* * *

أما بعد ، فقد قلت في القدم كل شيء ، إلا الشيء الذي لعل القارئ انتشره ، ذلك الجانب الذي جرى العرف فيه بالربط بين القدم والرجعية ، وبين الجدة والتقدم . ولقد جانبت ذلك الرباط ، لأنه رباط برغم العرف مقطوع . أنه رباط غير مقدس ، لا يباركه فكر ولا هو يقوم على منطق .

إن الشيء القديم قد يحسن ، ولا يستطيع فوات زمان أن يغير من حسنه . والشيء الحديث قد يسوء ولا تستطيع حداثته أن تقلل من سوئه . وأكثر أصول الحياة ثابت ، لا يتغير مع الزمان . لب الحياة ثابت على تتابع القرون ، وإنما الذي يتغير قشر الحياة ، ومظاهرها وأشكالها . فالحب في صميمه ثابت ، والفضيلة في صميمها ثابتة ، والحسن والقبح في جواهرهما ثابتان ثبوت الجبال ، وهما كالجبال لا يطلب منهما أحد أن يتغيرا بتغير الدهر فيتجددا . وقد تختلف الملابس ، فهذا في قميص، وهذا في جبة ، وهذا في بذلة ، وعلى رأس هذا عصابة وعلى رأس هذا عمامة ،

وعلى رأس هذا قبعة ، ولكن لو عددت أعضاءهم الظاهرة والخافية لوجدتها واحدة ؛ ولو فتشت بواطن القلوب ونوازعها لوجدتها واحدة ، ولو بحثت فى خبايا أنفسهم عن مصادر الخير ومضابطه ؛ ومصادر الشر ومضابطه ، لوجدتها فى كنهها واحدة .

والعمامة ، وهى شارة القدم ، قد يمشى تحتها جسم يتضمن قلبا تتأجج فيه نار الثورة على كل حاضر ، لا لأنه حاضر ، ولا لأنه قديم أو أنه جديد . ولكن لأنه غير صالح ، وكان غير صالح وسوف يكون .

والقبعة ، وهى شارة الحداثة ، قد يمشى تحتها جسم يتضمن قلبا أبرد ما يكون ، وأرضى بالحياة ، وبالحاضر على ما به من سوء .

* * *

بقى أن فى الناس عادات ، فى مأكل أو مشرب أو ملبس أو مسكن، وعادات فى سلوك وآداب ، وعادات فى اللغة وأساليبها ، وعادات فى الفكر وأنماطه . وصاحب العادة به احتفاظ بها لأنه تعودها ، ولأنها عادة فهى بحكم الطبع تعود . تجد ذلك فى جبلة الناس . وهى لم تخلق عبثا . إن الاشياء دائما فى تغير وتطور .

والتطور قد يكون فاجئا فيؤذى . كنازل جبلا ، يتعجل نزوله ، فيفقد السيطرة على رجليه فيهبطه تدهورا ، وكان جديرا بقدميه ، أو الأمر أن يكون بهما أثقال تهدىء من خطوها وتقصر . فهذه هى المحافظة التى تكون فى بعض الناس . وهى فى الحياة تعمل عملها ، فكأنما هى قانون من قوانين الطبيعة . إن الحياة شد وجذب ، وبسط وقبض ، وما أحب عاقل أن تكون الحياة شدا ولا جذبا ، أو بسطا ولا قبضا .

أنى على غرامى بالجدة والتجدد ، بمعناهما هذا الخاطىء ، الذى يود به صاحب الجديد أن أفهم منه أنه الاصلاح دائما ، أجفل أشد الإجفال من جماعة متجددة تقضى فى أمر لا يكون بينها رجل أو رجال مما يثقل بهم الفكر إلى وراء وتعتريهم عند البت فى أمثال هذه الأمور أناة .

ومن الناس من يريد أن يفهمنى أن التجدد فى التمرد ، باحتقار رأى الأب والاستخفاف بحنان الأم ، أو هو فى التحرر بالرقص فى الصالات بين الكؤوس والقبلات أو بصور شتى من هذه السخافات ، فهؤلاء ، لى على الله رجاء فيهم ، أن يزيد أقفيتهم عرضا ، ويزيدها شحما ، حتى تمتلىء كفى بها عند الصفع ، فيكون له رنين يسمع فى الآفاق .

دنياك لا تخشها أبداً *

إنك تخشى دنياك . ولكنك تنسى دائما أنه يخشاها معك الناس طرا . إنك تنظر إلى هذا الضاحك فتحسب أنه يضحك للدنيا وأنت وحدك تبكيها ، وتنظر إلى هذا المستمهل فى خطوه، فتحسب أنك وحدك المستعجل فى طلبها ، وأنها أسعفته فأستأنى ، وحبست عنك أنت وحدك فتعجلتها . إن الدنيا لا تختار عندما تمنع ، ولا تختار عندما تضحك ، ولا تختار عندما تبكى ، ولكنها على كل حال مصدر البلوى بسبب هذه الريبة التى يحملها لها الناس ، وبسبب الخشية التى تضمنتها منها القلوب .

إن السارق يسرق ، فهل سألت يوما لم سرق السارق ؟ إن السارق يسرق فى أكثر الأمر ، لا طمعا ، ولكن رهبا . وما الرهبة هنا إلا رهبة الدنيا التى مالت أو أنذرت بأنها توشك أن تميل .

---

* هلال - فبراير ١٩٤٩

وإن الحاسد يحسد ، فهل سألت يوما لم حسد الحاسد ؟ أنه يحسد من سبق ، لأنه لا يكون سبق إلا معه تخلف ، والتخلف يورث الحسد ، لأن معناه التقهقر فى أمور الدنيا . وهو تقهقر لو دام لاستقر بصاحبه فى الموضع الأخير ، حيث استقر العجز واستقر الشقاء .

ولمثل ما سرق السارق ، وحسد الحاسد يتنافس المتنافس ، ويتكالب المتكالب ، ويتزاحم الناس بالمناكب ، وغايتهم مؤونة الدنيا التى يحسبون أنها لابد فارغة ، ما تكوكب القوم عليها .

وحرص الحريص من بعد غنى ، بدأ كما يبدأ الحرص كله ، بالخوف من الدنيا . والغنى المستغنى من بعد فقر ، قد يذكر أيامه القديمة فيجود، ويبالغ فى الجود ، رحمة ومؤاساة لاشباه نفسه فى الناس . ولكنه على الأكثر يذكر أيامه القديمة فيحرص غاية الحرص ، ويمسك أيما امساك ، لأن خشية الدنيا تلاحقه ، ولأنه بالجود ، قد تعود - وأن بعد المدى - أيامها السود .

* * *

ومن خشية الدنيا خوف الخائف أن يقوم فى الدنيا بنفسه فردا .

فتحت المذياع يوما فامتلأت حجرتى بأغنية فيها رقص وطرب . وغنت المطربة الشهيرة أغنية الرعاة فإذا بها تقول : «سلام الله على الاغنام» .. فما تمالكت أن قلت : «أى والله ، سلام (عليهم) وألف سلام» .

إن الأغنام من أضعف خلق الله دفاعا . أنه قرن لا ينفع ولا يدفع إذا نشب مخلب أو عض ناب ، فهى لهذا ترى أمنها فى التجمع والتجمهر ، والتجمهر يشعرها الأمن على الخطر ، ولو أمنا كاذبا . والبلية فى الجماعة على كل حال تهون .

وفى الناس من خلق الأغنام التحصن من الدنيا ، فى التجمع والتجمهر . أن خشية الدنيا هى التى صنعت القرى ، وصنعت المدن ، وهى التى صنعت المجتمعات وصنعت التقاليد .

إن الفرد منا فى المجتمع ، لابد أن ينسجم مع المجتمع ، والا انفرد فأكلته الذئاب كما تأكل الخراف الفريدة والنعاج .

وخشية الدنيا هى التى خلقت من الرجال محافظين يحافظون دائما على ما درجت عليه الدنيا من قديم . حجتهم فى ذلك أنها أمور خبرناها وطرق عبدناها وأمناها ، ولا يدرى أحد ماذا يحيق به إذا هو خرج عن الطريق المعبد الأمين .

* * *

الزارع محافظ لأنه يخشى الدنيا .. أنه يزرع كما يزرع أباؤه، ويرضى من الحصاد ما رضى أباؤه . وزرعوا فأكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا ، وعلى أنماط واحدة لا تتغير أبدا .

والصانع يصنع كما يصنع أبوه لأنه يخشى الدنيا .. أنها بضاعة ألفتها السوق وألفت السوق ، ولو أصابها تغيير أو تبديل، لضلت إليها الطريق . ولو جاءتها فقد جاز أن ينكرها الناس ، فيحيق بصاحبها الضيق ، أو لعله الخراب . وما أغناه عن ضيق ، وما أغناه عن خراب .

والمدرس والمهذب ، وبائع العلم وناقل الفكر ، يخشى الدنيا ، فيؤدى واجبه كما أداه السابقون . عمدته الكتب فهى إرث السنين، وفيها حكمة القرون . إن قال قولا أرجعه إليها ، أو صدع برأى عمده بنصوص منها . والعقل عنده قديم ، وليس عنده فى الامكان أبدع مما كان . وكان أصدق فى التعبير عن نفسه لو قال ، أن ليس فى الإمكان آمن مما كان . إن العقل إذا أتى بجديد فعليه وزر جدته ، فالناس أعداء ما استجد . ففى الاستجداد الأذى ، وضياع الدنيا ، وقد يكون مع ضياعها ضياع الدين . فالانسجام إذن خير . كن مع القطيع دائما تأمن وحشة الفرد وأذى الطريق .

وأعدى الاستاذ طلابه فخشوا من أذى الطريق ما خشى ، فهم يحـبـون أن يأخـذوا الـدروس تلقـينا ، ويحسـبـون أن يعطوا نصوصها املاء .

إن الذى يترك الطريق المعبدة ، إلى طريق غير معبدة ، أو إلى صحراء لا طريق فيها ، رغبة فيما هو خير ، واعتقادا منه أن فى الإمكان أبدع مما كان ، قد يطوف من صحرائه مطافا بعيدا ، يرجو فى آخره ركائز الذهب ، فلا يجد إلا العطب . فاحتمال وقوع العطب هذا هو الذى أخلد بالناس إلى السلامة . إنها خشية الدنيا، وخشية أن تقلب الراحة تعبا ، أو تنقلب الحياة مأتما .

ومع هذا فلولا أقوام آثروا التعب على الراحة ، وقلق الحياة على استقرارها ، وتحدوا المآتم أن تكون ، ما كان فى الدنيا تجديد ، ولا كان لبنى الناس تقدم ، ولبقيت لهم ، من حيث النفع المحض . رفاهية الجحور الأولى فى الصخور . إن الدنيا تقدمت بالمغامرة ، وما غامر من خاف الدنيا . وللمغامر ثواب العالم ، ومن أجرى العالم ، فى نجاح أو خيبة . أن ضحايا الفكر، وضحايا العلم ، وضحايا الخير ، كفارات ، كالصدقة

والصوم ، تكفر بها الإنسانية . عن آثام من قعد وتخلف ، وخاف الحياة وخشى الدنيا.

* * *

ولقيت صاحبى فى الطريق .

قلت : «إلى أين ؟» فابتسم .

وقال : «إلى ما تحمد أو لا تحمد ، فهل تصحبنى على الخير والشر ؟» .

قلت : « أفعل ، وليكن قضاء الله» .

وسرت مع صاحبى ، فإذا الغاية منزل لامرأة تكشف الحجب عن الغيب . وكانت ذات صيت وسمعة حسنة . ودخلت البيت وأنا أتمثل ببيت أبى تمام :

تخرص وأحاديث ملفقة

ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ووجدت فى البيت زحاما . أقواما عدة ينتظر كل فرد منها دوره . لم تشغل ضاربة الرمل والحصى بالى ، بمقدار ما شغلته هذه الوجوه القلقة المترقبة ، وقد علاها صفرة الجزع وشحوب الخوف . أنهم يخشون دنياهم أو يرجونها، ومن أجل هذا جاء وا

يستفتون . نظرة واحدة من طرف الستار تكفيهم ، ولتطمئنهم على الغد المخوف .

وسألت نفسي : «إذا انكشف الغيب ، وشقت كل حجبه ، فماذا يكون بعد انشقاقها ؟» .

ينكشف أما مستقبل أسود حزين يتجرع المرء غصصه ، ويحياه مرة قبل أن يكون ومرة حين يكون أو مستقبل أبيض زاه يذهب انكشافه بالذى فيه من زهو والذى فيه من بياض . إن لذاذة الشيء اللذيذ يكون أكثرها فى ترقبه ، وهى ألذ إذا وقعت من بعد شك ، وهى أشد لذة إذا وقعت من بعد يأس . وكذلك مرارة الشيء المر ، أكثرها فى ترقبه ، والبلاء نبكيه قبل وقوعه .

* * *

غدك يا صاحبى لا تخف ولا تحذر ، فما يغنى حذر من قدر . اعط لساعتك نصيبها من عما ، وخذ منها نصيبك من متعة ، وأول المتع راحة البال بشفاء الضمير . فاشف ضميرك بأنك عملت أقصى ما قدرت عليه، ثم تحد السماء من بعد ذلك أن تمطر الأرض لؤلؤا أو تمطرها حمما .

ودنياك ، دنياك لا تخشها أبدا .

الكـــــذب *

إن الكذب قديم، لان الانسان قديم.

وأهل الكتـاب، والمسلمـون، يؤمنون بالجنة، وبآدم ، وأبليس، وبأن أبليس كذب على آدم فى الجنة، فأغواه، فهبط به منها إلى الأرض. «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى».

فهبوط آدم إلى الأرض ، بدأته ، وسببته، كذبة كذبها الشيطان، راح ضحيتها الانسان.

فهذا الوجود كله، فى هذه الدنيا، أصله .. كذبة.

وكما بدأ الانسان قديما على هذه الأرض بالكذب، كذلك يبدأ كل رجل يولد على هذه الأرض، وكل امـرأة بالكذب. إنها صـورة الجنس القديمة تتراءى فى صور الفرد أذ تتجدد. إن الطفل يبدأ حياته فيقول غير الحق، لانه لا يعرف ما الحق. أنه يعيش فى عالم

* هلال - ابريل ١٩٤٩

كله خيال، وكله أحلام، لا فى عالم الحقيقة. ولكنه لا يلبث أن يدخل عالم الحقائق حتى يكذب، لانه سبق أن صدق فتأذى فالانسان، من حيث أنه جنس قديم، ومن حيث أن فرد حديث متجدد، بدأ وجوده، ويبدأه بالكذب.

هكذا أخذت أفكر ساعة، بعد أن وضعت مسمعة التليفون حيث وجب أن توضع. وبوضعها ختمت حديثا قصيرا، كشف فيه إنسان ينطق عن بعض المكنون فى طبعه، طبع الانسان، من كذب.

كان الرقم الذى أدرت له الآلة التليفونية رقم خاصا بمدير مصلحة. وإذا صوت يجيب: «النمرة غلط». واستفتيت من أعطانى الرقم ، فأكد أنه الرقم الصحيح . وأدرت رقم الآلة فجاءنى الرد من جديد: «النمرة غلط» . قلت له : «أن سكرتير المدير نفسه يقول: أن هذه نمرته». قال فى غضب زائد : «إذن فالمدير ليس فى حجرته».

صوت من هذا؟ .. لم أدر

ولم أدر كذلك هل أرضى أم أغضب.

ورحت أتسلى باستخبار القرون، واستخبار رجالها، من كل ذى رأى وكل ذى دين، فى قديم الزمان وحديثه. رحت استخبرهم عن الكذب، أشر كله أم خير كله، أم هو بين هذا وذاك. وهل من

الكذب الأسـود ، وهل منه الأبيض، أم منه كـذلك الأغـبـر الذى هو بين السواد والبياض.

سألت دارا، عظيم الفرس، عن الكذب. وإذا وجدت رجلا يكذب وإذا وجدت رجلا يكذب قال: «ألم تقرأ بعد ما كتبناه فى الصخر والحجر؟»

وذهبت أقرأ فى الصخر والحجر، فإذا دارا يقول: «أيها الملك الذى يأتى من بعدى، جنب نفسك الكذب، وإذا وجدت رجلاً يكذب فاقس عليه، فما ذهب بالممالك شىء كالكذب.

وسألت أفلاطون، حكيم الأغريق، عن الكذب. قال: «ألم تقرأ جمهوريتى؟»

ورحت أقرأ جمهوريته، فإذا به يصف الكذب، بين الفرد والفرد، بأنه عمل مؤذ هدام، الا أن يأتيه طبيب، أو أن يكون كذبا يقال فى سبيل الدولة. فكان افلاطون بذلك أو من علمت أنه أجاز الكذب، فلم يذمه أطلاقا. وكان أول من أجاز لرجل الدولة أن يكذب، ومن رجل الدولة انتقل الكذب مأذونا به إلى كل رجل سياسة.

وعدت أسائل النبيين، من قبل دارا والأغريق: «ما الكذب؟» فوقفت عند الوصايا العشر طويلا، أقرأ وأتعجب. ليس فيها عن

الكذب نهى. وأية وصية أقمن بالناس من «لاتكذبوا». فقلت لنفسى لعل صاحب الوصايا لم يشأ أن يرتبط بتحريم الكذب جملة. وعدت أقرأ، فإذا به يحرم شهادة الزور، وشهادة الزور بعض الكذب. وزدت فى ظنى استيثاقا. ولكن لم ألبث أن قرأت للأنبياء تحريما للكذب جملة، فقلت وقد تخطىء الظنون.

وسألت بولس الرسول، قال: «ألم تقرأ رسالتى إلى أهل كولوسى؟». وذهبت أقرؤها، فإذا به يقول فيها: «لا تكذبوا بعضكم على بعض».

ورحت أسائل أرباب الكنائس الأولى، حتى وقفت عند أوغسطين. قلت : «ما الكذب؟». قال: «رذيلة لا تغتفر». فقلت: «ولو كان من ورائها جلب خير أو دفع شر؟». قال: «إن الكذب رذيلة فى كل مكان وكل زمان».

ورحت أدور على أتباعه، فوجدتهم جميعا على رأى واحد، بل وجدت الكثلكة كلها على هذا. حتى وقعت على رجال ممن تأخروا، وجدت عندهم ليانا.

قلت لأحدهم : «ماذا تقول لقاتل جاء يسألك عن ضحيته، وقد خبأتها أنت فى بيتك؟». قال بعد ترد: «أقول ليس فى الدار أحد».

قلت «إذن فتكذب». قال : «لا، إنها كلمة صادقة قلت بعضها، وحفظت فى نفسى بعضا». قلت : «زدنى علما» . قال: «أردت أن أقول له ليس فى الدار أحد يجوز لى أن أكشف لك عنه، ولكنى أعطيت له من الجملة صدرها، واحتفظت بعجزها». قلت : «وما تسمى هذا؟». قال : «نسميه احتفاظا عقليا».

ووصلت الحديث أسائله : «وإذا أعترف لك، وأنت القس الكاثوليكى، من الشعب معترف . وأفضى لك بمكنون سره. وجاءك من يسألك، هل أفضى لك فلان بكذا، فما أنت مجيب؟». قال: «أجيب بأنه لم يفض لى بشىء». قلت : «واحتفظت لا شك، فى عقلك، ببقية من جملة، أنك لم تفضى بشىء مما يجوز لقس أن يبوح به». قال: «نعم ، هو ذاك».

وخرج على الكنيسة من بعد ذلك خوارج. وجئت أسائلهم فى الكذب. وكان مسئولى بروتستنتيا. قلت: «ماذا ترى فى الاحتفاظ العقلى الذى يعضم من الكذب؟» . قال: «أنه الكذب المباح» قلت: وهل فى الكذب ما يباح؟». قال : «إن الاحتفاظ العقلى لف ودوران. انهم يكذبون ولا يريدون أن يسموا ذلك كذبا». وعدت أسائله فى أمر القاتل الذى جاء يطلب عنده ضحيته وقد خبأها فى داره. قال:

«أقول ليس في الدار أحد، وأكذب متعمدا» . قلت: «وكيف تبرر ذلك؟». قال في لباقة بارعة: «إن على فى هذا الأمر ولاءين، ولاء للحقيقة يقضى على بالصدق، وولاء للعدالة يقضى على بالكذب، و إذا تعارض الولاءان، ولاء للحقيقة وولاء للعدالة، جنحت إلى العدل فمنعت الجريمة، وعلى الصدق العفاء».

وعدت إلى الاسلام، إلى محمد، فردنى إلى القرآن، فقرأت فيه: «انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به اثما مبينا». وقرأت حديث محمد فإذا به يقول: «الحرب خدعة». والخدعة بعض صنوف الكذب. وبهذا أجاز محمد الكذب فى الحرب، وهو دفاع عن الدولة. وبذلك قال أفلاطون من قبل. وقرأت عن محمد أنه خرج للهجرة، فلقيه فى الطريق أعداء له طالبون. قالوا: «من الرجل؟» يعنون من أى قبيل. قال محمد: «من ماء». وماء اسم قبيلة، ولكن محمد اعنى أنه خلق من ماء، فلبس بذلك عليهم. فان صح هذا ، فقد أجاز محمد التلبيس خروجا به عن الكذب، فى الموقف الحرج، والتلبيس فى الموقف الحرج بحث بحثه الفلاسفة وأجازوه، من قبل محمد ومن بعده.

ثم من محمد هبطت فى الزمن هبوطا كبيرا، إلى الأحدثين، من الحكماء والمفكرين. وساءلت هؤلاء، فعلمت أنهم نالوا الكذب

بمشرط الجراح، يقعطونه، ويشرحونه، كأنه جثة على منضدة فى مدرسة من مدارس الطب الحديث. وخرجوا على أن اللسان قد يكذب بالقول الكثير، وقد يكذب بالقول القليل، وقد يكذب الحذف، وقد يكذب حتى بالصمت. ولعل من هذا جاءت تلك الصيغة المعروفة التى يفرض على الشهود قولها فى المحاكم قبل الشهادة، «أقول الحق، وكل الحق، ولا شىء غير الحق». وخرجوا كذلك على أن اللسان قد يكذب، وقد تكذب العين، وقد يكذب الوجه، وقد يكذب القلب ، وشر أكاذيب القلب أكذوبة يكذبها على صاحبه.

وكما يكون الكذب بالقول، يكون بالعمل، وهو إذن يشمل الخداع والخيانة والغدر، والسرقة كذلك.

وجعلوا الكذب مراتب، تخفيفا عن ابن آدم فى محنته. وجعلوا منه الأبيض والأسود وما بينهما .

وشر الكذب ما عمد به صاحبه إلى الاضرار بالغير، أضرار مؤكدا. وأقل شرا من ذلك كذب يأتيه المرء ليتوارى فيه، ويدفع به عن نفسه. وقد بالغ بعضهم فقال : إن الصدق لا يجب الا بين الأنداد. أما بين القوى والضعيف، فى غيبة القانون. وحتى فى حضرته على ضعف، فالكذب يدفع به الضعيف عن نفسه إذا لم

يستطع أن يدفع بالقانون. من أجل هذا يكذب الفلاح، ويخدع. وقد كذب وخدع منذ كانت الأرض، وكان الاقطاع .

ولقد خف الكذب خفة، في ملابسات عدة، جعلت منه شيئا عاديا مقبولا، لأنه جرى عليه أتفاق عام، وأمنت عليه أساليب جارية بين الناس سموها آدابا .

فالأدب الحاضر يقضى عليك، إذا نزل بك أثقل خلق الله، أن تلقاه بأهلا وسهلا. وما عندك له أهل ولا مكان سهل. ويودعك فتقول: «آنستنا، والعود أحمد»، وأنت تتمنى أن تعاودك الحمى ولا يعود. والذى خفف من هذا الكذب وأمثاله إنه كذب مفضوح، عند قائله وعند سامعه. كالقصة يكتبها القصاص ليس من بين وقائعها والحق نسب، فهى كذبة عريضة لا شك فيها . ولكن يذهب بما بها من كذب أن الناس تقرؤها وتعلم أنها الكذب، وأنها الخيال.

وكأساليب الأدب أساليب النداء والخطاب. تكتب لرجل لا تعرفه، أو تعرفه ويهون عليك كل الهون، فتقول: «عزيزى فلان». وتختم فتقول: «وتفضل فتقبل فائق احترامى»، وقد لا يكون بك له شيء من احترام. وتدعو فلانا «بصاحب العزة»، وهو بصاحب الذلة أجدر. وتدعو فلانا «بصاحب السعادة» ، وأنت تعلم أنه فى بيته صاحب شقاء. وتدعو آخر «بصاحب الفضيلة» وقد يكون برب الرذيلة أقمن.

ألفاظ جوفاء، يعلم الكل أنها جوفاء. فهى من أجل هذا أكاذيب بيضاء.

* * *

وبينا يفكر المفكرون ، ويقرر الحكماء، ما الصدق وما الكذب، وما الخفيف منه والثقيل، يجرى ابن آدم، منذ كان آدم، على طبعه فى تسهيل الحياة، والافلات من مضائقها ومعاركها، بالكذب، ما أفاده الكذب حاجة عاجلة. وهو يخادع، وهو ينافق، وهو يسرق، ما جر له ذلك فى يومه أو غده القريب مغنما، أو دفع عنه مغرما. وأقول غده القريب، لأن أكثر الناس قصار النظر، وهو قصر لا تصححه العدسات وهى من زجاج.

وقد تفنن الباحثون الأحدثون، فى الكشف عن خبايا الأنفس، وفى فضح الضمائر، بالآلات أحيانا، وبالسؤال والجواب أحيانا، وبالحيل أحيانا، وخرجوا من ذلك على أن أكثر الناس كاذبون منافقون، وأنهم أكثر كذبا وأكثر نفاقا ، ما أمنوا الكذب أن ينكشف، والنفاق أن ينفضح.

عمد رجلان باحثان إلى أمانة طوائف من الناس يمتحونها. وأمتحنا فيما امتحنا رجالا فى نحو من ثلاثمائة وخمسين جراجا، وقفا عندها بسيارة أصابها بخلل مقصود. وكان الخلل هينا

تصلحه نظرة . سلك تزحزح عن موضعه فكان رجل الجراج يصلح هذا الخلل ويدعى اصلاح غيره بالكذب، ويطالب من أجل هذا الذى لم يفعله أجرا كبيرا. وأغلب الخداع فأصابهما فى ثلاثة وستين جراجا من كل مائة من الجراجات التى وقفا عندها.

ووصلا هذا البحث ببحوث غيره، وفعل غيرهما من البحاث مثل ما فعلا. عند مصلح الراديو. وعند مصلح الساعات، وبين خدم الفنادق، ومستخدمى المخازن، وكتبة البنوك، وغير هؤلاء وهؤلاء. وخرجوا جميعا على نتائج متقاربة، أن نحوا من ثلثى هؤلاء الناس لا أمانة عندهم.

* * *

لا تلعن ياصاحبى، ، ولا تنع الناس، ولا تسب الدهر، وتنسى نفسك . ولن ألعن ياصاحبى، ولن أنعى النسا، ولن أسب الدهر، وأنسى نفسى، ذلك أن صناعة العيش مرهقة، والطبيعة، والطباع، وأوضاع الحياة كثيرا ما تكون مجحفة. وهذه الأرض البسيطة ، ما بسطت ، لتكون أرضا حراما، والا فما فضل المساجد والكنائس والبيع.

«وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون».

بين الليل والنهار*

الليل: عم صباحاً يا ابن العم.

النهار: عم صباحا يا ابن الخال.

الليل: اخؤولة هى أم عمومة؟

النهار: بل بنوة لأب واحد.. إنه الزمان.

الليل: نحن وجهان لشئ واحد.

النهار: بل صفحتان لوجه واحد.

الليل: وصباح نحن فيه أم مساء؟

النهار: إنه مساء لى وصباح لك.

الليل: وكيف اجتمعنا، وما اجتمع قط ليل ونهار؟

النهار: نحن ما اجتمعنا، ولكنا تلاحقنا، فراسك دائماً فى ذيلى.

الليل: وذيلى دائماً فى رأسك.

النهار: وأنا آكل منك فتقصر.

---

* هلال - يناير ١٩٥٠

الليل: واعود فآكل منك فأطول

النهار: أن فى طولك البرد وأغلاق النوافذ.

الليل: وفى طولك الحر وفتح الأبواب

النهار: أما تعبت من جرى؟

الليل: بمقدار ما تعبت أنت من دوران.

النهار: كم لك من العمر؟

الليل: بمقدار ما لك من ذلك.

النهار: وهل نحن فى شيخوخة أم شباب؟

الليل: نحن الجديدان، فهكذا سمونا. نحن الزمان على هذه الأرض، فلا نشب ولا نشيب.

النهار: ولكن شاعر الأرض يقول:

أتى الزمان بنوه فى شبيبته

فسرهم وأتيناه على الهرم

الليل: أن الزمان لا يسر ولا يسوء

النهار: والناس يدعوننا بالدهر، ثم يدعون علينا بالويل

الليل: ويدعون لنا بالخير إذا طاب لهم الحال، ويقولون طاب الزمان.

النهار: ويقولون فسد الزمان، وافسد الزمان عندهم ماحضر، وأطيبه الذى غبر .

الليل: والهمذاني يكتب في رسائله: والشيخ الامام يقول فسد الزمان، أفلا يقول متى كان صالحا؟

النهار : والناس تقول أن الزمن يأسو الجراح.

الليل: وهو الذى يجرح. أن الجرح حدث، والزمن يحدث الاحداث. أن الدنيا أبعاد ثلاثة، رابعها الزمان، أنه لابد من الزمن ليذوب السكر، ولابد من الزمن لينتقع الحنظل، ولابد من الزمن ليغلى الماء، ولابد من الزمن ليطعم الطاعم ويهضم الهاضم، لو وقف واقف بالزمن، وقف الدنيا، ووقفت الحياة، وقفت الحوادث، ولو وقفت العقول فلم يكن للزمن حتى العقل الذى يعقله.

النهار: والناس تقول أن الزمن يحل المعضلات ويفك الازمات، ويذهب بالضائقات.

الليل: لأنه كالنهر الجارى والناس وقوف على شطآنه، وهو نهر يحمل الفرص، فهى تجرى فوق مائه. والفرصة التى تفوت لا تعود، ولكن تعود لها أمثال وأشباه. وقد يفوت الرجل السفين ، فيلحق بعده بسفين، وقد يفوته الصغير فيلحق بالكبير. وقد يفوته الكبير فيلحق بالصغير. ويقول أنه الحظ قد عمى، أو يقول أنه الحظ قد استيقظ. وما عمى الحظ ولا استيقظ، ولكن نامت عينا صاحبه فلم

ترقب النهر الجارى، أو هو انفتحت عيناه، فأمسكت بالفرص السانحة يمناه.

النهار: وأين نحن من النهر؟

الليل: نحن شاطئاه.

النهار: فما بال الناس تموت على الشاطئين؟

الليل: انهم يموتون، لأنهم من طينة، تمس الحياة فتبتل بها، ثم هى تجف.

النهار: ولكنها طينة خالدة.

الليل: نعم، ولكن ماءها متنقل.

النهار: وكيف تعرف كل هذا وأنت من ظلمة؟

الليل: أن فى جنحى تتناجى الارواح، فأتعلم منها. وأنت من نور.. والنور يملأ بصر الناس فتخلو بصائرهم.. وما عمر ظاهر وباطن فى آن.

النهار: ولكن من الناس من عاش على الغم من جفاف طينته، وعاش فى غير زمانه طويلا.

الليل: ما عاش الناس ولكن الفكرة هى التى عاشت، والفكرة لا تموت، لأنها تمت بصلة إلى الخلود .

النهار: أن الفكرة الطيبة الصادقة الحلوة هى التى تبقى.

الليل: والفكرة غير الطيبة، والفكرة الكاذبة والخبيثة والكريهة والمريرة. أن الزمان محايد لايميل إلى طيب أو خبيث، ولا يتعرف الحلو والمر، أن للزمان أنفا لا يشم، ولسانا لا يتذوق.

النهار: قل لى بالله ما الزمان

الليل : ألا تدرى ما الزمان وهو أبوك؟!

النهار: لشد ما جهل الابناء آباءهم.

الليل: أن الزمان أخفى شئ فى الدنيا، ونحن، أنا وأنت، إنما نقوم على تسجيله، ولولا الحركة مادرى الناس ما الزمان.

النهار: وأنا أكثر حركة منك فأنا أكثر زمانا.

الليل: وأنا أكثر سكونا، فأنا أقل زمانا، وأنا أوسد الناس ليناموا فأفقدهم معنى الزمان..

النهار: إلى حين

الليل: وقد أفقدهم إياه إلى الابد.

النهار: وما الأبد؟

الليل: إنه آخر الزمان، وهو كالزمان، معنى لا تفهمه الاذهان.

النهار: قالوا إن الاذهان تفهم كل شئ..

الليل: هكذا يخيل إليها القصور. أنها لا تستطيع أن تتصور أبسط الاشياء وأروجها، الزمان والمكان. أنه ما استطاع ذهن أن يتصور المكان، كيف يبدأ أو كيف ينتهى، ولا حدود هذا الوجود، وما استطاع ذهن أن يتصور الزمان، كيف يبدا وكيف ينتهى، أو كيف لا يبدأ ولا ينتهى، وكيف قيد به الواجد الموجود، بالسنين والقرون،

النهار : وما القرون؟

الليل: أن القرون أعداد من السنين عدها الناس على أصابعهم العشر، مرة فمرة، إلى عشر مرات.

النهار: وأن كانت أصابعهم سبعا؟

الليل : إذاً لعدوها على أصابعهم السبع، مرة فمرة، إلى سبع مرات، فكان قرنهم تسعة وأربعين عاما.

النهار: وهل للقرون وجود؟

الليل : أن القرون والسنين حيلة الإنسان لضبط الزمان. عجز الناس عن الزمان ذهنا وفهما، فقاموا يكيلونه كيلا. وكالوه كما كالوا الهواء.

النهار : ومتى تفهم الأذهان معنى الزمان؟

الليل : عندما تفهم معنى الله.

النهار: ومتى تفهم معنى الله.

الليل: عندما تكون بعضه، أن بقى لها عند ذلك فهم.

النهار: ومتى تكون بعضه؟

الليل : عندما تتوقف الافعال فتأبى أشتقاقا، فلا يكون لماضيها مضارع، ولا لمضارعها ماض. والسين وسوف تتوقفان عن العمل فلا تكون كان ولا يكون ولا سوف يكون، ويكون كل شئ أما كائنا أو غير كائن.

النهار : قل لى مرة أخرى، كيف عرفت هذا وأنت من ظلمة، وجهلته أنا وأنا من نور؟

الليل : إن الظلمة أصل الوجود، وهى أكثر الكون، وما النور إلا حدث طارئ، وأنت فى نورك لا يصحبك غير نجم واحد، ذلك الشمس، أما أنا فى ظلمتى فلى من الاصحاب ألف نجم وألف، أسامرها، وأخامرها، وأتعلم منها.

النهار : أن الحياة نور.

الليل : من أجل ذلك هى حدث طارئ، ثم تعود إلى ..

النهار : أن القبور مظلمة

الليل : وما إظلامـها بالشـرط الواجب. إن الذاهب ليس فى حاجة إلى أظلامها ليذهب. إن الحياة تظلم ما فنيت شعلتها، وهى تظلم وهى فى وقدة شمسك.

النهار: كم تأخذ من أرواح الناس؟

الليل : بمقدار ما تأخذ أنت، ولكن المحصول كله لى، لأنى أنا الظلام.

النهار : ألا تحسب أن فى هذه الثرثرة الكفاية؟

الليل: نعم كفانا، فعم صباحا.

النهار : بل نعمت مساء.

هكذا أدبنا أشياخنا *

فرغ الشيخ من بيانه، وأتى فيه على الغاية من إحسانه، وتهيأنا للسؤال وتهيأ للجواب..

سأل سائل منا: «هل للشيخ أن يتحدث لنا فى اللذة، كيف يطلبها السعيد فتسعده، وكيف يطلبها فتفوته فتذهب نفسه وراءها حسرات؟».

سمع الشيخ وصمت طويلا، واستغرق فى التأمل استغراقا، ثم نطق فقال:

– إن الرجل منا يطلب اللذة فتجيئه فيسعد، وإن الرجل يطلب اللذة فتفوته فيشقى، والسعادة والشقاء معدنهما واحد، فمن أجل هذا هما يوزنان، وهما يقارنان.. ولو أنك وضعت هذه السعادة فى كفة ميزان، ووضعت هذا الشقاء فى الكفة الأخرى، لرجح الشقاء بهذه الكفة من الميزان، إنا نجنى من فوات اللذة التى نطلب الألم.

---

* هلال – مايو ١٩٥٠

«واللذة مهما بلغت لا تساوى حلاوتها مرارة الألم أبدا، لا فى حاضر الأمر ولا فى ذاهبه، فنحن نذكر الحادث الطيب فنسر، ونذكر الحادث المفجع فنساء، وتكون مساءتنا من هذا اضعاف سرورنا من ذاك، لهذا وجب أن تكون حياة العاقل منا، لا سعيا دائبا إلى لذة ولكن تجنبا دائما لألم، إن السعادة فى الحياة قد تكون بالذى لا تأتى به الحياة من أفراح، ولكنها تكون أكثر من ذلك بالذى لا تأتى به من أحزان.

وما كدح الناس فى الحياة وراء الغنى الا دفعا للفقر، لأنه ألم.

إن بالفقر ألم الجوع، وبالفقر ألم المرض، ولذة الشبع من بعد جوع إنما هى فى ضياع ألم الجوع، ولذة الصحة من بعد مرض إنما هى فى ضياع ألم المرض، والشابع من بعد شبع لا يلتذ شيئا، ومع هذا فهوسعيد ، والصحيح من بعد صحة لا يلتذ شيئا، ومع هذا فهو هانىء، والسعادة فى ذاك والهناءة فى هذا، انما هى الخلو من الأوجاع، فإذا طلبتم العيش هنيئا، فلا تطلبوه مليئا بالمتع، ولكن اطلبوه خلوا من الأوجاع.

قال قائل منا. «فماذا قال السلف الصالح فى هذا؟».

قال الشيخ . «إن أرسطو هو أول من سن هذا فى المذكور من التاريخ، فهو يقول. إن العاقل لا يهدف إلى اللذة فيطلبها، ولكن إلى الألم فيتحرر منه. وقال فولتير: إنا نحس السرور حالمين ، ولكنا نحس الأحزان أيقاظا».

وعاد قائلنا الأزهرى يقول: «ومن بعض ما قلت قول المعرى :

إن حزنا فى ساعة الموت

اضعاف سرور فى ساعة الميلاد».

قال الشيخ: نعم هذا من ذاك».

وقرع الشيخ عصاه، فعرفنا أن الحديث فى هذا قد استوفى، واخذنا نفكر فى سؤال نسوقه.

* * *

سأل سائلنا: «هل يحدثنا الشيخ، أطال الله بقاءه، عن الرجل الحر فى عصر الحرية يضع القيد فى رجليه، والغل فى يديه، عن رضى وطواعية؟».

ونظر الشيخ يسرة ثم يمنة، وصعد فينا بصره وصوبه، ثم استفتح فقال:

- إن عصر الحرية لا يمكن أن يستأصل ما فى قلوب البشر من حب العبودية، إن الذى خلق الأمر خلق الطاعة، فحيثما

وجدت أمراً وجدت مطيعا. ولا يمنع المطيع الكبير الضخم كبره وضخامته من طاعة، ألم تر كيف أن الطفل الصغير يقود الثور الضخم الكبير؟

إنها الإرادة، وانها العادة. كذلك لا تمنع ذا المكان الوضيع وضاعته أن يجر وراءه ذا المكان الرفيع، وأن يجره جر الثيران.. والثيران تجر فلا تشكو، وكذلك لا يشكو الرجال، إنهم فى غبطة مما هم فيه.

وأمثلة هذا فى الحياة كثيرة.. رئيس يقع فى قيد أحد مرؤوسية.. وقد يكون أقلهم، ومع هذا هو ينعم فى قيده. ورجل يقع فى قيد أمه، فينعم به هو، وتشقى زوجته.

«والحب أشد القيود على صاحبه واضيقها، ومع هذا يجد صاحبه فيه اللذة، كلما ضاق قيده واشتد.

وقد يفوت غير المحب معنى العبودية فيما تقيد به ، ولكن المحب يظهر له هذا المعنى فيما هو فيه بارزا واضحا فيرضاه ويود أن يزيده جمالا وجلالا، فيسميه تعبدا، وهو ينعم بتعبده كما ينعم العابد بعبادة الله. ومنهم من عبد الله فيمن يحب ومزج هذا بذاك.. وقد تفنى ارادة المحب، فلا يعود يرى بعينه ولكن بعينيها، ولا يسمع بأذنه، ولكن بأذنيها ولا يحب او يكره بقلبه، ولكن بقلبها وهو بذلك يفنى فيها كما يفنى الظل فى النور .

فهذا مثل الرجل الحر الذى رضى، لا القيد فحسب، ولكن رضى الفناء عن طواعية».

قال صاحبنا الازهرى: «فماذا يرى الشيخ فى قول المتنبى:

وقيدت نفسى فى ذراك محبة.

ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا؟!»

قال الشيخ: «هذا هو البيع والشراء، وإن شئت قلت انه الوفاء».

وقرع الشيخ عصاه، فأخذنا نتهيأ لسؤال جديد.

* * *

سأل سائل منا: «هل يحدثنا الشيخ، لا فض الله فاه، عن الرجل يسكت فيأتيه الأذى، ويتكلم فيأتيه الخير؟».

قال الشيخ: «لقد عرفتم المثل، إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وهذا يصح أحيانا.

والذى قال هذا المثل أول قائل حذر محافظ، يخشى أن يقول السوء فيمتنع عن الكلام. وما هكذا الحياة.. فالحياة مقارضة والأحاديث ملاقفة، إذا تعطل جانب منها تعطل سائرها.. إن الكلام لا يكون منه الا الخير عند من يحسنه، وإن الصمت قد

يكون منه الشر عند ما لا يحسنه ولا يكون الصمت بين الآلاف ولا بين الاحباب ولا بين الازواج، ولا بين حياتين مزج الزمان بينهما مزجا.

«إن الزوج الذى يرى ما يسوءه ثم لا يفصح انما يداعب الشر الذى سوف يأتيه عاجلا أو آجلا.. وإذا تكرر هذا صار السكوت كبتا، ويزمن الكبت فيصبح داء، ولا تصلح الحياة على الكبت، ولا يسعد الرجل على الداء، ولا تسعد المرأة، والكبت بين الاخلاء يطيح بالذى بينهما من ود ويعكر ما بينهما من صفاء.

«ومن الاشياء ما لا يصح عليه السكوت.. من رأى منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الأيمان.

«ولولا دفع الجور بالقول لفسد فى الناس الحكم، ولولا جار الناس بالشكوى من مقعد فى برلمان، أو من اسطر فى صحيفة، أو من فوق منبر فى العراء، لانتشرت المظالم، وامتد الخطأ وتعدد، ولسادت الفوضى.

«والحاكم الخبير قد يخشى من الناس الكلام، ولكنه من صمتهم أكبر خشية.

«ولو أن الصامت إذ يصمت، ضميره، لكان في ذلك غناء.. ولكن الذي يترك الكلام جهرا، لا يتركه سرا. إن الذى لا يرضى شيئا لا يفتأ الليل، ولا يفتأ النهار يحدث نفسه فيه.. انه يقول فيه ويقول. ويسأل وتجيب نفسه، وتسأل نفسه وهو يجيب.. انها معركة بالكلام خرساء.. وتحتر النفس على الصمت ويحتر صاحبها.. وتكتوى النفس بنارها ويكتوى صاحبها ولو انه افصحو فقال فصرخ فملأ الفضاء وهز الاجواء لكان من ذلك لناره خمور وبرود، ولنفسه روح وارتياح.

إن الرجل منا قد يشقى بالكلام، ولكنه قد يكون بالصمت أشقى».

قال صديقنا الأزهرى: «فماذا يرى الشيخ فى قول بشار:

وما أنا الا كالزمان إذا صحا..

صحوت وإن ماق الزمان أموق؟»

قال الشيخ: «إن الذى يعقل إذا عقل الزمان، ويجهل ويتحامق إذا جهل الزمان، وتحامق، إنما يشترى الراحة لنفسه، على الباطل، بخراب الدنيا».

وقرع الشيخ عصاه قرعتين، فكان هذا ايذانا بانتهاء.

وانفض المجلس، ولكن ليعود .

العيد شيء يعود*
ولكنه فرصة للبر والإحسان

الشمس تطلع علينا وتغيب فتصنع الايام، سوادا وبياضا .

والقمر يمتلىء ليفرغ ، ويفرغ ليمتلىء ، فيصنع لنا الشهور .

والأرض تدور فى مدارها الكبير حول الشمس، فتصنع لنا الأعوام .

كل هذه صنعتها الطبيعة .

وجاء الانسان فصنع الاسبوع !

وكلها أشياء تبدأ لتنتهى ، وتنتهى لتبدأ ، ففى حكم الزمان أنه لا يذهب منه ذاهب الا ليعود .

والحياة نفسها ، ووعاؤها الزمان، هى كالزمان تأتى لتذهب ، وتذهب لتعود، ففى كل ظاهرة من ظواهر هذه الطبيعة الجامدة عود، وفى كل ظاهرة من ظواهر هذه الطبيعة الحية عيد.

والعيد ما سمى عيدا إلا لأنه يعود.

---

* الهلال – مايو ١٩٥٧

والعيد احتفال ، وهو احتفال بالزمان ، وقد اطلق الله فينا الزمان ينبتنا ويحيينا ، فإذا اكتملنا كما يكتمل القمر البدر ، راح الزمان ، على عادته ، يتحيف أطرافنا كما يتحيف أطراف البذور ، فإذا هى آخر الأمر عراجين . ونحن نحتفل عند انباتها ، ونحتفل عندما يصوح النبات، ثم نعود لنحتفل بنبات جديد يصير إلى تصويح جديد .

واليوم يولد فنحتفل به، صلاة صباح .

واليوم يموت فنحتفل به، صلاة مساء .

والاسبوع نحتفل به عند انتهاء، أو لعله ابتداء ، بصلاة جمعة .

والأشهر نجعل منها الحرام وغير الحرام، ونحتفل بها صياما، ونحتفل قياما . وجعلنا فى هذا الطريق الدائر بنا، والذى به نحن دائرون ، جعلنا به عرصات ننيخ بها لنستريح ونريح، ولنغتسل من وعثاء الطريق. فهذه وقفة من بعد صوم لأفطار . وهذه وقفة بالناس ، ومع النـــاس، على جبل لحج ، وهذه .. وهذه .. وكلها أشياء تعود، فهى أعياد .

إن الذى لا يفطن إلى معنى الدورة فى الاعياد ، وأنها دورة زمان ، يفقد من الأعياد أصدق معانيها .

البر أول سمات الأعياد

والاعياد فرص لاسداء الخير أكبر الخير

هى فرص للتآزر والتعاضد ، والتحابب والتوادد ، وسبيل كل هذا البر، ولست أجد قولا أجمع لمعانى البر وأشمل من آية البر :

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» .

فالبر قسطان :

قسط لله وقسط للناس

أما قسط الله فعبادة وعقيدة ولست احسب أن الله يبالى من عبد ومن اعتقد . فالذى يعبد إنما يعبد لنفسه ، والذى يعتقد إنما يعتقد لنفسه .

أما قسط الناس فيبدأ فى البيت، ويخرج إلى ذوى القربى ، وأن هو استطاع أن يتسع شمل الناس أجمعين .

بر ذو ميقات

والبر شيء يبذل في كل ساعة ، وكل يوم ، وكل آن وزمان ، ولكن ليس كبر ذي ميقات، يجتمع عليه الناس جملة، ومعا، فيكون أحر أثرا في النفس ، وأشحذ لروح .

والدعوات يرفعها الفرد لله صباحا ويرفعها مساء ، ويرفعها مفردا في أطواء ليل. ولكنها ليست كدعوات يرفع المرء عقيرته فيها ومع صوته ألف صوت تدعو . من هنا جاء فضل الصلاة الجامعة ، وجاء فضل الحج .

ويموت الرجل الضخم النافع، البار، ويحمده الناس، ويذكرونه، ويذكرون فضله، ويخشون النسيان فينسون الامثلة الضخمة من الرجال العظام ، الذين ذهبوا في الناس مثلا، وصاروا للناس في اجراء الحياة قدوة. يخشون النسيان فيجعلون بين بعض وبعض مواعد، فيها يجتمعوت فيذكرون ، وعن أمجاد هؤلاء يحدثون ، وبهديهم يهدون. وهو احتفال بذكرى يوم ميلاد، أو عيد جهاد. وهو ذكر يجوز على الفرد ، في كل وقت. ولكن ليس كذكرى يجتمع عليها الناس ، على ميعاد .

البر لذة غامرة

والعيد ميعاد للبر يجتمع عليه الناس . وقد تجتمع أمة . فكيف به إذا اجتمعت عليه أمم .

وإذا ذكر البر ذكر المال . فالبر بذل المال . والمال حياة ، فالبر بذل من حياة . ذلك أن المال نستطيع ترجمته إلى طعام، وإلى كساء ، وإلى دواء ، وإلى متع الدنيا ما نشاء منها وما لا نشاء . وخير المال الذى بذل هو ذلك الذى جمعه جامعه اجرا لعمل . فإن هو بذل منه أحس أنه انما بذل من عمل ليشبع جائعا عاجزا ، أو فقيرا عاريا ، أو مريضا تقطعت به أسباب البر واسباب الحياة، ، ولست احسب أن لذة فى هذا الوجود، تكون لانسان ، كلذة اشباع انسان آخر جائع أو عاجز أو مريض ، ويبدأ الباذل ببر هؤلاء، فإذا البذل لذة ، وإذا البذل للضمير راحة ، وينتهى بأنه إنما مر نفسه، لذة غامرة وراحة ضمير .

بر القادر زكاة عن قدرته

والباذل يجمع من عمل . والعمل قدرة، والقدرة يعطاها الناس درجات، فمن الناس القوى ، ومن الناس الضعيف ، وهو على قوة مفطور أو على ضعف . ومن الناس الذكى ، ومن الناس الغبى ، وهو على غباء مفطور أو على ذكاء . ويقدر هذا التفاوت تتفاوت الارزاق . فالذى يعطى إنما يعطى زكاة عن نعمة ، فى جسم أو عقل ، حرم مثلها غيره ، أنه قسط كأقساط التأمين على الحياة

يدفعه القادر بمقدار ما قدر، ليعطاه العاجز، بالفطرة ، أو وفقا لما تجرى به الأقدار ، بمقدار ما عجز .

ويتراءى من هذا أن بذل الباذل ليس بفضل .

الابوة لذة وطمأنينة ، تظهر فى عيد

وأنت تعمل ، ومن أجر عملك تعول أولادك وتعول أما كريمة لهم، وقد تعول أما لك أو اختا . فهذا هو البذل أو حب البذل ، فإذا جاء عيد احتفلت الاسرة .. احتفل باذل ومبذول له . واجتمعت الاسرة حول رأسها ، وكاسبها ، أو لعلها كاسبتها ، أما الكاسب فيحمد الله على ما كسبه ، وهو لا شك مستشعر السرور، أكبر السرور ، حين ينظر إلى هؤلاء الصغار ، إلى هذا الجيل الجديد الناشىء، يدلفون إلى كنفه ، وهو كنف كان طول العام حاميهم ، يسألون الله أن يطيل فيه لهم حمى، فى العام الغادى ، كما حماهم فى العام الرائح . ويعبرون عن هذا المعنى باللفظ الذى اصطلح الناس عليه : كل عام وأنتم بخير. فيجيب رب البيت : وأنتم بخير يا صغارى .

إن الأبوة ، كالأمومة ، لذة، هى لذة العمل للغير، لذة الكسب للغير، لا سيما والغير هؤلاء ، هم صبيته وصباياه . يشفع اليه فيهم العجز ، وتشفع وشائج الدماء .

رجال على فراش الموت راضون

ولقد حضرت رجالا ، على فراش الموت، لم يكن لهم في مجتمعهم صوت مرفوع ، ولم يكن عنهم في مجتمعهم خبر مسموع، عاشوا وعملوا وجهدوا ، وتنظر فيما خلفوا فلا تجد الا أبناءهم زهرة الدنيا، هم حاصل انتاجهم ، وهم كل عملهم ، وهم فخرهم في حياة، وهم مرضاتهم ساعة ممات . ويغمضون أعينهم آخر اغماضة على هذا الفراش ، وهم عن الدنيا التي يخلفونها راضين ، وراضين لذلك عما هم له في طيات الغيب مستقبلون ، ذلك الشيء الخبيء الذي يخافه الناس، وهم إياه غير خائفين . وكيف يخافون وقد قاموا بواجب هذه الدنيا الأول، ذلك وصل الحياة خير وصل ، بمقدار ما قدروا ، وبمقدار من يسر الله، وأذنت مقاديره .

ولنا في المقابر احباب مذكورون

ولما كانت الاعياد ذكرى ، وجبت أن تكون ذكرا للذي مضى، كما هي ذكر للذي حضر . ولا يمنع من ذلك استبشار بمستقبل .

ويذكر الناس الآباء والاجداد ، والاخوة والاخوات ، ويذكرون أياما كانوا فيها لهم ولهن عاملين وعاملات، وبهم وبهن محتفين ومحتفيات ، ولأثقال الحياة ، معهم ومعهن، حاملين وحاملات ،

ولامثال هذا العيد ، وما سبقه من أعياد، حاضرين وحاضرات ، مؤنسين ومؤنسات ، فرحين وفرحات. ثم أزاحهم الدهر عن رقعة الحياة إزاحتك الاحجار من رقعة الشطرنج ، هكذا بغتة، بسبب حينا ، وبغير سبب حينا .

هؤلاء الذاهبون ، كما شاركونا في الحياة، نحن لهم ، في العيد، مشاركون . أنه الطبع الانساني الذى لا ينسى . والناس ما ساروا على حكم الطبع، فيما خفى ، لا يضلون أبداً .

من أجل هذا سن أهل الأرض جميعا ، في الأعياد ، زيارة المقابر، تعطى للحديث الذاهب منهم، على بلل ، من دمع . وتجف عيوننا عن آخرين ، في الذهاب بعيدين ، ولا تجف قلوب .

إنها الاعياد

إنها الأعياد

نذكر فيها ماضينا فنأسى

ونذكر حاضرنا ، فنحمد الله .

ونجتمع ، نقف على عتبة من عتبات الزمان، ننظر وراءها إلى ما خلفنا من أعتاب ، وننظر أمامنا إلى ما نحن مستقبلين منها، ونسأل الله أن يوقينا ، على سلم الزمان، العثرات .

وإليه المرجع ، وإليه المآب .

الحكم الصالح *

سألنى سائل «أى نظام من نظمة الحكم تفضل؟»

وأخذت أجرى بفكرى على الأنظمة جميعا، فوجدت إلى أقصى اليمين الدكتاتورية، ووجدت إلى أقصى اليسار الديمقراطية، والناس تكره الدكتاتورية لأول وهلة، والناس تحب الديمقراطية لأول وهلة، ونظرت فعرفت من الدكتاتوريات دكتوريات حبيبة صالحة. ونظرت فعرفت من الديمقراطيات ديمقراطيات كريهة صالحة، ووجدت دكتاتوريات هى أقرب إلى الديمقراطية، ووجدت ديقراطيات هى أقرب إلى الدكتاتورية، بمعنى تلك الأحب ومعنى هذه الأقبح.

وخرجت بما يخرج به كل رجل غير ذى ميل ينظر فى شأن من الشئون الإنسانية، خرجت بأن العبرة ليست بالشكل ولكن بالجوهر، وأن الناس كثيرا ماتتخذ الاشكال لتهتدى. وقد تهتدى بالاشكال حينا، ثم تتغير الظروف فيصبح الشكل قيدا تتقيد به العقول وتعتقل الافهام.

---

* هلال – نوفمبر ١٩٤٩

إن الحكام الصالح هو الذى يرضى به الناس ، بدءا وانتهاء .

* * *

ومادام أنا جعلنا رضى الناس أساسا للحكم، فليتخذ الحكم من الأشكال مايشاء . وفى الماضى، بعيده والقريب، وفى الحاضر، أمثلة تشهد بأن أساليب للحكم جرى الناس بالعادة على حبها والرضا بها، كرهها أقوام فلم يعودوا يطيقونها .

قرأت لمكيافيللى رأيا فى الحكم .. فى الحكم الدكتاتورى ومكيافيللى عاش فى ايطاليا خصيما للدكتاتورية متمثلة فى أسرة ميدتشى قال:

- إن من الكتاب من يلوم الرومان على ابتداع الدكتاتورية، تلك الدكتاتورية التى انتهت وتنتهى الى الحكم المطلق، وهو حكم دل التاريخ على جوره . والحق أن الدكتاتورية كانت فى روما أمرا قانونيا، لاحكما مغتصبا، ويحل الدكتاتور فى منصبه الى أجل معلوم. ومن أجل هذا لم نجد دكتاتورا إلا أفاد روما أفادة واضحة صريحة . وإنك لن تجد من البدع التى ابتدعتها روما بدعة أخطر من هذه، سببت ما كان لها من عظمة واتساع نطاق، ومهدت لها ليكون منها امبراطورية كبرى . ذلك لأن الحكم الصالح يحتاج الى .

البت السريع، والبت السريع لاتصلح له الجمهورية التى من شأنها أن لايبت فى أمر من أمورها حتى تتفق عليه عدة سلطات كثيرا مايتعذر بينها الوفاق . وفى هذا إضاعة لزمن غال تضيع باضاعته الفرص الكثيرة الغالية .

ومن الأدلة على أن الحكم الصـــالح لايكون بشكله، ولكن بجوهره، تلك الدكتاتورية التى قامت فى ألمانيا، وعلى رأسها هتلر، فقد أجمع الألمان من قبل حرب، ومن بعد حرب، على أن الأمة الألمانية لم تجد رخاء كرخاء وجدته فى العهد الهتلرى، عهد الدكتاتورية، وقد تحدثت إلى الكثير منهم فلم أجد من شذ على هذا الرأى إلا قليلا . وهذا القليل كره العهد الهتلرى كراهة نظرية للدكتاتورية فى أى شكل من أشكالها حتى ماصلح منها .

ومع هذا فقد انتهى عهد هذه الدكتاتورية بكارثة لم تعرف الأمة الألمانية كارثة مثلها . ذلك لأنها دكتاتورية طال عليها الزمان فانقلبت حكما مطلقا، كانت دكتاتورية تعتمد على المشورة فصارت لاتعرف المشورة بابا. وأصاب صاحبها الغرور فأنكر الله وتقمص روحه واستعار لسانه. وما هكذا الدكتاتوريات الصالحة وما هكذا كانت دكتاتوريات روما، فقد كانت موقوتة بزمان .

ولقد عجب الناس لأسبانيا، كيف طالت بها الدكتاتورية الى اليوم، على الرغم من خصومة نصف العالم الشرقي ونصفه الغربى لها، أعنى روسيا وأمريكا، ومن عرف حال أسبانيا عرف سر هذا البقاء ، ففرانكو، دكتاتور أسبانيا، لابد درس الدكتاتوريات ونظمها، فاعتمد فى اطالة مدته الى أشياء يطول بها الحكم على رضاء الناس. فمن ذلك المشورة، ومن ذلك توخى نفع أمته دون نفع نفسه نفعا واضحا فاضحا، ومن ذلك اعتداله فى استخدام مابيده من قوة لأحد لها . وماقصة اكرامه للمرأة التى ناوأته العداء مريرا، وهى فى عرينه، الا دليلا على سعة صدر لا تكون إلا فى الدكتاتور الناجح. ولعله درس سيرة معاوية فيما درس وبها انتفع.

فهذه أمثلة للحكم، ساءت شكلا وحسنت جوهرا .

وهناك أمثلة للحكم، حسنت شكلا وساءت جوهرا.

والشكل الحسن الذى نقصده هنا هو ما أصطلح الناس اليوم على أنه الديمقراطية ذلك نظام الحكم الذى يبنى على أحزاب متعددة وانتخابات، ثم حكومة تأتى من بعد ذلك، وهو نظام كالوعاء تضع فيه من الثمر الطيب الحلو، وقد تضع فيه الفج المر. وقد يسوء فيفسد فلا يكون للناس مخلص منه الا بالدكتاتورية . وهو

إذا لم يفسد كل هذا الفساد فهو لاشك قلق عند الكثير من الأمم .
فهى تختار الحكومة فى ظل هذا النظام فتحبها وترضاها، ثم تقضى عاما فعاما إلى أربعة أعوام أو خمسة لتتعلم فيها معنى الكراهة لهذه الحكومة، بل معنى المقت. ثم هى تختار من جديد لتكره وتمقت من جديد على فترة من الزمان معلومة .

وأكثر مايفت فى هذا النظام ويضعف من قوته التحزب. وقد يبلغ التحزب بالقوم مبلغا يكون فيه تقاتل وتناحر، فتحسب أنهم من أمم مختلفة متعادية لا أمة واحدة ذات لسان واحد وثقافة واحدة وأمل فى الحياة واحد . وزاد فى حدة هذا التحزب أن صارت السياسة احترافا، وزاد فى حدة هذا التحزب ضعف الاحساس بالعدالة عند من تملك، ونسيان لذة يطلبها الطالب بالتكرم على قدرة.

وليس التحزب فى أسوأ صوره بقاصر على أمة دون أمة، ولا جيل دون جيل، بل هو قد ولد مع الديمقراطية من يوم ولدت فهذا وشنجطن مؤسس الدولة الأمريكية العظيمة الولايات المتحدة، وأول رئيس لها يرفض رئاسة الجمهورية لثالث مرة، ويعتذر لأمته عن رفضه، ثم يقوم فيها يخطب خطبة الوداع، فينصح بكثير، ويحذر

من كثير، وكان من أكثرها ماحذر منه، وأطال فيه، تحذيره من التحزب والأحزاب .. قال :

لقد سبق أن ذكرت لكم أخطارا تجيء من وجود الأحزاب فى الدرلة فدعونى أزدكم فى هذا الصدد كلمة، وأحذركم أكبر تحذير من روح الحزبية عامة .

إن هذه الروح، على الأسف الشديد، شيء من بعض طبيعتنا، ولها جذور أرضها شهوات فى الأنفس عارمة .. وهى توجد على صور مختلفة فى كل الحكومات، مكبوتة بعض كبت، محكومة بعض حكم، ولكنها توجد على صورة أبين وأوضح واشنع فى الحكومات الديمقراطية حكومات الشعوب، وهى أعدى أعداء هذه الحكومات .

إن تسلط حزب على حزب يزيد فى رغبة الأخذ بالثأر عندما يتغلب مغلوب على غالب، وقد أدى هذا فى بعض الأمم، فى بعض الأزمان، إلى اقتراف جرائم من الشناعة بما كان .. وهذا التسلط هو فى ذاته نوع من الاستبداد مخيف .. وهو قد يؤدى آخر الأمر إلى نوع من الاستبداد أكثر ثباتا .

والتحزب فوق ذلك يفسد الرأى فى مجالس للدولة من شأنها اسداء النصيحة مخلصة . وهو يضعف الإدارة العامة. والتحزب

يقيم المجتمع ويقعده بأحداث الغيرة، ويفزع الناس حيث لا فزع، ويذكي عداء البعض للبعض ويثير القلاقل ويحيى الشغب، وهو من بعد كل هذا يفتح باب الدولة ليتدخل الأجنبى منه فى أمور الدولة، فتصبح الدولة فى استقلال ظاهر وهى فى الحقيقة تبع .

ويقول قائلون إن الأحزاب فى الأمم الحرة نافعة لأنها تقف الإدارة عند حدها، وتذكى روح الحرية فتظل مشتعلة، وأنا أرجح أن يكون هذا الرأى صائبا، ولكن فى حدود، إن روح الحزبية يجب إن لاتشجع أبدا فى الدول الديمقراطية، حيث تقوم الحكومات نتيجة لإجراء انتخابات، فهذه الدول فيها الكفاية من هذه الروح، وفيها منها المقدار الصالح لكل الأغراض، وإن كان هناك داع لبذل شىء، وجب أن يكون هذا البذل لاضعاف هذه الروح، عن طريق الرأى العام، إن التحزب قد ينفع، ولكنه كالنار تدفىء، ادفاؤها فى خفضها، أما اذا هى اشتعلت حتى تأججت وامتدت ألسنتها فسوف لاتكون عندئذ للدفء ولكن للحريق يأكل البيت ومن فيه.

فهذا رأى محرر أمريكا العظيم، قاله منذ قرن ونصف قرن.

وقد كان حقا بالأمس وهو كذلك اليوم.

* * *

والنظام الديمقراطى على رواجه اليوم بين الناس، ليس

ديمقراطيا كما يفهم الناس. إنه ليس حكم الكافة كما يريد الكافة، فهذا أمر لاتستطيعه طبائع الأشياء، ولقد جاز هذا الأمر لو أن الكافة استطاعت أن تجمع على شيء، وما هى بمجمعة، ومن أجل هذا تهرب الأحزاب فى الأمم الديمقراطية من اتخاذ البرامج، وهى إذا اتخذتها غلب عليها الإبهام لتضمن بهذا الابهام أكثر الأصوات . قال الأستاذ «سيت» يصف برامج الرئاسة بالولايات المتحدة كيف تصطنع؟

إن الحزب الجمهورى وكل حزب، يتألف من عدد عظيم من الناخبين مختلفين، اجتمعوا فى صعيد واحد مؤتلفين من بعد مساومات ومناقصات واطراحات وتضحيات كانت كلها ثمن هذا الائتلاف ويخرج البرنامج فلا يكاد يرضى فئة فى رغبة، ولكنه يرضى متوسط الرغبات مجتمعة، وهو يخرج فى بنود فيها الوضوح قليل وفى أكثرها المكر والختل واللفظ اللبق الذى يفهم منه الفاهم كل شيء .

* * *

والنظام الديمقراطى على رواجه اليوم بين الناس الذين يعافون الدكتاتورية فيه عنصر من الدكتاتورية كبير، لاسيما ذلك الذى يستند فى التنفيذ إلى مجلس يعرف بمجلس الوزراء . فالوزراء هم

كبراء الحزب، وهم فطناؤه، وهم من أجل ذلك لهم هيبة القادة فلا ترتفع اليهم من الجند شكوك، وإلا فهى الثورة التى لايؤذن بها فى الجيش. والجند لاترى مايرى القواد ولاتفهم من الأمر مثل مايفهمون، من أجل هذا كانت علاقة رجال الحزب بوزرائه مبناها الثقة ولاشيء غير هذا . وهل شيء أكثر اظهارا لعنصر الدكتاتورية فى الحكومات الديمقراطية، من ذلك القرار الخطير الذى اتخذ مجلس وزراء بريطانيا بخفض الجنيه دون الرجوع إلى حزب أو إلى أمة؟ لقد اتخذوا القرار ونفذوه، ثم طلبوا من الحزب بعد ذلك أن يرضى وطلبوا من الأمة ممثلة فى برلمانها أن ترضى .

ونعود فنقول إن الحكم الصالح ليس بدكتاتورية، ولا بديمقراطية ولا هو بفاشية ولا اشتراكية، وليس هو بالقوانين والمراسيم، فكل هذه صور يحسن عليها الحكم أو يقبح . ولكن الحكم الصالح برجال له صالحين. يؤمنون بالله ويخافونه ويؤمنون بالناس ولا يخافونهم، يصدعون بالحق غير جفوة، ويبثون الحب والطمأنينة، ويفتحون فى قلوبهم للخير بابا يدخل منه كل راغب فى خير . والناس عندهم سواسية، قريبهم والبعيد، غريبهم والنسيب . يبذلون من أنفسهم أكثر مما يبذلون لها . وتلك صفات الأنبياء، وعز حاكم أن يكون نبيا .

إن الحكم الصالح هو الذى يرضى به الناس بدءا ثم انتهاء .

العداوة غالية الثمن *

هات ورقة، وهات قلما، واقعد واكتب إلى يمين هذه الورقة قائمة بما لك من أصدقاء، واكتب الى يسارها قائمة بما لك من أعداء، فهذه الورقة هي بعض موازين حسابك في هذه الحياة . لم يبق إلا أن تكتب فوق القائمة الأولى إلى اليمين «له» وفوق القائمة الثانية الى اليسار «عليه» لتستتم مظهرها التجارى . وإذا أنت كرهت التجارة مظهرا، فاكتب فوق الأولى «غنما» واكتب فوق الأخرى «غرما» .

ولكنك لاتستطيع أن تنتهى الى رصيدك من غرم وغنم، إلا أن تجمع هذه القائمة وتجمع تلك وأنت لذلك لابد أن تقدر بالأرقام قدر كل صديق، وقدر كل عدو فالمسألة ليست بعدد هؤلاء، أو عدد هؤلاء، أنها ليست بطول هذا النهر وطول ذلك من الورقة . فنهر فيه سطران، قيمتهما ألف ، يرجح كثيرا نهرا فيه عشرة أسطر تجمعهما فيكون حاصل جمعها مائة أو مائتين.

---

* هلال - أكتوبر ١٩٤٩

وتنظر فى الأصدقاء فتجد تحصيلك إياهم لم يكن سهلا، أنها المصادفات القليلة النادرة التى جمعت بين قلب وقلب ثم توثقت بينهما العرى على السنين، وتنظر الى الأعداء فتجد تحصيلك إياهم كاد أن يكون ابن ساعته، كلمة تقال، أو مسألة تثار، تتلاقى فيها الأعين وهى تقدح شررا، ويذهب كل عن صاحبه وقد خط كل منهما فى قائمة غرمه اسما جديدا فى سطر جديد . وتقوم الأنفس على نار هذه العداوة فتحييها حتى يصبح القبس شواظا من نار . ولايلقى الرجل صاحبه فى سوق، أو ناد حتى يكون هذا اللقاء فرصة جديدة، تزكو عليها نار هذه العداوة الجديدة الثمينة وتربو . ويفترقان فتأخذ النفس تهوى من جديد على ما أضافت إلى موقدها من جمرات، وهى تحترق بها ولكن من الغريب أن النفس تلتذ النار التى تأكلها، فهى كالفراش تكتوى أجنحته بلهيب الشمعة ، ولكنه الى ألسنة اللهيب بأجنحته يعود.

* * *

ولتفاهة اسباب العداوات كانت سهولتها، وكانت كثرتها.

عرفت مدرسا مر بمدرس فى امتحان، وكان ا لشهر رمضان، وكان الأول يشرب القهوة نهارا جهارا، فعتب عليه الثانى فى رفق ، فاستشاط الأول، وأخذ ينادى بقداسة الحرية، واحترام الرأي، وبماذا

يعنيك يارجل من هذا، أو يعني سواك، وانعقدت في ذلك اليوم أواصر للعدواة بين الاثنين شقى بها الأول أكبر شقاء، كان ذا حس مرهف وعصب مهتاج، وكان له مزاج يجتر به الحوادث بعد وقوعها، كما يجتر البقر طعامه بعد ساعة من بلعه، وكره صاحبه، واتخذ من هذه الكراهة ديدنا، واتخذ منها افيونة يضعها في غليونه كلما خلا الى نفسه .

وزاد الطين بلة، وزاد الكراهة توثقا، واستوقد لها الوقود كلما خبا وقودها، أن جمعهما عمل في الديوان واحد .

ولست أبحث في أصل هذه الكراهة، وفيمن جنى على صاحبه أو تجنى، فلا أحسب إلا أن هذا الأصل قد نسيه الطرفان، بما استولد لهما من أصول، واستفرع من فروع، شقيت بها نفسان، وشقيت إلى جانبهما أنفس بضياع مصالح للناس .

وفرق الموت بينهما بعد عشر سنين .

فليت شعرى ماذا يرى الذاهب الآن في صاحبه الباقي . بل ماذا يرى الباقي في صاحبه الذاهب ، لست أجرؤ أن أقول .

* * *

وقد تأتيك العداوة من حيث لاتحتسب . ذلك أن من الناس من يتصيدها تصيدا، كما يتصيد الرجال الطير، لا لأنهم في حاجة الى طعام، ولكنهم في حاجة إلى رؤية دم يسيل .

اجتمع أساتذة الجامعة فى سنة بعيدة مضت، ينظرون فى أمر ناد يجمعهم، وقضينا مجتمعين ساعة وبعض ساعة، ودخلت إلى منزلى فدق التليفون، فاذا بصديق يقول لى أن الدكتور فلانا هائج لكلمة قلتها، تلمح بها إلى شىء من خاصته . قلت من هو الدكتور فلان ؟ قال أستاذ فى الطب . قلت أوكان حاضرا، قال نعم . قلت بلغة تحيتى وقل له إنى سأتحين أول فرصة ألقاه فيها لأتعرف إليه لأول مرة، ومضت خمسة عشر عاما، واعتلى هذا الطبيب مركزا قضى عليه أن يكتب إلىَّ منه كتابا فكان كتابا جافا، وكان به إلى الجفاف مرارة، عرت فيها تلك المرارة التى انتفخت بها حويصلته فى سنة عتيقة مضت . واجبت بكتاب أودعته من الرقة ماكاد الكتاب به أن يكون سخرية .

* * *

ومن العداوة مايأتى بها النقد البريء، يقول صاحبك رأيا، أو يعمل عملا، كان من واجبك أن تنقده، وقد يكون فى نقدك دفع شرا أو استجلاب خير .. ويقول لك باحثو الأخلاق وأصحاب المبادىء أنه لابأس بالذى تقول، وأنه فرق بين أن تنقد موضوعا وأن تنقد واضعا، أو تنقد رأيا لصاحب وأن تنقد صاحبا، لأن الرأى يشرح تشريحا فلا

يتألم، لأنه فكرة، أما الرجل فيشرح فيتألم ألما شديدا، وينصحونك أن تقصر كلامك دائما على الموضوع، وتدع شخص صاحبه ويؤمنونك بعد ذلك على نفسك، ويقسمون بسلامة مذهبك، ويؤكدون لك أنك سوف تتجنب العداوات ولكن هيهات .

إن رأى المرء بعض نفسه، والذى يقطع فى رأيك بالمقص إنما يقطع فى نفسك، لهذا عمدوا فى القص الذى لابد منه إلى الملطفات والمسكنات درءا للعداوات . وتلاطف صاحب الرأى لتقطع رأيه . وتمدحه لتذبحه، وتبرؤه لتعقره .

كفعل جزار اليهود بالبقر

برأها من العيوب وعقر

على أن العدواة كالتصفيق لابد لها من كفين، أن الكف الواحدة لاتصفق، وكذلك الرجل الواحد لايمكن وحده أن يلد العداوة، وأن ولدها عز عليه أن يقوم وحده على تنشئتها وازكائها، إذا رفض صاحبه أن يكون له شريكا، إن العداوة عند صاحبك تغذيها عداوة عندك، فإذا أنت رفضت أن تغذيها من مؤنتك ماتت جوعا .

والعدواة حتى إذا ولدت، وتنشأت، وترعرعت يقتلها العمل الطيب يأتيه أحد الرجلين لصاحبه على غير انتظار، كم من جميل غير

مرتقب أتى فى أقاصيص العداوات بالمعجزات، فغير وجه الكراهة، وهو وجه قبيح دميم، فصار وجها واضحا جميلا بين يوم وليلة .

* * *

كره رجل رجلا وعاداه، واتخذ العداوة بينهما مجراها المألوف، وتدرجت فيه الدرجات، حتى لم يعد أحد يطيق صاحبه، وذاع أمر هذه العداوة وشاع، للذى جرى فيها من مصادمات ومصارعات تكوكب من حولها الناس يتفرجون، وعرف أحدهما ذات يوم أن صاحبه يأوى فى بيته صبية أصابها على الطفولة شلل الطفولة المعروف، ثم بقى عندها واستقر، وعرف أن هذه الصبية بنت صاحبه، فغير هذا الخبر عنده وجه الأمر. وعرف فوق ذلك أن الصبية لها أخوات ليس لهن أم، فوقع فى نفسه أن عداوة رجل كهذا جرم وافساد للمرءوة واستنظر الأيام أن تأتيه بالفرصة التى يصلح فيها من مروءته، فما أنظرته طويلا . نزلت على صاحبه نازلتان كان فيهما لاشك أجهاز، الفالج والافلاس، كانت الأزمة أزمة ١٩٣٣، وكان وقعها عليه شديدا فلم يطقها فسقط . هنا تراءى لرجل المروءة أنه أن كان الخير يسديه المرء لصديق له فى موازين المروءة حسنة واحدة فالخير يسديه المرء لعدوه له فى موازين المروءة ألف حسنة . وأرسل من

بعض أهله إلى البيت الذى خلا من صاحبه من يعنى بصغاره، ورأى بارقة لخلاص ماله، فبذل لها هو ما أستطاع من ماله، وأجل بذلك الكارثة . اسند الجدار الذى تشقق من فعل الزلزال حتى توقفت هزات الأرض، فكان اصلاح الدار من بعد ذلك هينا . وزال الفالج بزوال أسبابه، وزالت العدواة، وتصاهر الرجلان، واختلط الأهلان، وتواصل القلبان اللذان خالا أنه ليس الى الأبد وصال .،

* * *

إن العداوة غالية الثمن، وليت صاحب العداوة يدفع ثمنها فضة أو ذهبا، إنه يدفعها إكتواء قلب واحتراق أعصاب. فلينظر كل فى عداوة أخذت تنبت فى قلبه، فلعله قاتلها قبل أن تنشق أرضها عن نبات كرية الرائحة مر المذاق .

جماجم *

كان قد مضى على المجلس في انعقاده ساعة . وعرضت المسائل على الأعضاء مسألة مسألة . وبدأوا بالخفيف ، وابتعوه بالثقيل . ومع الثقيل احتدت المناقشة واحترت . وكنت في مسألة هذه اللحظة من أكثر الأعضاء في الجدل احترارا . وكان إلى جوارى أجنبى . أو بالصريح انجليزى . وبدرت منى إليه لمحة وقفت بى عنده ، وكادت تخرجنى من النقاش اخراجا . كان ينظر إلىَّ في جمود لا يأتلف وحركتى ، وفى برود لا يتسق وحرارتى . وكان يبتسم وهو يصعد النظرات فىَّ ويصوبها ، فى قصد غير مألوف ، وفى إلحاح غير معروف . وكانت نظراته إلى رأسى العارى . فقلت ماذا تصنع ؟ أتجد فى هذا الرأس شيئا عجبا ؟ وقصدت بذلك إلى المباسطة العابرة ، فى شئ من اللوم أسديه إلى هذا الرجل الذى لم يجد من النقاش الجارى ، ما يشغله ، فاشتغل برأس حار له فى صراحة بينة لا مداراة فيها ولا مخالسة ، وفى هذا من الإحراج لصاحب الرأس ما فيه .

---

* هلال - أغسطس ١٩٤٩

كان المجلس مجلس الجامعة المصرية ، وكان العام عام ١٩٢٣ ، وكان الاستاذ الذى شغله رأسى الاستاذ درى ، أستاذ التشريح بكلية الطب بالجامعة . وأحسبه لا يزال ، وقد عمر على النفع طويلا .

وأجاب على سؤالى بسؤال .. وهذا صنف من صنوف الإجابة أظن أن له موضعا فى أفانين البلاغة لا أذكر كيف أسميه .

سألنى ، وكان بيننا ألفة :

«قل لى يا زكى ، هل أنت مصرى؟» .

فقلت فى نفسى لقد جن الرجل ، وقلت أن الذى أجنه السأم ، وعتبت على الجامعة أن تحشد فى مجلسها قوما لهم لغة ، للمجلس غيرها ، فينتج عن ذلك اشتغالهم بالرؤوس ، وانصرافهم إلى السخيف من الاسئلة .

ولكن الرجل لم يكن فى نظراته عابثا ، ولم يكن فى سؤاله سخيفا . أنه رجل تشريح ، وأنه رجل تعود البحث ، وأنه رجل لم يتعود الفراغ ، فلما أعطاه المجلس فرصة الفراغ ، راح يشغله بالبحث . ومن سوء حظى أن كان هذا البحث موضعه رأسى أنا .

***

إن رؤوس الناس ليست سواء ، وللرأس طول هو ما بين مقدم الرأس ومؤخرها . وللرأس عرض هو ما بين جنبيها . وقد يزيد طول الرأس ، منسوبا إلى عرضه ، فيقال رأس طويل . وقد يزيد العرض في هذه النسبة فيقال رأس عريض . وقد يكون الرأس بين هذا وذاك . وللسلالات الإنسانية نسب في هذا الأمر غالبة ، هي من خصائصها .

وأحجام الرؤوس أيضا من خصائص الشعوب .

والجبهة، إذا أنت مددت سطحها ، التقى بالفكين فصنع معهما، أو مع امتدادهما ، زاوية . فهذه الزاوية أيضا من خصائص الشعوب .

وللرأس أبعاد ونسب عديدة أخرى ، ليس هذا مجالها ، تفرق بين السلالات، وتدل على الشعوب فأستاذ التشريح الصديق ، حين حملق في رأسي ، كان يقيس هذه الأطوال والأبعاد ، وتلك النسب والزوايا ، وخرج على أن بي عنصرا غريبا .

ورحت إلى أبي رحمه الله استفتي . فعلمت أمرا لم أكن أعرفه ، أن جده التقى بمكة ، على الحج ، بامرأة من القوقاز ، من أهل شركس ، فتزوجها وعادا إلى مصر ، فكان منها جدي ، ثم أبي ، وأخيرا أنا .

إذن صدق الأستاذ فيما زعم وأثار عندى هذا الحدث فضولا أن أعرف من هذا العلم فوق ما علمت . فذهبت أشترى فى علم السلالات، علم الشعوب ، كتابا وكتابا . ورحت أدرس فى البيت وأطبق فى الشارع . وكلما رأيت رجلا ، أختفى عنى جسمه ، وظهرت جمجمته ، وقضيت أشهرا لا أرى الناس إلا جماجم ، تروح وتغدو ، كأنها فى الهواء عائمة . وكنت أتلهف على الجمجمة العارية ، وكانت أكثر لهفتى على الجمجمة الحليق . والرأس الأصلع كان درة غالية . وكانت الذقون أعداء البحث ، لأن الأبعاد والزوايا كانت تختفى من تحتها . وكنت أغرم ببعض هذه الجماجم اغراما ، وأقترب منها لأفحص ، وأنسى أنها لرجل حى ، فأكاد أمسها مسا لأقيس ، فأجدها قد فزعت ، فاعتذر لصاحبها بأن بعوضة كانت تحوم ، أو أن حشرة كانت تهيم .

واتخذت من دور السينما أمكنة للبحث مختارة ، لأن الناس فيها تكشف الرؤوس . وقد أجد من لم يخلع طربوشه أو قبعته ، فأقول لنفسى تعزية واستشفاء من غيظ ، ليس هذا من السلالات البشرية فى شئ . والسينما ، فى القاهرة ، فوق ذلك معرض لجماجم الشعوب جميعها ، فهى أشبه بمتحف حى لجماجم أهل الأرض .

وقضيت في هذه الهوية زمانا غير قصير ، أتفكه وأتسلى .

فعلى أى شئ خرجت ؟

خرجت على الشئ القليل ، وانبهم عندى الشئ الكثير ، واستفتيت الكتب ، واستفتيت العارفين ، فعلمت أن هذا الأمر فيه اختلاط كبير عند العلماء ، لا سيما حيثما تمتزج السلالات ، وتتلاقى الشعوب .

***

فقلت لنفسى : « ما همك يا نفس بماضى هذه الجماجم ، وفى الحاضر بلاغ ومتاع ومتعة ، وما همك بأشكال هذه الجماجم وظواهرها والعبرة فى الأشياء بالذى فى بواطنها » .

قالت النفس : «إذن فدونك فافلق هذه الجماجم ، كما تفلق الثمر ، لترى باطنها ، وترى منه حاضرها» .

وذهبت إلى طبيب مما جاءته الفرص وتجيئه لفتح رؤوس بنى الناس.

قلت : « ما الفرق بين دماغ ودماغ؟» .

قال : « ما الدماغ ؟» .

قلت : «حشو الجماجم» .

قال : « أما من حيث المادة فلا فرق أبدا » .

وأخرج مخا محفوظا فى سائل فى زجاجة ، وأخذ يقطع فيه هونا بمشرطه ، ويشرح لى أجزاءه .

فيقول هذا لهذا ، وهذا لذاك ، وهذا لذلك .

قلت : « أين الادراك؟» .

قال : «هنا» .

قلت : « وأين العلم والمعرفة ؟» .

قال : « هنا» .

قلت : « وأين ثمرات الدرس والتحصيل الكثير ؟» .

قال : « هنا» .

قلت : «وأين الحب والبغض ؟» .

قال : «هنا» .

قلت : «وأين الشجاعة والخوف ؟» .

قال : «هنا» .

قلت : «وأين ذكريات السنين الطويلة ؟» .

قال : «هذه مخازنها» .

قلت : « إن العلم والمعرفة يختلفان عند الناس كيفا وكما ،

وكذلك يختلف الدرس والتحصيل كيفا وكما ، وتختلف الذكريات وهى تجارب السنين . وتلك الأدمغة مخازن كل هذا ومع ذلك لا تجد بين هذه المخازن فرقا ؟» .

قال : « لافرق » .

قلت : « انظر بمجهرك فلعلك واجد فيها من خلاف ، أو لعلك قارئ فى تلافيف هذا المخ أسطرا من بعد أسطر كما تقرأ فى كتاب» .

قال : « إن كل مخ من هذه سفر عظيم ، وأعلم هذا ، وبكل سفر مجلدات بعدد ما عاش المخ من سنين ، وبكل مجلد صفحات بعدد ما عاش المخ من أيام ، بل من ساعات ، بل من لحظات ، ولكنها كتبت بحبر أبيض لا تقرأه العيون لهذا تجد صحائف هذه الأسفار جميعا بيضاء . وهى فى البياض سواء . وهو بياض كبياض العين ، يعميها ويغشيها ، إن العين لا ترى إلا بالسواد» .

***

وانصرفت عن صاحبى الطبيب يأسا ، كما انصرفت من قبله عن علماء الأنساب وعن كتب السلالات والشعوب اخفاقا ، ورحت أقرأ ما فى الجماجم ، وأقومها بالذى أتوسمه مما هى فيه فى

يومها ، وبالذى كانته فى أمسها ، وهى طريقة ليس فيها ما فى طرائق العلم من وثوق ، ولكن من لم يجد الماء تيمم بالتراب .

وخرجت على قيم للجماجم ذات فروق هائلة . فجمجمة بقرش ، إلى جمجمة بألف قرش ، إلى جمجمة بألف ألف ، جمجمة ككراسة الطالب وهو فى التعليم الالزامى ، سواد قليل فى بياض كثير ، والكلمات تتمطى فى السطر الواحد فتكاد تملؤه الكلمتان والثلاث، وفيها الاخطاء حتى فى الهجاء ، وجمجمة ككراسة الطالب وهو فى التعليم الثانوى ، أكثر امتلاء ، وأكثر اكتنازا ، وأكثر سوادا وأقل بياضا ، وجمجمة كالكتاب الضخم المطبوع ، وأخرى كدائرة المعارف امتلاء وكثرة . وقد أجد الكثرة فى غير نظام ، وأجد فيها اختلاطا واختباطا وتهوشا ، كالكتاب نزعت صحائفه صفحة صفحة ، ثم أعدت تجليده فى ظلام حالك .

وطباخ قرأت مافى جمجمته ، فوجدت أسماء البهار تطغى ، وأسماء اللحوم والخضراوات ، وإذا تحرك فكره تحركت المعالق والمغارف ، وأز القدر ، وبخبخ الطبخ . ولو أن للأفكار روائح لسطعت من جمجمته رائحة الكوامخ والشواء .

وسائق عربة . قرأت ما فى جمجمته ، فوجدت ثمن التبن والعليق يطغى ، ووجدت صورا من زبائن عدة ، بعضها الواضح

وبعضها الغامض ، ووجدت مواقف العاصمة تتوارد فى ذهنه سراعا ، وإذا تحرك فكره تحرك على وقع الحافر وتحذير المارة ، ولو أن للأفكار أصواتا تسمع لسمعت من جمجمته فرقعة السياط.

ومدرس قرأت فى جمجمته ، فوجدت الدوائر والزوايا تطغى ، وطغى المثلث والمربع وعدة من أشكال أخرى ، وأقليدس وفيثاغورس لهما بهذه الجمجمة مكان معلى ، وإذا تحرك الفكر تحرك بالمسطرة والفرجار ، وإذا صوت صوت يزجر طالبا ، أو هو يستجير بالله .

وشيخ وقور معمم قرأت مافى جمجمته ، فوجدت أحكام الزواج والطلاق تطغى . والبائنة وغير البائنة ، والنفقة على من تجب ومتى تجب . وإذا تحرك فكره تحرك على حذر . وإذا صات نطق بالآيات البينات .

وظللت أدور على عدة من جماجم فى مدارج الحياة حتى فرغ جهدى ولم يفرغ ما بينها من فروق . لقد كان كل حق من هذه الأحقاق أفتحه ، يطلعنى على شئ جديد ، هو فى بابه فريد ، حتى خيل إلىّ أنه ليس من بين هؤلاء الخلائق أشباه . وكنت قديما

أعجب للخلاف الذى يقوم بين الناس ، فصرت أعجب للوئام . وكنت أذم الناس يمسك بعضهم بتلابيب بعض ، فصرت أرى فى اصطراعهم اصطكاك هذه الجماجم ، على اختلاف حشوها ، فاختلاف مشاربها والمآرب . وحمدت الله على أن الدنيا ليس فيها من الخصام فوق الذى فيها ، وليس فيها من ألفاظ السباب فوق ما حملت القواميس وما وعت اللغات ، وأنه لا يجرى فى مسالك الحياة من الدماء ، بين فرد وفرد وبين أمة وأمة ، فوق الذى جرى .

***

إنها الجماجم .. هى كل مافى الرجال .

وإنها الجماجم .. هى التى تسعد وتشقى .

وإنها الجماجم .. هى التى تجعل العيش حربا أو سلاما .

رقعة الشطرنج *

فى حجرة من حجرات النادى، حيث يؤذن باللعب، دخلت أتسلى وأتروح.

وجلست إلى سيدتين تعلبان الورق، تعلبان «الكتشينة» هذه تلقى أوراقها، وهذه تلقى فإذا ألقت أحدهما ورقة معلومة، كان ما تجمع من الورق من نصيبها. وتوالى السيدتان اللعبة، ثم تعدان ما حصلتا، والغالبة هى ذات الحصيلة الكبرى لعبة فى غاية البساطة، وفى غاية السذاجة أيضاً، ولا تكلف الفكر عناء، يلعبها من له فكر، ومن لا فكر له، ومن له فكر أنامه وهو لا يريد ايقاظه. وهى مع هذا تدغدغ المرء فيما بقى له من يقظة فينتعش أو ينكمش لعجلة الحظ وهى تدور، على مقاس غير كبير ولا خطير.

إنها لعبة يعمل فيها الحظ صرفا.

وانتقلت إلى جماعة ثانية، رجلين وسيدتين، يعلبون الورق أيضاً. ولكنهم يعلبون على غير ذلك الأسلوب. أنهم «يقطعون» الورق ويخلطونه و«يفنطونه» حتى يجتمع، على المصادفة، فى غير

---

* هلال - مارس ١٩٥٠

ترتيب معلوم، ثم هم يفرقونه كما تفرق الأرزاق، فتجئ هذا أو هذه «اليد» الثمينة وتجيء هذا أو هذه اليد الهزيلة، ثم هم يأخذون يلعبون بما وضعت الأقدار فى أيديهم من ورق.

وهنا يفرغ الحظ، ويبدأ الفكر، فتتقارع الأفكار والأفهام، وتنتهى اللعبة فيكسب ذو حظ كبير وفهم قليل. ولكن قد يكسب أيضا ذو حظ قليل وفهم كثير، لأنه فهم من الكثرة بحيث وفى بما أعوز الحظ وفاض...

فهذه لعبة لا يعمل فيها الحظ صرفا. أنها لعبة تجمع إلى الحظ الفكرة، وتجمع الفطنة، وتجمع المجهود، محموداً أو غير محمود.

وانتقلت إلى جماعة ثالثة، رجل هزير يصارع آخر هزيرا، وكان الميدان رقعة شطرنج بدا الرجلان برقعتهما وفيها المواضع موصوفة، وفيها البيادق والفوارس ورجال الحرب وآلتها مرصوصة مرصوفة. ويمدان هذا كميدان ذلك، لا يتميز فيهما ببذق عن بيذق، أو فارس عن فارس..

وبدأت المعركة فكان القول فيها للذكاء، والقول لحدة الذهن فى هذا المجال بعد أن شحذه المران الطويل. وأخيرا يصاب الشاه عند هذا أو عند ذاك، نتيجة لما بذل فى الصراع من جهد، وما بذل الرأس من طاقة على يقظة وحذر.

فهذه لعبة لا يعمل فيها الحظ أصلا، وإنما تعمل فيها الفكرة،

وتعمل الفطنة وتعمل القدرة، فتلك ثلاث لعبات، أولاها للحظ وحده، وأخراها للقدرة وحدها، ووسطاها للحظ والقدرة معا..

وسألت نفسي: أى هذه اللعبات اشبه بالحياة؟. وفكرت، وخرجت على أن لكل لعبة من هذه أشباها فى الحياة، ولكنى وجدت أن أشبهها بها تلك اللعبة الوسطى، لعبة الكتشينة، تلك التي جمعت بين الحظ والمقدرة.

إن الذين يقولون بأن الحظ وحده يوجه الحياة، يشبهون الرجل فى حياته براكب سفينة، يخرج بها إلى البحر وهو لا يعلم ما الريح، وما الموج، وقد يصحو الجو فيسير على هدى، وفى سهولة ويسر، واشراقة شمس، إلى تلك الغاية. وقد تغيم السماء ويشتد الريح وتهطل الأمطار، فتعوق السفينة طويلا دون بلوغ الغاية، أو هى لا تبلغها أبداً. وكل هذا من عمل الحظ، وليس من يرتاب فى ذلك.

ولكن الرجل فى سفينه هذه لا يعدم العون، وهو ليس أعزل من سلاح يدفع به. إن عنده «الدفة» سكان السفينة، يستعين به على الريح ويدفع. والقلع، ذلك الذى قد يكون سبب البلية، قد يتخذ سببا للخلاص. إن فى إخراجه من المعركة مخلصا، وقد يكون فى

بقائه، مع «الصفح والتصليح» منجاة. أن سفينة الحياة ليست كالريشة فى مهب الريح، ما دام فيها الإنسان، وهو ذو فكر جعل لمغالبة الصعاب. وإلا ففيم كان الفكر وفيم كانت الفطنة وكان الذكاء..

وينال رجل خيرا مفاجئا فى الحياة، فيقول الناس إنه الحظ الأعمى..

والحظ أعمى عند ما يورث خزانة من خزائن قارون رجلا لم يتأهل لمثل هذا الثراء بعقله أو جهده أو حسن رأيه وصفاء نيته ونقاء سريرته. ولكن ليست كل الحظوظ لها هذا القدر من العمى، وليست كلها تضل هذا الضلال.

لقد أردت أن أتصور الحظ، فتراءى لى رجلا شيخا عظيم الجسم كبير الهامة طويل اللحية، عليه مهابة وفيه وسامة، ولكنه مفقوء العينين، وقد جلس على قمة هذه الأرض، يوزع على الناس الخير، ويوزع الشر. وسبيله إلى ذلك صبية يحملون السلال، يهبطون بها إلى حيث يسكن الناس، وعلى كل ذراع سلة، فى هذه قراطيس بيضاء فيها ضروب من هبات، وفى تلك قراطيس سوداء فيها ضروب من نكبات، هى الفشل فى شتى صوره ، والصبية

كشيخهم، عمى لا يبصرون، ولكنهم من الكثرة بحيث يوجدون فى حياة الناس فى كل طريق، ويسلكون فيها كل مسلك. وقد يتحسسون عتبات الديار فيقفون عندها، وقد يقرعون أبوابها.

ولكن فى أكثر الناس كذلك عمى، فهم لا يبصرون الصبية وهم قادمون. أو يبصرون ثم يكون فيهم غباء، فهم يضعون أيديهم فى السلال حيث القراطيس سوداء. ومن الناس من لا يخرجون من ديارهم، ومع هذا تأتيهم صبية الحظ تقرع، ولكنهم صم لا يسمعون.

ومن الناس من ليس فى أعينهم عمى، ولا فى أسماعهم صمم، فهم يبصرون سوانح الحظ السعيد إذا طلعت، وهم يسمعون قرعاتها على الأبواب إذا قرعت، ويخرجون إليها يمدون أيديهم إلى السلال يطلبون قراطيسها البيضاء فيعجزون عن بلوغ شئ منها.. ذلك لأن بالأذرع قصرا..

إنه لا يكفى أن تسنح من الحظ سوانحه لتنالها الأيدى، كائنة ما كانت. أن الأيدى لا بد أن تطول لتنال، والأيدى لا تطول فى ساعة، ولا فى يوم، وهى إنما تطول على السنين.

إن الذين يقفون فى طريق الفرص يتلقفونها، على بصر فى

العين وسمع فى الأذن، لابد أن يتأهبوا لها بالعمل الكثير والجهد الطويل، وعلى الصبر الذى لا يعرف الجزع، فبهذا، وهذا وحده يطول الباع، وتمتد باليد الذراع، فتلقف من طيور الحظ كل سانحة تحملها أجنحتها، أو تأتى بها الرياح، من هوج وغير هوج. أن أكثر الخير الذى ينال الناس مفاجئا، ليس بمفاجئ إن الناس لا تدرك ما سبق الفرصة التى انتهزت من تجهيز وتحضير ويحضرنى الآن مثل من ذلك: الكاتب الشهير «سومرست موم» هذا الرجل تعلقت شهرته، وتعلق مستقبله، على ماحكوا، بدقيقة واحدة. لو أنها أفلتت، لبقى إلى الآن ينتظر غيرها من الفرص، علها تجئ مدير مسرح فى لندن، وضع على المسرح رواية لم تعجبه، وجلس يفكر عله يجد رواية غيرها، قد تكون خيرا منها. وفتح درج مكتبه، فوقع على قصة ظلت بهذا الدرج سنة كاملة راقدة لا يعكر عليها رقادها شيء.. وفتح القصة وقرأها، وقال لا بأس.. وما ظهرت على المسرح، حتى أفاضت لندن فى الحديث عنها والاعجاب بها. وامتلأ المسرح كل ليلة وفاض. وتكوكب أرباب المسارح على المؤلف، المستر موم، يطلبون لها أمثالا، فى أسرع وقت، وبأغلى ثمن.

حظ سعيد، لاشك فى هذا، جاءت به فرصة نادرة. ولكن الرجل

تهيأ للفرصة قبل أن تجيء، انه قضى اثنى عشرة عاما يكتب، ولا يجد من الناس الكثير الذى يقرأ، إنه قضى اثنى عشرة عاما يكتب، ويتعلم كيف يكتب . وكان مقضيا عليه لو أن الفرصة جاءت وهو لم يتهيأ. وكان مقضيا عليه لو أن الفرصة تخلفت وهو قد تهيأ.

إن النجاح لابد له من الفرصة السانحة، ولكن لابد له كذلك من التهيؤ لها قبل أن تسنح.

إنه الحظ والعمل معا

إنه لعبة الورقة، تلك اللعبة الوسطى التى رأيتها فى ذلك النادى، وإياها وصفت، تجمع بين «اليد» التى يفرقها الحظ على اللاعبين، وبين ما عند اللاعب بعد ذلك من فطنة وقدرة واستعداد.

أعياد الحمقى *

لابد أن الناس ضاقت بالعقل حتى كان للحمقى أعياد فما الحمق إلا نقص فى العقل وفساد فيه، ولا شىء غير ذلك.

ولقد بحثت فوجدت للحمقى ثلاثة أعياد، كلها موغلة فى الزمن قديمة. وقد دلنى هذا على أن الحمق موغل فى الناس قديم.

وهذه الثلاثة هى الأعياد الشهيرة الكبيرة، التى يجتمع فيها الناس ليدلى كل بنصيبه من حمق، وتجتمع هذه الأنصبة جميعا فى مكان واحد، وفى زمان واحد، على تركز يعطيها مظهرا للحماقة باهرا رائعا.

وليس فى هذا التخصص ما يؤثر فى حقوق الحمقى، أن يخرجوا بحماقاتهم فى أى شىء يشاءون، وفى أى ساعة، وفى أى مكان. فللحمقى حقوق باركها الزمن، ووضعها العرف فوق كثير من حقوق العقلاء.

أول ابريل

---

* هلال - ابريل ١٩٥٠

وأبدأ بعيد الحمقى الذى جاءت به مناسبة هذا الشهر، شهر أبريل. فأول ابريل «يوم جميع الحمقى» أو هكذا يسمونه. وقد بحثت عن أصله كيف بدأ وفى أى موطن نشأ، فما اهتديت إلى غاية، أن من مواطنه اليوم انجلترا، وقد جاءها، من فرنسا، وفى فرنسا يسمون ما يجرى فيه من سخافات أسماك أبريل، ولا علاقة لهذه الاسماك بالسمك الذى نأكل، ولكنه اسم اقتسوه من حادث، لا يقع فى الأرض، ولكنه يقع فى السماء، يختص به هذا الفصل، ذلك انتقال الشمس من برج الحوت أو برج السمك كما يسميه الفرنسيون، إلى برج الحمل، ويحدث هذا، أو كان يفعل، فى أول الربيع عند استواء الليل والنهار، وقال الفرنسيون فى تسبيب هذا العيد، إن شارل التاسع ملك فرنسا أصدر أمرا، عام ١٥٦٤، يقضى باعتبار أول يناير أول العام، وقد كان أول ابريل هو أول العام. انتقلت بذلك تهانى القوم برأس العام، وهداياهم، من أول ابريل إلى أول يناير. وأعتاد الناس هذا، الابقية كانت لا ترضى عن هذا، وتشبثت بأول أبريل أول العام. فكانت الكثرة من الناس، إذا جاء أبريل، ضحكوا من هذه القلة بطرائق شتى، منها أنهم كانوا يرسلون الهدايا إلى هذه القلة، على العادة القديمة، فتتضمن

صنوفا من السخرية والاستهزاء والاستغفال، وذهبت هذه القلة من الناس بمرور الزمان، ولكن بقيت العادة على رغم الزمان، فهذا ما قالوه فى أصل هذا العيد..

ويؤكدون معنى بلوغ هذا العيد إلى انجلترا، من فرنسا، بأنه لا أصل لهذا العيد فى الأمم الجرمانية، ولا ذكرى، وهى الأمم التى جاءت منها الأمة الانجليزية ووجدوا شبها بين ما يجرى فى هذا العيد، وما يجرى فى عيد مثله فى الهند، عند الاعتدال الربيعى، فربطوا بين الأثنين، وقالوا هذا من ذاك .

وربط آخرون هذا العيد، فى الأمم السلتيه، ومنها سكان انجلترا الأقدمون، بآلهتهم القدامى، على أن الذى يعنينا من هذا العيد هو مقوماته الحاضرة، إنه عيد قصير المدى، عمره نصف يوم، يبدأ من نصف ليلة أول أبريل، إلى منتصف نهاره، ففى هذه الاثنتى عشرة ساعة يجوز استغفال الناس بعضهم بعضا، دون تململ أو عتاب، يرسل الرجل إلى الرجل هدية، لها مظهر الهدايا ولكن ليس لها مخبرها. ويثيره حضورها على غير علم، فيتشوق إلى ما بها، فإذا فتحها وقع منها على ما لا يسر، أو على ما يخزى، أو على لا شئ أصلا، وقد يحكم المهدى أغلاق وعاء الهدية

أحكاما يعانيه متسلمها عند فتحه، ويتعب، فيزيد هذا فى خزيه عند اطلاعه عليها ويزيد فى الخيبة.

ومن الناس من يغضب من هذا، لكن أكثر الناس يجد المخرج الطبيعى من هذا المأزق بالضحك من نفسه، إن جاز عليها هذا الملعوب، واتسمت بالغفلة.

وقد تأتى الناس الغفلة من غير سبيل الهدايا دعوة يدعاها الرجل فيذهب فلا يجد أحدا. أو موعد يضربه ضارب متخابث بين اثنين، ويلتقيان، ثم يتحدثان، وينتظر كلاهما أن يحدثه صاحبه فى أمر، ثم يتضح أنهما ضحية حماقة. وكل حماقة من هذه تتضمن لاشك كذبة، ومن هنا نشأت أكذوبة ابريل بحسبانها عاملا مشتركا فى كل هذه الحماقات.

ولست أدرى أيهما أكثر حماقة، ناصب الشرك أو واقع فيه. وأغلب الظن انهما متعادلان. وأغلب الظن أن هذا ليس بالحمق ولكنه التحامق. وناصب الشرك يستغل طيبة الناس، وحسن إيمان الناس بالناس، والناس تسقط فى هذه الحفرة المحفورة، ولكن لا تندق أعناقها، لأنها ضحلة لا عمق لها، وعلى هذا النحو صنعت، وبه قصدت، ومن أجل هذا كانت حفر ابريل آمن الحفر على

الواقعين فيها، ولكن غير ذلك حفر يحفرها الحافرون فى غير هذا اليوم فى الحياة الجارية. فتلك لدق الأعناق وتحطيم الأعضاء وسلب الأموال وختل النهى والعقول. فكذبة أبريل، على ما بها من سرور وانتعاش، بها تنبيه للناس إلى ما بهم من غفلة أصيلة، ووصية لهم أن يفتحوا أعينهم طوال العام حذار السقطات، واستبانة الخدعات، حتى يحول فتكون حاجة إلى عودة تذكير، والعودة إلى التحذير ببلوغ أول أبريل.

عيد الكرنفال

ثم إلى ثانى أعياد الحمقى فذاك الكرنفال، وهو عيد يقع فى الأحد الذى يسبق الصوم الكبير عند المسيحيين، ويبدأ من أربعاء الرماد إلى عيد الفصح. وهذا العيد يتسم على ما هو معروف بالمواكب الساخرة وبالأقنعة الواقية التى يأتى تحتها الرجال، ويأتى النساء، بشتى الحماقات ولا يصابون بالأذى من بعد ذلك.

ويصلون هذا العيد بالمسيحية، فيقولون أنه الاباحة، أو الاستباحة قبل الحرمان، ينذر الصيام بأن يجئ، وينذر بأن يدوم أربعين يوما، وفى الصيام لا يجمل إلا الصمت، ولا تروج غير

التقوى، ولا يسود غير العقل، فهم يتزودون من أضداد كل هذا قبل اليوم الموعود، فيتزودون من زناط، ويتزودون من خلاعة، ويتزودون من حماقة، بمقدار ما كان يصيبهم منها لو لم يكن صيام، ولم يكن بالصيام امتناع الحرام، وتسأل: فما معنى الكرنفال؟ فيقولون أنه «الكرن»، ومعناها اللحم، و«فال» ومعناها وداعا، والمعنى: وداعا أيتها اللحوم، وهي التي تمتنع في الصيام. وإذن يكون إلى جانب الحماقة، في ذلك اليوم، النهم والشبق. ويذكرني هذا بما أحل للمسلمين من الرفث ليلة الصيام، ليلة رمضان.. ومن عجب أن الجرمان سموا هذا العيد أيضاً ليلة الصيام، فكأنما عادات الناس والأجناس إنما تنشأ من أصول واحدة.

وقد يصلون هذا العيد بالأغريقية، فيقولون أنه باكوس اله الخمر والإخصاب، الذي علم الدنيا كيف يعتصر العنب وكيف يختمر، كان يسوق الأغريق في ذكراه موكبا زائطا، يسقون له فيه سفينة تحملها عربة، ومن هذه السفينة يخطب الخطباء ويقول القائلون ويهزل الهازلون ويسخف السخفاء. وقالوا إنه من هذه المواكب نشأت الكوميدية الأغريقية، وهي أصل الكوميدية الأوربية. ولا تزال كرنفالات اليوم تجر في موكبها، فيما تجر، تلك العربة

التى تحمل السفينة. ويردون إليها اسم الكرنفال، «كر» معناها العربة، و«نفالس» معناها السفينة.

المباهج

ثم إلى ثالث أعياد الحمقى، تلك أعياد ديسمبر، وفيه عيد الميلاد، وفيه ليلة أول العام، وهى أعياد نعرفها اليوم بالمفارح والمباهج، فى عقل وفى غير عقل، ونجد أصول كل هذه فى نظائر لها أشد صخبا، وأكثر تحللا من حرمات، كانت عوائد جارية فى القرون الوسطى، يشترك فيها كبراء الكنيسة وأعيان الأديرة، وتسير بهم المواكب فتحمل كل ساخر ماجن. وتنقلب الأوضاع فيتزيى السيد بزى الخادم، والخادم بزى السيد، على اتفاق بينهما. وولد الكنيسة يلبس ثوب الأسقف، والأسقف يلبس غير زيه من الأزياء، عن رضى وطواعية، والمرأة تلبس لباس الرجل، والرجل يلبس لباس المرأة، ولما كانت النفس الإنسانية إذا تحررت وأرخى لها العنان، لا تكاد تقف عند غاية، فقد غلا الناس فأنزلوا إلى السخرية كل مقام، واتخذوا لها فى سبيل البهجة كل موضوع، ومن تلك المقامات التى أنزلوها كان مقام الكنيسة، ومن تلك المواضيع التى ابتهجوا بها كان أقدس موضوع يرتفع به المؤمنون عن كل مظنة وريبة، تلك قصة العذراء، يختارون أجمل فتاة فى

المدينة ويضعون على ذراعها طفلا، ويضعونهما جميعاً على حمار، ثم يساق الحمار فى موكب عظيم إلى الكنيسة، وهناك يستقبله القساوسة، ويدخل الحمار الكنيسة ومن حمل، وتجرى الطقوس على حال من السخرية لا يدرى أهل هذا القرن الحاضر ساغته هذه القرون. ويتلو رائد القداس على الناس، فيردون عليه نهيقا، وقالوا فى تفسير ذلك أن أهل تلك القرون كانوا من السذاجة بحيث لم يدركوا أن فيما صنعوا خطا أو زراية.

وذهب كل هذا وبقى منه ما نجده اليوم عند ختام العام وعند بدئه: الرقص الشراب. ومن الناس من يغرق عقله بالخمر حتى يكتم أنفاسه فلا يصبح. ومنه تلك السويعة القصيرة التى يودع فيها عام ويدخل عام، حين تطفأ الانوار ويجرى ما يجرى فى الظلام، وانى لأذكر بهذا الشيخ حمزة فتح الله، شيخ المعارف فى بدء هذا الجيل، لما وقع له فى هذا الحادث وهو بعمامته فى السفينة إلى أوروبا. قال: وأعيدت الأنوار، فنظرت فإذا بها مفسقة عامة.

فهذه ثلاثة أعياد للحمقى نستطيع أن نضم إليها الكثير فعلى أى شئ تدل هذه؟

إنها تدل على أن الحياة لا يمكن أن تكون كلها جداً، والجد

يقتل النفس، والهزل يعيد إليها الحياة، وإلى الهزل يحتاج الملك ويحتاج الصعلوك. وقد كان للملوك هزالون ضحاكون لهم فى القصر مكان ولهم سلطان، ولهم على صاحب السلطان دالة، وكانوا يأتون السخف أمام الملوك وأمام الأمراء ليروحوا عنهم من عناء العمل للدولة، وليلينوا من صلابة أجسام يكاد يقضى عليها جمود المراسم. ولقد ذهب الزمن «بمضحك الملك»، ولكنه لم يذهب به من حياة الناس. فهو يعيش اليوم فى ضحاكي «السرك» وبهاليله، وهو يعيش على المسرح فى المجانات، لا سيما الصارخة، وهو يعيش على الشاشة فيضحك الأطفال، وهو لا شك يضحك الرجال، فالرجال مهما شبوا، بهم بقية من طفولة فهم لا يستغنون عن السخافة أبدا، تضحكهم وتنعشهم..

وحتى بدون المسارح وبدون الشاشات، يخلق السخفاء الضحاكون فى المجتمعات خلقا، ويخلقون فى القرى. فلكل قرية ضحاك يميل إلى مجلسه الناس، أو يميلون به إلى مجالسهم، يروح عنهم بسخفه. والسخف قد يكون مطبوعا، ولكن فى هذه الحالة مصنوع. أن الرجل يصنع السخف، على الرغم مما به من عقل. بل إنه يستعين بعقله على اصطناع السخف، فاصطناع السخف فن لا يستطيعه كل إنسان أن الحماقة شئ لا نرجوه

لأحد، ولكن التحامق شئ لابد له من ساعة كل يوم ، ومن يوم بل أيام كل عام. أن العقل جميل ، وأن المنطق لجميل، وأن الصلاح والتقوى لجميلة ، ولكن أجمل منها العقل الذى يدخله شئ من حماقة، والمنطق الذى يدخله شئ من خطأ، والتقوى التى يدخلها بعض وساوس الشيطان، وكل هذا فى غير أغراق ولا إدمان.

إنى لأدعو لصاحب العقل الكامل والمنطق الكامل والتقوى الكاملة أن يجيئه الموت وإن يجئ سريعا . ذلك بأنه ملك من ملائكة الله ليست هذه الأرض له بوطن، وانما موطنه السماء يرفعه إليها عزريل إن شاء الله..

أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض *

مظاهر الحياة دائما حبيبة، ولكنها أحب ما تكون وهى فى اولها .

فاليوم حبيب، ولكن أحب ساعة فيه شقشقة الصباح الأولى وذرور الشمس فيها:

والشجرة حبيبة، ولكنها الحب وهى تحمل الازهار، هذه الصور الأولى من الحياة قبل أن تنضج فيكون منها الثمار.

والرجل الناضج ثمرة الحياة.. وزهرته الطفولة..

والرجل يعطفه الى الطفولة ما يعطفه الى الزهرة فى كليهما النقاوة وفيهما الطهارة، وفيهما الحسن والنضارة.. وفيهما الليونة والنعومة وفيهما العجز والضعف، وفيهما سرعة التحول، الى الترعرع أو التصوح..

اذكر لحكيم انه وصف الطفل فقال: «انه نسخة مصغرة من آدم قبل أن يعرف حواء، وقبل أن يعرف التفاحة ويعرف بها الغواية والإغراء».

---

* هلال - يونيه ١٩٥٠

والطفل كالصحيفة، انصع ما تكون وهى بيضاء، ويخط الزمن فيها خطا من بعد خط.. وقد يتألف من الخطوط رسوم ذات بساطة وذات جمال، وقد يتألف منها رسوم معقدة ذات غموض وذات ابهام.. وقد يميل الخط فيها إلى الخط، وقد يركب فيها الخط الخط، فتتهوش وتقبح وتشوه ومهما يحصل فيها من قبح أو حسن، فهى سوف تنتهى دائما بأن تكون قليلة البياض كثيرة السواد.. من أجل هذا يحرص الحارص على أن يراها قبل ان يكثر فيها المداد.

وفى الطفل جهل يحبه الرجل البالغ الذى فرغ من جهله فيسميه سذاجة.. وفى الطفل نسيان وغفلة يتمناهما الرجل الناضج الذى عذبه التنبه والذكر، فيحسب فيهما هناءه.. والطفل فى غفلته وجهلته، لا يدرى ما يقول الرجل فى ذلك وما يعنى . إن الرجل البالغ الناضج شقى بعلم البالغين الناضجين، فحمد الجهل وحمد البراءة والسذاجة فى أى من صورها، ووجد صورتها فى الطفل البرىء الساذج فأثنى واطنب.. والرجل البالغ الناضج شقى بذكر البالغين الناضجين ورضى النسيان ورضى الغفلة فى أى من صورها، ووجد صورتها فى الطفل الجاهل الغافل. فرضى وبارك.

أما الطفل فهو يشقى بجهله ، وهو يشقى بغفلته، انه يجاهد ما يجاهد، راقدا أو قاعدا أو قائما.. أو حابيا أو لاعبا، ليبرأ من جهله، وليخرج من غفلته.. انه فى ضباب يتحسس فيه كل يوم طريقه.. ليتعرف أرضه، ويتعود سبلها.

والضباب كثيف لا ينقشع الا على السنين، وبعدها يكون الطفل أبصر بما يرى واسمع لما يسمع، وأعرف بدنياه. وما وقع منها تحت قدمه وما ارتفع عنها، وهو فى كل هذا يبذل من عضله، ويبذل من عصبه، ويغالب ويناصب.

فلست لهذا أحسب أن للطفل من طفولته هناءة، إا ما يصوره خيال الرجال.

* * *

والطفل، فى طفولته على الجهل وعلى الغفلة، وعلى العجز، لابد له من راع.. ومن أجل هذا ترعاه أمه ويرعاه أبوه.. وهى رعاية يرعى مثلها الأحياء جميعا.. ومن الطير ما يخرج طفله من بيضه كامل العدة، كامل الجهاز، فهو لا يلبث ان يطير فيتزود لنفسه بنفسه من فضل الله، ولكن اكثر الطير يرعى ولده.. وأعانت الغريزة الوالدين على ما هما فيه.. فعلمتهما، من غير معلم، كيف

يصنعان العش، ليضعا فيه أطفالهما، وفى العش برعيانها حتى تشتد اجنحتها فتطير.

والحيوانات ، من ذات فقار وغير ذات فقار، ترعى أطفالها، وهى عاجزة، حتى تقدر طال زمان ذلك أو قصر، والانسان من اطول الحيوان زمان رعاية، لان طفله اعقد تركيبا، ومن أجل هذا كان أبطأ تشكلا وأطول تعدلا فأطول رعاية .

وأم الانسان ترعى طفلها، لا عن رغبة أو رهبة، ولكن عن غريزة.

والعشرة هى التى تزيد الألفة وتقوى الغريزة.. والأم تبكى طفلها إذا مات وليدا ولكنها ابكى من بعد عشرة وهى تبكى ولدها المكذوب عليها كبكاء ولدها.. غريزة الأب فى ذلك اضعف من غريزة الأم، وحبه للطفل وعطفه عليه وبكائه وراءه يكون أكثر من بعد عشرة وألفة.

وأطفال الحيوانات تعرف امهاتها، ولكن قل منها ما يعرف الآباء، أو يعرفه الآباء - ومن هذا القليل الانسان. ومن ذكور الانسان من يبذر بذوره كما يبذر الحيوان، ثم هو يجهل كجهل الحيوان، ثم هو ينعم بجهالته.

وتتصل معرفة الطفل بأمه وأبيه على الكبر، والى أرذل العمر.. وما يكون هذا فى حيوان ابدا.. ان القطة وشيكا ما تنسى قططها، والكلبة وشيكا ما تنسى اجراءها ، وتتقابل الوجوه فتتناكر، ويتخاصمان ويقتتلان على زاد الدنيا كما يفعل الغرباء ومن الناس من يقتدى بالحيوان فيخاصم أمه، ويخاصم آباه ويقاتلهما فيكون خصاما أشنع، وقتالا أبشع، لأنه لا يمكن أن يعتذر فيه، كما يعتذر للحيوان، بالنسيان.

* * *

وعطف الآباء على الابناء، اشد من عطف الابناء على الآباء.. ولو خير انسان بين موت أبيه أو موت ولده، وكان لابد من الخيار، لاختار موت أبيه أو موت أمه.

وهو يفعل ذلك بحكم الطبع، حكم الطبيعة التى تحرص على امتداد الحياة واتصال الوجود باستبقاء الولد الذى هو مقبل على الدنيا.

وقد رثى الشعراء آباءهم، ورثوا ابناءهم، فكان رثاء الابناء أطوع ومعانيه ألذع، رثى ابن الرومى أمه، فطفق يمدح، ثم هو يعتذر عن مدحه وعن إطنابه فيقول:

طوى الموت اسباب المحاباة بيننا .

فلست وإن أطنبت فيك بمتهم

ثم هو يرثى ولده فيتحرق كمن يتقلب على الجمر:

الأم لما أبدى عليك من الأسى..

وانى لاخفى منك أضعاف ما أبدى

محمد ما شيء توهم سلوة.

لقلبى الا زاد قلبى من الوجد

أرى اخويك الباقين كليهما .

يكونان للأحزان أورى من الزند اذا لعبا فى ملعب لك لذعا .

فؤادى يمثل النار عن غير ما قصد والأب والأم، قد تبتسم لهما الحياة زوجين اثنين، وتحلو ثم يذكران ما لهما من ولد، فتكون ذكراه علقما فى حلاوة العيش.

ويحيان الحياة وطول العمر من أجله، ويخشيان الموت كذلك من أجله.. ويريدان أن يؤمناه فى عيشه من بعد ذهابهما فيقتطعان من قوتهما ليرث.. وهذا حال في الناس قديم، عبر عنه اسحق ابن خلف عندما قال فى ابنته أميمة:

لولا أميمة لم أجزع من العدم .

ولم أقاس الدجى فى حندس الظلم

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى .

ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم تهوى حياتى واهوى موتها شفقا .

والموت اكرم نزال على الحرم .

وجاءت الشيوعية فعطلت الميراث، فصدمت بذلك من استطاع توريثا من أهل الدنيا القديمة، صدمته فى عاطفة قديمة، انضم عليها قلبه مذ كان آدم، تلك حب الولد والحرص على تأمينه - وهو من تأمين الحياة - ان لا ينقطع حبلها.

والساسة تعرف مكان الاطفال من قلوب أمهاتهم وقلوب آبائهم، فهم يذيعون دائما عن أعدائهم فى الحرب انهم يقتلون الاطفال والشيوخ، ويستحيون النساء.

وسواء صدقوا أو كذبوا ، فالغرض من ذكر الاطفال تأدى باثارة النفوس وتحريك الشجون.

* * *

فهذا ما عند الآباء للأبناء..

فماذا عند الأبناء للآباء؟

وسيبادر كثير من آباء هذا العصر الحاضر فيقولون: عندهم العقوق.. والعقوق ليس بجديد، ولا هو قد اختص بعصر دون عصر.

قال أمية بن أبي الصلت، الشاعر الجاهلي يخاطب ابنه:

غدوتك مولودا وعلتك يافعا .

تعل بما أدنى اليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت،

لشكواك الا ساهرا اتململ

فلما بلغت السن والغاية التى

اليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائى منك جبها وغلظة،

كأنك انت المنعم المتفضل .

والشعر فى عقوق الولد كثير، والقصص أكثر.

إنما ظهر العقوق فى هذا الزمان لما به من نقلة، وما به من تحول، وما به من تطور لمعنى الطاعة التى يدين بها ولد لوالد، وتغير لأساليب ومظاهر كانت ترمز للاحترام، فعدها هذا العصر رمزا للخضوع الذى كان سمة تلك العصور فى علاقات الناس

جميعا ، وما هو لهذا العصر بسمة. والخضوع لا يمكن أن يربط قلبين تجمعهما المحبة. إن الحب طليق يعاف القيد، ولو كان من ذهب.

اننا إذا استثنينا نفرا من شبابنا المرضى بنفوسهم وآخرين منهم قريبى التأثر، سريعى الانقياد، يستجيبون لكل داع ، ويبلسون فى كل لجام، لم نشك فى الجملة من أبناء هذا العصر عقوقا، ولم نشك منهم نقصا فى محبة.

وإذا لم تصدقنى، وإذا لم يصدقنى الشباب خاصة، فليفتش كل منهم فى قلبه، عن موضع أمه فيه، وموضع أبيه.

وليستعن بالذكريات والاحداث الماضيات والمفارح والمحازن الذاهبات، ثم يحدثنى بعد ذلك عن محبة يعوزها التمام لوالدة أو والد.

وكم من ولد شأ ع عنه العقوق، فلما آن الأوان فذهب الزمان بوالدة أو ذهب بوالد، لم يجد فى عينه من الدمع ما يكفى ليروى به القبر الذى هالوا عليه التراب. وكم من ولد عق، وما درى معنى العقوق.

حتى إذا خلع ثوب الشباب، فعرف وذكر، عذبه العرفان وتقلى بالذكرى، وود الزمان لو يعود، وتعود حتى أيامه السود.. وهيهات.

هذا ما أؤمن به *
النجاح فى الحياة .. حظ

صرخ صاحبى وهو يحدثنى فيقول :

- النجاح فى الحياة عمل واجتهاد لاشك فى هذا .

وكان فى صوته معنى التحدى، فى حين لم يكن هناك موضع للتحدى، والصوت الصارخ لايكون صداه إلا صوتا صارخا، واستعددت لأن اجيبه صراخا .. ولكنى قلت لنفسى : انظرى فى معنى مايقول أولا .. أنه يقول إن النجاح عمل واجتهاد وعندئذ وجدت استعدادا باغتا للصراخ، فصرخت فيه كما صرخ قلت:

- إن الحياة بخت وحظ .

قال صاحبى لاتفسد الولد .

قلت : أى ولد ؟

قال صبرا حتى أغلق الباب .

فلما أغلق الباب على ابنه حتى لايسمع ، عاد يتحدث من غير صراخ .. إن الجارة التى عناها، وأراد أن يسمعها قد أغلق دونها

* هلال - يونيه ١٩٥٦

الباب.. وإذ أمنا افساد النشىء الجديد عدنا فى حرية نتطارح الحديث .

قال : ما الذى أغضبك من كلمتى ؟

قلت : – قولك «لاشك فى هذا» إن من الخير أن لا تقول لشىء فى الدنيا لا أشك فى هذا . وأعلم أن اليقين درجات، وليس هذا الذى تقول فى أعلاها درجة .

وأخذ صاحبى يضرب لى الأمثال ممن أعرف ويعرف الناس، قلت: لصفاء المنطق نبدأ بغير الناس، ولو استطعت لبدأت بالحجر.

ومضت برهة قصيرة انتظر بعدها صاحبى أن أتحدث، فإذا بى أرجع عما قلت . قلت ؟:

– وحتى الحجر له حظوظ، فحجر يوضع فى أساس البيت، يقبر قبرا، ويمل ثقل ماعليه كله، ويحمله مدفونا ولا يراه أحد، وحجر يختتم به البناء، وقد يكون قصرا فيشرف من عل فى أبهى صورة، وهو لايحمل شيئا من البناء، ويظل عمره علي هذه الرفعة محمولا، وقطعة من الحجر الحر، صاغوها وصوروها ووضعوها على الأرفف فى الابهاء، تبرق وتزين، ثم أخت من حديد لاتنزع، ولهم من الناس الاغفال، ولهم عند من يفهم النظرة الراحمة، وليس

اقتل فى النظرات، عند الأنفس الحساسة من النظرة الراحمة .

قال صاحبى :

– تريد أن تقول إن قيم الناس فى الحياة ظواهر خادعة؟

قلت :

لا .. بل قيم غير عادلة، إنها قيم أبعد ماتكون من إنصاف وأحيانا هى قيم زائفة، أرأيت النجوم ليلة فى السماء ؟

قال صاحبى :

– نعم ، رأيت لامعها والخافت افتريد أن تقول أن هذه هى أيضا حظوظ؟

– قلت : بل أردت أن أقول أن النجوم فى التماعها درجات عشر وعشرون وهى تمثل قيم الناس فى هذه الحياة كما تظهر للناس. والتماع النجوم ظاهرى، يفعل فيه بعد النجم وقربه، ورتبوا النجوم من جديد، وفقا لالتماعها الحقيقى لو أنها بعدت عن هذه الأرض بعدا واحدا، فهل تعرف ماوجدوا ؟

قال صاحبى :

– ماذا وجدوا ؟

قلت :

- اختلط النظام كله، واختلف الترتيب، فتقدمت نجوم خافتة، وتراجعت نجوم لامعة رائعة باهرة، والشمش، ذلك النجم الألمع والاعتى، ذهبت فى مراتب النجوم الي الوراء، حيث خفوت النور وخمول الذكر .

قال صاحبى :

- فهل من سبيل لإعادة تقدير القيم بين الناس، كما أعيد تقدير القيم بين النجوم ؟

قلت :

- ليس فى هذه الدنيا، فالحكم في الدنيا للوامع الانس، ولهم القوة، ويقيت الآخرة، إن الأديان لو لم تأت بمعنى الحياة الآخرة لجاء به الإنسان، بحكم الأنصاف الذى لابد أن يستنجز للذين أصابهم فى هذه الدنيا أجحاف، وليعتدل الميزان من بعد اختلاله .

وسكت صاحبى، وسكت، كنا سكوتا والفكر فينا يعتمل، وأخيرا نطقت، قلت لصاحبى :

- قم فافتح الباب ..

فابتسم صاحبى وقال :

لا حاجة، فما أحسب أن الصبى لايزال هناك.

الحرية والاستبداد

الحصانة الدبلوماسية *
فى مطبخ سفير

كنا نتحدث فى حماية الجار ، وحفظ الدمار .

قال قائلنا : أنها عادة فى الناس قديمة . وجرى عليها الأحدثون الذى فيها من معان إنسانية كريمة .

وذكرنا العراق . ذكرناها فى الحرب العالمية هذه الثانية : ثار شعب العراق على ما به من احتلال أجنبى وتزعم الثورة رشيد عالى الكيلانى . وتكاثر عليه وعلى أشياعه المحتلون . فلما أنهزم طلب الملجأ . فوجده عند عاهل الجزيرة ، الملك عبد العزيز آل سعود .

وذكرنا سورية . وذكرنا زعيمها ، أديب الشيشكلى ، وقد كان تزعمها أعواما . وغلب على أمره ، فطلب الملجأ ، فوجده كذلك فى الجزيرة .

واليمن ذكرناه ، وذكرنا ثورتها القريبة الدامية . ولاجئين طلبوا الملجأ منها ، فوجدوه فى أكثر من أمة عربية .

---

* هلال - مارس ١٩٥٧

ومصر التجأ منها لاجئون فى قديم الزمان وحديثه ، إلى سوريا وإلى العراق . وإلى مصر التجأ لاجئون من العراق ومن سورية ولبنان ، ومن أمم المغرب العربى كذلك، وهذا زعيم المعارضة في تونس ، يحكم عليه هناك بالموت ، وهو مقيم في مصر ، رائحا عاديا ، ينعم بانفاس للحياة عزيزة على كل حى .

حماية الجار فى دم كل عربى

وتحدثنا فى حماية الجار ، وحفظ الدمار ، عند العرب خاصة، فوجدناهما يجريان فى دم كل عربى ، منذ آلاف السنين إلى اليوم . فى دم كل عربى لم يفسد رأسه الحساب، ولم تفسده التجارة ، وعلم الربح والخسارة ، فالعربى يحمى الجار ، ومن به استجار ، وهو فى سبيل ذلك ينفق من مال، وينفق من دم، ولا يبالى .

يكفى أن تصيح امرأة : يا آل تغلب، حتى تقوم تغلب كلها تحمى ذمارها ، وترد عارها . ولا تكاد تسألها ، اخطأ جاء ت هى به ، أم جاء به غيرها . .

قوم ، إذا الشر أبدى ناجذيه لهم .

طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم ، حين يندبهم .

فى النائبات ، على ما قال برهانا .

السموئل بن عاديا

وساقنا الحديث ، فيما ساق، إلى الرجل العربى الجاهلى القح، الذى يضرب به المثل فى الوفاء ، ذلك السموئل بن عاديا . كان امرؤ القيس أودع السموئل ابن عاديا دروعا . فجاءه الحارث بن ظالم ، عدو امرىء القيس، يطلب هذه الادرع . فأبى . وتحصن السموئل منه فى جبله . فما كان من الحارث إلا أن أخذ غلاما له ، ثم ناداه : أما أن تسلم الدروع وأما أن اقتل ابنك . فأبى . عندئذ ضرب الحارث الغلام بالسيف فشقه اثنين . فقال السموئل :

وفيت بأدرع الكندى انى

إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديا يوما بأن لا

تهدم يا سموئل ما بنيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا

وماء كلما شئت استقيت

وذكر الاعشى، الشاعر الجاهلى، هذه القصة ، فقال يخلدها : وما أحق قصص الوفاء النادرة بالتخليد .

كن كالسموئل إذ طاف الهمام به .

في جحفل كسواد الليل جرار

اذا سامه خطتي خيف

فقال له :

قل ما تشاء فإني سامع حار

فقال غدر، وثكل ، أنت بينهما .

فاختر ، وما فيهما حظ

لمختار

فشك غير طويل

ثم قال له :

اقتل اسيرك أني مانع جاري .

وكان معنا شاب في العشرين .

وسألناه فيما نحن فيه فلم يدر شيئاً . وكان جديراً بأن يدري لو أنه كان من جيل سلف . واسفنا إلا يتثقف هذا الجيل الحاضر بتلك الروائع الانسانية من أخبار الذاهبين .

الانسان انسان ، اينما كان

واستطردنا نتحدث

وانتقلنا من شرق إلى غرب. فعلمنا أن حماية الجار، وحفظ الجوار ، عادات في الناس قديمة ، في عجم كما في عرب. واتفقنا

على أن الانسان هو الانسان، حيثما كان ، يتسع قلبه للخير الكثير، وقد يتسع للشر الكثير ، وأن الخير على الانسان، على الفطرة ، وفى البيئة السالمة المسالمة ، هو الغالب .

ففى أوربا القديمة ، من بدء المسيحية فيها، إلى العصور الوسطى ، كان القوم يحمون الجار، ويدفعون عمن استجار . والقصور والمنازل كانت حمى . والكنائس كان يفر اليها كل فزع خائف ، فتهدىء من خوفه وفزعه . وفروا اليها من عدالة، وفروا إليها من ظلم ، فما لبثوا أن تخطوا اعتابها ، واقتحموا أبوابها، حتى صاروا فى حماها ، فى حمى بيوت هى بيوت الله .

وفى أوربا الحديثة ، تحسنت الادارات المدنية، وتقدمت الشرطة، وبنيت دور العدالة ، وآمن الناس بأن العدل بين الناس آخذ مجراه، فخفت الرغبة فى إجارة الخائف من جرم صنعه ، إلا من خاف فى سياسة . فبقى حق المتهمين السياسيين فى التجاء .

ومن أشهر اللاجئين السياسيين فى العصر الحديث أمبراطور المانيا، «ولهلم الثانى» . هزم الحلفاء عاهل الالمان هذا فى الحرب العالمية الأولى ، حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، فطلبوه أسير حرب . فهرب إلى هولنده ، فحمته وبقى فى حمايتها إلى أن مات . وكرموه . ولما مات كانت جنازته جنازة ملك .

معني للجوار جديد

وبانشاء نظام السفراء فى الدول ، وبين الدول، نشأ معنى للجوار الجديد . معنى للحصانة جديد، أسموه الحصانة الدبلوماسية . فالسفير الاجنبى فى داره ذو حصانة ، فلا تنطبق عليه أحكام البلاد التى يعيش فيها، على العموم ، فهو لا يتهم ، ولا تصدر ضده أحكام ، أنما ترجع الدولة التى هو فيها إلى دولته فى كل ذلك .

ودار السفير لها من الحصانة مثل ما للسفير . ويلجأ اللاجئون إلى دور السفارات فيحتمون .

ومن الامثلة الشهيرة القريبة ما حدث فى هنغاريا . فرئيس وزرائها ، «أمرىء ناجى» ، أعان ثوار بلاده، فوق ما وجب لمثله، وفى مثل ظروفه . وخاف العاقبة . فالتجأ إلى دار السفارة اليوغوسلافية هو وانصاره. واسرته وأسر أنصاره ، وظلوا بها فى مأمن إلى حين ، بينما كانت الدماء تجرى فى خارج الدار انهارا .

أشد الأمم حفظا للدمار

واشد الأمم تمسكا بالحصانة الدبلوماسية ، دول أمريكا الجنوبية والمكسيك . ولما كان لكل شىء سبب، فقد كان لهذا

التمسك الشديد أسباب، منها أن هذه الأمم هي من سلالات اسبانية برتغالية ، فهي لا تزال تحتفظ بما ورثت عن شرق وغرب من معاني للفروسية مأثورة . ومن هذه حماية الجار وحفظ الدمار. ومن تلك الاسباب ايضا مزاج مرهف ورثته كذلك عن أصولها اللاتينية والعربية، يتأثر بالشعر، ويتأثر بالعاطفة ، وكثيرا ما تجرى السياسة فيه عنفا ، فيكثر تغير الحكومات فيها، فحكومة تذهب وحكومة تحضر. وهنا نشأت الحاجة إلى حماية رجالات الحكومات الذاهبة ، فتأصل فيهم ذلك المبدأ القديم الذى يقول بحماية الساسة اللاجئين ، يحمونهم إذا دخلوا بلادهم، ويحمونهم حتى فى بلدهم هم إذا دخلوا السفارات .

وتصالحت هذه الأمم الأمريكية على هذا ، حقنا للدماء .... لدماء من هم فى الحكومة ، ولدماء من هم خارجون أو يخرجون عليها . وتصالحوا على ذلك طلبا للسلام .

فى المآسى ما يضحك

ولكن ، بما أنه لا تكاد تكون مأساة ، إلا تخللها ما يضحك . فقد كان لبعض هذه المآســى . وقد دامت مائة عام كاملة ، ما يضحك أيضا .

حدث هذا فى دولة سلفادور . طلبت الحكومة بعض خصومها لقيامهم بعمل عدته أجراما . فالتجأ هؤلاء الساسة إلى السفارة المكسيكية ، والمكسيك خاصة لها تقليد شديد معروف فى أمر حماية الجار ، ومن استجار . وضاق وزير خارجية سلفادور بالذى وقع . واصدر قرارا يفسر به معنى الحصانة الدبلوماسية . قال : أن الحماية الدبلوماسية لا تمتد إلى بيت السفير كله . وقضى بأن شخص السفير حصين . وكذلك حصين كل ما حوله من داره، ولكن إلى بعد ٨ أقدام من شخصه ، لا أكثر ، ودخل البوليس الدار ، دار السفارة، يطلب اللاجئين. وكان السفير بالمطبخ . فتكوكب اللاجئون حوله، فى حدود هذه الثمانى من الأقدام . وبقوا مع السفير ، فى هذا المطبخ مدة لا يجرأون على التحرك ، وبدا للسفير أن يستولى على حجرة الطعام . فاختط أن يدخل إليها من الردهة . وسار ، وسار من حوله اللاجئون الستة يتكوكبون ، ودائما فى حدود هذه الثمانى من الاقدام. ويمشى السفير المكسيكى الحصين، ومن حوله هذه الهالة الحصينة بالذى فيها من رجال، ويتقهقر أمامه ، وأمام هذه الهالة، البوليس السلفادورى .

وبلغوا حجرة المائدة، ونجح استيلاؤهم عليها . وكانت لا شك افسح من المطبخ، واروح عند الطعام . ويبقى اللاجئون مع السفير

هكذا ليل نهـــار ، حـــتى وصلت الحكومـــتـــان ، السلفـــادورية ، والمسكيكية ، إلى اتفاق . كان اتفاقا لم يخل بالتقليد القائم، فحفظ للجار أن يحتفظ بحق الجوار .

معنى السماحة من معانى الله

وهو معنى كريم رفيع من معانى الانسانية ، يتصل من جانب بالشرف، ومن جانب بالســــماحة . والدنيا ماتزال بخيـــر ما بقيت فيها معان للشرف جميلة، ومعان للسماحة والعفو هى أقرب إلى معنى الله .

مصرع الحرية *
فى القرن العشرين

قال صاحبى : « الحرية قانون الوجود» .

قالها بصوت عال ، فيه الثقة وفيه التوكيد، وفيه شئ قليل من الرغبة فى التأثير فى سامعيه . ونظر حواليه يتعرف آثر ذلك فيمن حوله ، فلم يجد جوا يعين على استطراد . ووقع فى نفسه أنه ربما غلا بعض الغلو ، ولكن كيف السبيل إلى التراجع . أنه استعد لأن يتراجع خطوة واحدة ، ولا شئ فوق الخطوة الواحدة . ولكن على من يتكئ فى التراجع، فالتراجع لابد له من تكأة . ونظر إلىّ متسائلا عله يجد عندى هذه التكأة . ورضيت أن أكونها ..

قلت : « فما أنت قائل إذا قلت لك أنه لا وجود للحرية فى قانون الوجود ، إلا بالقدر الذى يؤهلك لادراك ما أنت عليه من قيد، كالشئ الحلو تعطاه لتتذوقه ليدلك على ما كنت فيه من طعوم مالحة ؟» .

---

* هلال – يونيه ١٩٤٩

قال : « أو كالشئ الملح الذى تعطاه لتتذوقه ليدلك على ما كنت فيه من طعوم حلوة صارخة» . قلت : « لقد أحسنت يا عزيزى فى هذا الاحلال والابدال ، فقد أنزلت به القيد والحرية من حيث القدر منازل سوية . ولا أحسبك أردت ذلك . ولكن دعنى أقول لك أن القيد هو قانون الوجود ، وأن ما أملكه من نفسى ، وما تملكه من نفسك ، شئ قليل أذن لنا فيه الآذن لنتعرف من قليل الشئ أكثره، ولنجد فيه مثلا نضربه للمثل السائر : « وبضدها تتبين الأشياء » .

« إننا نملك الأرض ، نملك هذه الكرة ، ونقول أن الله خص بها الإنسان ، وأن الإنسان سلطانها . ولكن إلى أى مدى يمتد هذا السلطان . أنه لا يمتد إلى أكثر من سطح هذه الأرض . ولقد منعه أن يذهب تحت هذا السطح امتلاء الأرض . ولقد منعه أن يذهب فوق هذا السطح ارتباطه بالأرض ، بأربطة تفعل فيه ولا يراها . وهى تقيده ، غير مرئية ، أشد من قيد الحديد وهو مرئى . وقد يمدد الإنسان سلطانه ، ويدفع أمامه حدود هذه المملكة الرقيقة الضئيلة ، صاعدا فى السماء ، أو هابطا فى الأرض ، من سائلة وجامدة ، ولكن بالثمن يدفعه باهظا .

«وينظر من كرته القليلة ، فى ظلام الليل ، إلى السماء فيجد بدل الكرة كرات ، وبدل الدنيا دنى ، لاحصر لاعدادها ولا لأقدارها وأحجامها . ويود لو طار لها يتعرف ما بها ، وما بينها ، وما وراءها ، فيقعد به القيد الذى قيده بالأرض ، وتصب عليه نجوم الليل الرجوم ، وتصب عليه شمس النهار القيظ ، ويعصف به الريح ، وتتفتح عليه أبواب السماء بالمطر ، فلا يجد لنفسه ، فى قيده ، من كل هذا الا اختباء .

«فهذه قوانين الوجود يا عزيزى .. فأين الحرية فيها ؟» .

***

قال : « ما أردت الحرية فى الطبيعة الجامدة» .

قلت : « والطبيعة الحية يا عزيزى ، أين الحرية فيها ؟ .. أنك تأكل الطعام مريدا ، ثم تتعطل ارادتك بازدراده . أنه عندئذ يخرج عن طوقك ، فلا تكون لك حرية فيه . أنك لا تستطيع أن تسترد منه لقمة . وأنه ليجرى فيما يجرى فيه ، وليس لك عليه سلطان ، وأين يجرى ؟ أنه لا يجرى في المريخ ، ولا فى الصين ، ولا حتى فى الحارة المجاورة ، ولكن فى الصميم من هذا الشئ الذى لا ينازعك أحد فى امتلاكه أبدا ، ذلك جسمك . ولكنه يجرى على الرغم منك ،

وكيف يشاء هو لا ما تشاء أنت . فهذا مقدار الحرية التي لك ، أنت الحي ، في جسمك» .

قال : «بل أردت الحرية فيما بين الأحياء ».

قلت : «فأين حريتك في العيش إلى جانب السباع ، وأين حرية السباع في العيش إلى جانبك .. إن حريتها في أن تأكلك ، وأن حريتك في أن تقتلها . وإذا انتقلنا من مستوحش الحيوان إلى مستأنسه ، وجدنا حريتك إلى جانب الدجاجة والشاة في أن تقتلها وتأكلها . وهي حرية كاملة لك فيها ، يقابلها عبودية كاملة لها منك . والخيل والحمير تركبها ، ولا يخطر لك في بال أن تتحدث عن حرية الخيل والحمير. وإذا ركبك أنت راكب ، قلت ما أنا بحمار» .

***

قال صاحبي : «بل أردت الحرية ما بين الناس والناس» .

قلت : « أرأيت يا عزيزي كيف ضاق مجال الحرية في الوجود حتى حصرته في مجال ، من الوجود ، ضيق أشد ضيق . على أني مسايرك فيما زعمت أنه الحرية بين الناس والناس . فأين كان للناس ، وبين الناس ، حرية وكان اطمئنان ؟ أفي مصر القديمة ونحن نعرف كيف بنى قدماؤها الأهرام ومن بناها ؟ أم في عهد

الاغريق ، حيث كانت المدائن دولا ، والدول مدائن .. فقامت حرية هذه المدائن تناهض حرية الفرد فيها فتنهض دونها ؟ لقد سخروا الفرد فى سبيل الدولة ، فلم يكن للفرد اعتبار ، ولم يكن له بجانب كيان الدولة كيان .

«وجاءت روما فجعلت السيادة فى القليل من أهلها ، وجعلت أكثر أهلها العبيد .

«وجاءت النصرانية فدعت إلى حرية الفرد فى سبيل ربه دعوة لم تصمد للزمان طويلا ، ثم شغلت الكنائس بحرياتها تدفع عنها من تحدثه نفسه من رجال الدنيا أن ينال منها .

«وجاء الإسلام بالحرية فى حدود ما سن الله ، ولكن الخلافة لم تلبث أن انقلبت «ملكا عضوضا» .

«ثم جاءت من بعد ذلك دهور لم يكن للشعوب فيها ذكر ولم يكن شأن . كان الشأن كل الشأن للملوك وحدهم ، وكان للأمراء . وكان الاقطاع هو السائد ، فى ظلال ملوك قل منهم من كان ذا سلطان نافذ .. فتلك هى القرون التى سمتها أوربا بالوسطى .

«وجاء عصر النهضة فى القرن الخامس عشر ، وجاء من بعد عهد النهضة عهد الثورة على أهل الدين والمطالبة بالإصلاح . وجاء

القرن السادس عشر فأخذت الكنيسة تنشق ، وأخذ سلطانها يتداعى ، وبتداعيها ظهر حق الفرد فى عقيدته ، وحريته فى تكييف علاقة ما بينه وبين الله . وبتداعى الامبراطورية الكنسية نشأت الدول المدنية ، واتسعت ، واستقل سلطانها ، وقوى وتركز فى ملوكها . وذهب الاقطاع وذهب امراؤه . وفى ظلال عروض العروش توحدت الأمم وترابطت ، وبانت القومية المتجانسة واتضح معناها . وتهيأ المسرح لبروز معنى فى الحرية جديد .. تلك الحرية السياسية .

«وجاءت المطابع حول هذا العصر ، وانتشرت ، وانتشرت بها المعرفة وانتشرت الآراء . وأخذت تؤثر فى الناس تأثيرا عظيما . وبها ظهر معنى من معانى الحرية جديد . ذلك حرية الرأى ، فى دين وفى سياسة ، مكتوبا وغير مكتوب .

«وجاء من بعد ذلك عصر الفتوحات .. فتوحات أوربا للشرق ، بعيده والقريب . وأثرى الغرب من الشرق اثراء كبيرا . فأطلت الرأسمالية ، بمعناها الحديث ، بقرنيها فى أوربا أول اطلال . ومع الرأسمالية ظهر معنى من معانى الحرية جديد . ذلك معنى الحرية الفردية الكاملة .. لا فى دين ، ولا فى سياسة ، ولا فى رأى ، ولكن

فى هذه جميعا، مضافا إليه حريته فى المال ، يبدأه ، وينشئه ، ويجمع منه الفرد ما جمع قارون».

***

قال صاحبى : «فهذه هى الحرية فى أوسع معانيها» .

قلت : « نعم .. هى حرية الفرد فى أوسع معانيها ؛ ولكنها ليست حرية الفرد فى أجمل معانيها . فالناس مالبثوا أن أدركوا أن هذه الحرية لا تتفق مع العدالة والمساواة . فقد دلت التجارب على أن الناس ، مهما خلصت نياتهم ، وصدقت عزائمهم ، ليسوا فى القدرة على جمع المال بسواء ، وأن بينهم فى ذلك فروقا شاسعة . ودلت التجارب أن المال يجمعه جامعه ، فيزيده ، ثم يزيده ، ثم يبلغ المال حدا يتزايد هو عنده من نفسه فيصبح كالسرطان الذى ليس الى وقفه سبيل ، ويصبح غولا مخوفا يفتك بالناس ، فلا يكاد يصمد له أحد فى سبيل . فتصبح الحرية التى أستنها الناس أول الأمر استبدادا ، وتصبح استعبادا . واغتبط أصحاب هذا الثراء المستبد فاستنوا نظرية فى الحكم ، مدارها على أن الحكومة لا عمل لها إلا صيانة الامن وحفظ النظام . فهى لا تتدخل إلا حيث يذهب الامن ويختل النظام ، ثم هى تدع الناس

كموج البحر يضرب بعضه بعضا ، بحسبان أن هذه ظاهرة طبيعية أرادها الله .. وما أراده الله لا يضيق به إنسان .

***

«وجاء القرن التاسع عشر بالصناعة إلى أوربا . وحدث الانقلاب المعهود الذى سموه بالصناعي ، فعمرت به المدن واقفر الريف . والثروة التى كانت تعد بالألوف صارت تعد بالملايين . فزاد أصحابها اقتناعا بالحرية التى وجبت أن تكون وبتدخل الحكومة الذى وجب ألا يكون . وجاءت نظرية النشوء والارتقاء ، ونظرية البقاء للأصلح ، التى صاغ لفظها واطلق عنانها «دارون» فى القرن الماضى ، فاتخذ منها القوم حجة يدعمون بها ما إليه يهدفون . أن البقاء للأصلح . فليصطرع الناس ، فلا يبقى منهم إلا جدير ببقاء .

«ولكن أسف الفلاسفة ، وأسف أولو الرأى ، على أن الجديرين بالبقاء هم قلة نادرة ، وأن الجديرين بالفناء هم الكثرة العارمة . وأن صراع ذى المال لمن لا مال له صراع لا كفاء ، فيه ، إنه صراع الاعزل لمن سبق إلى سلاح . وتلك «الحرية» التى طلبها الناس على القرون ، وشاقت كل فاقد للحرية محزون ، فاحت منها

لأول مرة في التاريخ رائحة لايحبها الناس .. ووصفها «سبنسر» فقال : « أنها الفوضى» .

***

«وجاء القرن العشرون ، قرننا هذا الحاضر .. فقامت القيامة على الحرية ، تلك التي استنسرت ، وقام الناس يقصون أجنحتها وينزعون مخالبها . وقالوا الحرية هي التي يكون فيها كل الناس أحرارا ويكونون ، على قدر الامكان ، سواسية . والحكومات التي قيل في القرن الماضي أن عملها لا يعدو عمل الجندي وعمل الخفير، صار لها أصبع في كل فطير . وتدخلت الحكومات جميعا تحد من الحريات في كل مظهر من مظاهرها . حتى حق الفرد في الكسب تدخلت الحكومات تقول لصاحبه : « لقد كسبت فوق ماوجب» . حتى حق الفرد في القول تتدخل الحكومات تقول له : « لقد قلت قولا شططا» . حتى حق الفرد في الزواج تدخلت بعض الحكومات فيه تقول لصاحبه : « آذن لك في هذا ولا آذن في هذا» .

«واستوت الحكومات في هذا التدخل ، من أهل اليمين وأهل اليسار .. ولكن درجات .

«والصراع القائم اليوم بين شرق الأرض وغربها ، ليس صراعا على الحرية .. فالكل مجمعون على ضرورة وضعها وراء قضبان من حديد ، ولكن الخلاف على مصيرها من بعد ذلك . فأهل اليسار يريدون أن يقتلوها بالسم قتلة عاجلة . وأهل اليمين يريدون أن يقتلوها ولكن مصابرة ومطاولة» .

***

قال صاحبى : « فماذا بعد ذلك» .

قلت : « بعد ذلك ينشأ مجتمع إنسانى تكون القوانين أظهر ما فيه . مجتمع مقيد بألف رباط ورباط . مجتمع ، يدور على القيد ، كما تدور الآلات . مجتمع ككل أشياء هذا الوجود ، تدور على سنن ليست من خلقها ، وتدور وهى لا تعلم كيف تدور، أو لماذا تدور» .

قال صاحبى : « والنتيجة ؟» .

قلت : « أن تؤمن معى بأن الحرية ليست من قانون الوجود ، وأنها ما كانت ، وأنها سوف لا تكون» .

أخذت اجازة من نفسي *

برئت من جراحتي في الأول من يوليو، وخرجت من بيت التمريض في المدينة لأذهب الى داري في المدينة نفسها، لاتعود على الحياة، وتتعود رجلاي على السير من بعد ما فقدت عادة السير واحدا من بعد ما فقدت عادة السير واحدا وعشرين يوما.

كان هذا في البلد الكبير، مانشستر على بعد ما يقرب من ثلاثة آلاف ميل من بلدي وأهلي.. وكان منذ ربع قرن من الزمان.

وكنت قبل الجراحة فرغت من واجبات في الجامعة ثقيلة.. واجتمع عليَّ هم الكد في البحث، وهم الجرج على مرض، وكنت على شفا جرف من الحياة، فثبتني عنده فراغ قلبي من الحياة، ووجدت فراغ القلوب من الحياة، فوق ذهابه بالخوف ممتعا ووجدته شيئا جديدا ما كان يأتيني على الصحة، فأمتعتني منه لذة الجديد .

وأخذت ادبر اجازة طويلة، فقلت اطلبها حيث يفرغ القلب من الحياة..

---

* هلال - يوليو ١٩٥٠

ودخلت ربة البيت على تستزيدنى وضوحا.. قلت نعم، اريدها اجازة فيها لاشك حياة، ولكن فيها ايضا غفلة القلب عن الحياة.. وكانت امرأة شيخة، وكان عودى لايزال فيه رطابة الصبا، فابتسمت وقالت: «انك انما تريد اجازة من نفسك قلت: «نعم، نعم، هى هذه.. انها اجازة من نفسى فأين أجدها؟».

واطعتها ، فأعلنت عن مكان في الريف، واخترته فى «ويلز»، وقلت لا ابالى على اى بعد من العواصم كان واى مكان موحش اتفق.

وجاءنى عشرون جوابا.. وفتحت الخريطة ابحث فيها عما جاءنى من مواقع.. واخترت مكانا ظننت ان المرء ينسى فيه المدينة، وقد ينسى الحياة، وقد يعالج أن ينسى نفسه فينجح.

وصفر القطار يطوى الارض طيا .. ومن القطار السريع انتقلت الى آخر بطىء، وأخذ هذا يسير بصوت مذبوح، ونفس مقطوع، بين نجاد، وبين وهاد، وخلته من كثرة وقوفه يقف عند كل باب..

وأخيرا صرخ الصارخ باسم الغاية التى طلبت فهرولت ونزلت.

كانت قرية صغيرة..

ولكنه لم يكن كفانى أن انزل فى قرية.

وخرجت الى الطريق أطلب صاحبى .. نعم هو ذاك بعربته وحصانه، وفى جيبه عند صدره منديله الاحمر، كان المنديل غير العربة والحصان، دلالتى على صاحبى . أما دلالته عليه فوجه الغريب فى حيث لا يمكن أن تدب الرجل كل يوم بغريب.

وأقبل علىَّ وأقبلت.. وبقيت الفتاة حيث هى من العربة.

وعرفنى بها فسلمت فى أدب، وركبت.

كانت عربة ذات عجلتين ، تلك التى قد تعرف فى مصر بالدوكار.

وكان زى صاحبى زيين الزى الاعلى زى مدينة، والزى الاسفل زى ريف، والتف على ساقيه طزلك. وأما أخته فكانت فى زى حريرى بسيط، ينفع للمدينة وينفع للريف. وحملت فى حجرها رباطا ضم ما استبضعته من القرية .

وسار الدوكار مسيرا طويلا، مر فى جفاف ومر فى بلل، ومع البلل الوحل .. وانتقلنا أخيراً من عام الطريق الى مخصوصه . نعم ، انها المزرعة التى اليها هدفنا .

وكان عند مدخلها رجل، ففتحه ومرقنا صعودا الى حيث الدار.. ومررنا باسطبل الخيل ورأيتها ضخاما.. ورأيت الاوز

يسبح فى الماء.. وسمعت قأقأة الدجاج فعلمت أنها تبيض.. وهبت نسائم تنشقتها، والوقت صاح ضاح، فعرفت مما حملته من انفاس انه الريف .. وكنت أعرف بها أنه الريف والعين مغمضة.

وسمعت سيدة الدار وقع الحافر فخرجت تستقبل ونادت زوجها فخرج معها، وخرجت ابنة أخرى، ولكنها لم تتقدم الى غاية الشوط.

* * *

كان فى الأسرة وفى أفرادها الخمسة، لاشك شوق الى رؤية «ابن فرعون» هذا القادم ليشركهم فى عيشهم شهراً.

ورحبوا بى كما يرحب أهل الريف.. وكما لا يستطيع أن يرحب غير أهل الريف.. وفى الريف يلتقى الانسان بالانسان فلا يعرف الا انه انسان، وكفى بالانسانية رباطا.. وفى الريف البعيد تظهر الطبيعة عارية، وتتعرى أصولها، ويتقشر عن الحياة زيفها، فلا يبين الا الخير، لاسيما والطبيعة جيدة خيرة، وكذلك هو الريف فى تلك البلاد، وكذلك كان الريف فى تلك البقعة من الأرض.

وخشيت في هذه الصحبة الجميلة أن اشغل بنفسي باشتغالي بها، وانا انما دبرت اجازة من «نفسي».. ولكن تدخلت الاقدار تعين.. فقد كان موعد دخولي الى المزرعة، موعد خروج أكثرها عنها، يطلبون مثل ما طلبت من اجازة.. وطلبوها في المدينة، واقترن النقيضان فتعارضا.. رجل يضيق بالمدينة فينجو إلى الريف، ورجل وأهله يضيقون بالريف فينجون الى المدينة.

وبقيت الأم والخادمة.

وعشت على الهدوء عيشة أبعد ما تكون عن الحياة ومع هذا أمتع ما تكون بالحياة.

قطعت ما بيني وبين الناس.. فالخطابات تركت أمراً بانها لا تلاحقني - واصحابي خبأت عنهم عنواني، والصحف لم اطلبها، ولم ابال بالدنيا اتنتهي غدا أم لا تنتهي أبدا، والزمان لم اسأل عنه، ولا حملت له ساعة - ولم تكن في المزرعة ساعة تحملها حائط، ولم يكن بجوارها كنيسة تدق، فحمدت الله. وتركت الطبيعة أن تنبهني، وتركت لها أن ترقدني وان توقظني.

والطعام لم اطلبه الا ان يساق اليّ أو ادعى اليه.

وصحبتي كانت الابقار.. والابقار هناك تحلب ولا تعمل وأحمل اليها طعامها في أوانه ، والشمس دليلي، فتقبل على بأعين نجلاء حالمة، بها غفلة عن الحياة، وتعلمت أن في البقر فهما وان فيهن ذكاء، وأخرج بهن الى المرعى، واتقدم ويتبعن . ويطيب لهن النوم في العراء ليلا، وهو ليل قصير.. ويطيب لي أن أمر بهن وهن في ضياء القمر رقودا. والخيل نشأت بيني وبينهن علائق اسرع مما تنشأ بين الناس .. وتكلمت وعز عليها النطق.. فهمهمت ففهمت .

والدجاج والأوز، تشترى صحبتها بحب مع قمح أو شيء من خبز، تماما كما تشترى صحبة الناس - كانت تقبل على كلما رأتني ، لأنى أنا عندها «الحب» وأنا «الخبز» ، وانا الطعام والسقاء.

وارقد على الحشيش الاخضر وقد نبتت فيه عيون صفراء تحيط بها كالجفون وريقات بيضاء، هي زهيرات تبقع بها الحقل - واقطف الواحدة وانظر ما فيها من حسن ولون واسف على جمال أرخصه فيها انها تنبت في كل مكان واسيجه الحقل كان لي عندها وقوف وفيها تأمل.. وأهزها فيطير عنها فراشها.

وما كنت فطنت اليه.. ويبسط أجنحته فتتراءى ما بين أصفر وأسود، وأحمر وأغبر، وأبيض وأخضر، فى تناسق بينها ولا تنافر فيه، هو غاية ما يرقى اليه الذوق.

وأسائل نفسى: «أكان هذا التناسق بين الألوان ثم كان الذوق ، أم كان الذوق فوافق هذا التناسق؟».. وأقضى بان الطبيعة لابد علمت الانسان، فهو عنها يأخذ ومنها يستوحى.

* * *

وتدعونى السيدة الطيبة إلى العشاء، وما غربت الشمس.

ولكنها تقول انه الليل على الرغم من الشمس، وانه الرقاد على الرغم منها، فهى شمس صيف لا تكاد القمر ترقد فى تلك الخطوط العليا من الارض.. وأين العشاء؟ انه فى المطبخ.. انه المطبخ والمائدة.

وأجلس بعد العشاء.. وتجلس، وتجلس الخادمة.. ويقبع الكلب.. وتريد أن تسمعنا الاخبار، وكانت الاذاعة شيئا حديثا فلا اقبل الاخبار ولكنى أقبل الموسيقى. إن الاخبار تصلنى بما وددت أن أقطع.

واسمع الموسيقى مطربة رخيمة ولا آبه لقائلها، لانى فى احضان هذه الطبيعة، أحببت أن أحس النغم بنبت كما ينبت زهر الحقل، وفراش السياج، من حيث لا يفطن الناس.

وتزورنى الجيران، فأجد الانس وأجد الطيبة، واجد الكرم، وأجد البشاشة والهشاشة على الطبع البسيط وتسمعهم يتحدثون عن أنفسهم ، ولا تسمعنى اتحدث عن نفسى، وانما اتحدث عنهم.

وتريد السيدة أن تستبضع من القرية فتأخذنى معها، ونركب اليها.. واتركها تطلب بضاعتها واسوق العربة حتى تنتهى وأعود.. ولم يكن بى عهد بالأفراس وسياقتها.

ويطيع الفرس أحيانا ويعصى.

وتعلمت انه أطوع للحلوى منه للجام، فاشتريت له منها نصيبا فأطاع.. ويطيع ما بقى عنده مذاقها.. وما بقى عنده ذكراها.

ويعود الى العصيان فأعود الى الحلوى .

وهكذا قضيت أكثر الشهر وأنا لا أدرى سبته من أحده، ولا أكاد أدرى عصره من فجره ، وغفلت عن نفسى فلم اذكر منها ماضيا، ولم أذكر لها مستقبلا.. وعشت كما عاشت تلك

الصفصافة الكبيرة فى أوسط ذلك الحقل، تعيش ولا تبالى العيش، وتحس احساسا مبهما بالشمس وهى تطلع، وبالشمس وهى تغيب، ولا يعكر عليها صفو الحياة شىء .

إن أكثر ما يعكر على الانسان صفو الحياة، تلك اللفتة التى يلتفتها المرء الى الوراء الى الأمس،. ليذكر أو امتداده العنق لتنظر عينه الى امام.. الى الغد فيأمل انه ليس فى اجازة محل لذكر، أو موضع لا مل. إن الرجل فى اجازته .

يجب أن يتركز على حاضره ، يجب ان يأخذ اجازة من «نفسه» من ماضيها، ومن مستقبلها وان لا يعنى بغير الحاضر.. يجب أن يحزم فى حقيبته ما شاء، الا الهم، هما سلف أو هما يستقبل.

* * *

وقلت: قضيت أكثر الشهر..

وتسألنى عن أقله.

ففى هذا القليل عاد الغائبون بل عادت الغائبات. واجتمع شمل الأسرة.. وزاد النهار بهجة، وزادت الليالى ، وخرجوا بى، بل خرجن فى تلك النواحى الساكنة، الى حيث يطيب اللهو،

وتسطع الانوار، ويسيطر النغم، وتستدفأ النفس فتتحرك بالحياة في مكامنها.

فلما استيقظت نفسي أكثر مما قدرت لها، وأخذت تعنى بالحاضر أكثر مما وجب لها وكاد يكون لها هم بحاضرها اشغل من هم بماضيها وهم بمستقبلها تذكرت قول الشاعر:

النجاء النجاء من أرض نجد.

قبل أن يعلق الفؤاد بوجد

إن هذا الثرى لي لينبت شوقا.

في حشى ميت اللبنات صلد

فقلت لنفسي: «نعم، النجاء.. النجاء!».

وما أصبح الغد حتى كان الدوكار يحملني إلى القطار.. ومن القطار البطيء الى السريع، وعدت الى غمرة المدينة وغمرة الحياة، أغالب وأناصل.. ولا أزال.

ثورة فى حديقة الحيوانات *

قلت لصاحبى: «أقصص علىَّ قصة القوم الذين ضاقوا بالعبودية، فلما كسروا القيد وخرجوا الى باحات الحرية، لم يجدوا إلا شرا».

قال صاحبى «نعم أنها أقصوصة من أعجب الاقاصيص وقعت حوادثها فى حديقة حيوان».

وتدخل الحديقة فما ايسر ما تقودك قدماك الى حيث يوجد أقرب الحيوانات شبها بالانسان.

وستقول انه القرد.. وهو القرد حقا. ولكنه اشبه القرود بى وبك .. ذلك الشمبنزى.

جلس هذا القرد فى قفصه ذلك اليوم، وحوله جمع من المتفرجين يحادثونه، ولكنه مشغول عنهم يفلى جسمه. فلعله البرغوت أو لعله ما هو شر.. ويكف عن التفلية فيرمى بنظره بعيدا مقتحما به من تجمع من الناس حول القضبان.

---

* هلال - أغسطس ١٩٥٠

الى الشجر البعيد العالى، وقد لون الخريف أوراقه فأخذت.. تتساقط وقذف اليه صبى بقرن من فول.. ذلك الذى يعرف بالسودانى فأشاح القرد بوجهه عن القرن احتقارا له.. ولو أن الصبى رمى اليه بموزة ما أشاح، لا لجوع فيه، ولكن لأن الموز كان ينسجم مع الشجر البعيد العالى ومع أحلام حلمها ذلك اليوم أثارها هذا الشجر البعيد العالى، تتصل بموطنه الاول من الغاب الافريقى.

وتمر عليه بكل ساعة تمر من النهار طائفة من الناس جديدة.

وتراه الأطفال فتصيح. «انظرى يا اماه هذا القرد الغريب».

وتسمع صبيا آخر اكبر من هذا يصيح: «ما أقرب الشبه بينه وبيننا».. وتسمع آخر يقرأ اللوحة المعلقة على قفصه، ويقرأها عاليا:

شمبنزى

بان ساتيروس

موطنه أواسط افريقيا

وهذا الا نموذج أبن ثلاث سنوات .

وهذا القرد ، على صمته هذا الصباح واسترساله فى أحلامه، كان كثيرا ما يستيقظ منها، فيثب الوثبة تليها الوثبة، ويثب بديه أحيانا.. ويثب برجلية أحيانا ويداه قد تدلتا الى جانبيه كأنهما ليسا منه.. ويبلغ غايته فيدق أنفه بكفه، فتضحك الاطفال عاليا.

ودقت الساعة الثانية فجاء الحارس يسعى، يحمل طعاما، ومفاتيحه تصلصل الى جانبه وفتح باب القفص ووضع على أرضه وعاء به غذاء، ما كاد يراه القرد حتى صات فرحا، واحتوى الوعاء بطاطة مسلوقة ، فأقبل عليها القرد يقشرها فى دقة، ثم يلتهم منها ما قشر.

وجاء الليل وأظلمت الحديقة وفرغت من زوارها، وقبع القرد فى ركن من حظيرته فيه قش كثير..

وعاد الى أحلامه.. وتذكر الغاب البعيد، فى اتساعه وامتلائه وفى شجره وفى ثمره، ومنه الحلو ومنه الحاذق، وكل فى اللسان يطيب.. وتمنى لو يعود الى وثباته الطليقة، من فرع فى الشجرة الى فرع ومن شجرة الى اختها فاختها، فلا تعوقه قضبان ولا ترشقه للناس انظار.

تمنى وصبر لعل الفرصة تؤاتى .

وانصت القرد الى الفيل فسمعه يدبب بأرجله العظيمة دبيب الضجر في محبسه الصغير.. وانصت الى جاموس البحر وهو يرفس بقدمه ماء تلك الحفرة القليلة التى سموها بحيرة، يرفسها احتقارا لها وغضبا على من حفروها.. وانصت الى الثعالب وهى تصيح، والى الذئاب وهى تعوى وكل ضجر بحاله.

والحق انه لم يكن بهذه الحديقة من الحيوانات الا غاضب على الاسر، ضائق بحظه من الحياة.

اشتكى الاسد، واشتكى النمر واشتكى الضبع، كل اشتكى الا جديا كان يقضي يومه يقرض حشيش الأرض من تحت رجليه، وينظر اليك اذا وقفت عنده بعين مبهمة النظر لا تكاد تدرك شيئا.

وحلم القرد ما حلم، ثم جاءه التعب فنام.

واستيقظ فى الصباح التالى.. وكان اليوم يوم راحة.

مضى أكثر النهار.. ثم جاء الحارس على عادته يوزع الطعام الاخير، تسبقه الى الاسماع جلجلة مفاتيحه.. وفتح القفص، ورمى بالطعام فى سرعة، ثم أغلق الباب.. وسقط منه على الارض شيء فانحنى ليناله.. ثم مضى.. وغفل عن أن يأخذ المفاتيح معه. وكان هذا القرد آخر من زار من الحيوان.

وغابت الشمس ودخل الليل.

وسكن أهل الحديقة، الا عواء ذئب خافت يأتي من بعيد - وانتصف الليل فقام القرد ففتح الباب .

لقد كان كثيرا ما تمنى.. وقد جاءته هذه الليلة بما تمنى.

وذهب توا الى جيرانه القردة.

فما سمعوا صيحته الخافتة حتى استيقظوا وفتح عليهم أقفاصهم فتصايحوا فرحا، ورفعوا بأذنابهم، فطلب اليهم الصمت، فصمتوا وما خرجوا من أقفاصهم، وأخذوا ينظرون اليها من خارج القضبان حتى عاودهم الفرح فالصياح، ثم أنذرهم فسكنوا.

وجرى القرد الى الفيل فأدار المفتاح الاعظم في غلقه.. ودفع الفيل الباب بخرطومه وخرج.

ولما جاء دور الاسد خرج في زهو شديد.. أما النمر فانطلق انطلاق السهم وهو يقول: «لقد آن الأوان».. وأما الضبع فخرج ووجهه الى الأرض، حتى كلمة الشكر لم يؤدها.

تحرر الكل من محابسهم، فلم يبق الا الخروج من الحديقة.

وتقدم القرد الى بابها، وأخذ ينظر ويتسمع فلما اطمأن على أن كل انسان غافل، اشار اليهم أن يتقدموا ففعلوا، ومشوا على أطراف أصابعهم ما بقي منها، حتى لا يحس بهم احد، وخرجوا الى الحقل، ومن بعد الحقل بلغوا الغابة الصغيرة التي بعده والقرد قائدهم.

ولما بلغوا من الغابة أوسطها..

جلسوا في اكثفها، وكان الظلام حالكا لولا نور القمر الذى نفذ اليهم من بين الغصون.. وكانوا بما اصابوا من حرية مخمورين.

* * *

وجلسوا في دائرة.. ودارت الزرافة برأسها العالى فوق رقبتها الطويلة.. دارت في هذا الحشد تتفحصه.. ثم قالت: «ما أطيب الزمان».

وقال جاموس البحر بصوت يتهدج من التأثر: «ألا تدركون أن هذه هي أول مرة نجتمع فيها معشر الحيوان على سلام؟».

ونظر كل إلى جاره في دهشة من هذه الحقيقة التى كانت فاتتهم .

وقال حمار الوحش: «حقا أن هذا لعجيب اننا بهذا نصنع حدثا جديدا في التاريخ.. إن هذا يرينا كم يصنع الموقف الواحد تقفه الجماعة يدا واحدة».

لكن غزالا كان يجلس الى جانب النمر لم يكد يسمع كل هذا حتى اضطرب واخذ يذرع الارض روحة وجيئة.. وفطن النمر اليه..

فراح يبتسم لهذه الحركة.. وكشفت ابتسامته عن انياب له حداد، وقال للغزال «من أى شيء تخاف يا عزيزى.. أتحسب أن أحدا سيأكلك؟».

وما لبث القرد ان صعد الى عنق الزرافة فاتخذ منه منبرا قال: «أظن أن هذا أحسن وقت لانتخاب لجنة ترعى صوالحنا.. وتعمل على الابقاء على تحررنا».

قال الذئب يخاطب الثعلب.

تحرر ماذا يعنى صاحبك بالتحرر؟».

فأجاب الثعلب: انه طبعا يعنى اننا الآن مواطنون أحرار ولنا صوت فى الانتخاب.. واختصارا هى الديمقراطية».

ودلف الضبع الى النمر، وتبعه ابن آوى.. وعقد الثلاثة اجتماعا .

وعندئذ زأر الاسد زأرته المخيفة، وصاح فيهم: «أنا ملك السباع، ومن أجل ذلك أصعد العرش فاحتل منه مكانى، فأنا من اليوم ملككم أجمعين».

عندئذ تقدم النمر وهو يبصبص بذنبه، ومن ورائه الضبع، ومن وراء هذا ابن آوى.. فلما بلغ مكان الأسد صاح فيه: «أنت ملك!

إذا جاز هذا فى الامس فما هو بجائز اليوم فاليوم أنا الدكتاتور»
وحاكمكم أنا اليوم أجمعين!».

عندئذ صاح الضبع وصاح ابن آوى، صاحا معا: «حيوا الدكتاتور! حيوا الزعيم».

فصاح القرد بأعلى صوته:

ولكنى أنا الذى حررتكم فأنا أحق بأن أكون رئيس جمهوريتكم.

فزمجر النمر: «صه أيها القرد!

أن يقول شيئا.. ولكنه رأى وجه النمر الاربد.. ومن حوله وجه الضبع ووجه ابن آوى وكلها تنذر بالشر، فرأى الحكمة فى السكوت

* * *

قال النمر: والآن نأخذ الأصوات على ما اقترحت وعلى كل أن يجيب بنعم».

وساد الجمع السكون.. ثم حدثت حركة تدل على قلق ونظروا فاذا بالجدى يقوم يتحدث فى حدة فيذكر شيئا على الاجراءات الدستورية ولكن نظرة رشقه بها النمر أضاعت صوابه، وحبست لسانه، فما أتم مقاله.

قال النمر: «إذاً فلنبدأ بأخذ الأصوات».

قال الضبع بصوت جهير.. «أنا موافق» وجوابى عن هذا الأمر نعم نعم».

وقال ابن آوى: «نعم».

وقام الدب، وسعل سعلة يخلى بها حلقه، وتهيأ للكلام.. ثم تردد واكتفى عن نعم بهزة من رأسه.

وتبع سائر الحيوانات مستجيبين .

عندئذ صاح النمر: «أين صوت القرد؟».

فأجاب القرد على عجل بنعم، وهو مختف وراء عنق الزرافة جميل .. انه انتخاب باجماع».

واجتمع على النمر الضبع وابن آوى، وتسار الثلاثة ثم صاح النمر فى هذا الحشد.. «والآن سوف ادخل النظام فى هذه الفوضى.. ولأبدأ بالجدى.. فتقدم الىَّ أيها الجدى».

فقال الجدى وهو يرتجف حتى اهتزت لحيته: «أنا؟».

قال النمر: «نعم أنت».

وتقدم الجدى على خوف والانظار ترمقه فلما توسط الجمع قال النمر: «إن هذا المخلوق القذر عدو الدولة».

فنظرت الحيوانات الى الجدى، ثم نظر بعضها الى بعض يتهامسون.فزمجر النمر: «انظروا اليه» انظروا الى هذا الوجه القبيح، وهذه اللحية القذرة التى يحملها هذا الوجه، وهذه الرائحة الكريهة التى تفرزها هذه الجيفة.. انه نقطة سوداء فى بياض هذه الدولة.

وأراد الجدى أن ينطق وهو يرتجف.. قال: «ولكن...»

فبادره النمر بالقول: «اسكت يا خاسر.. اننا معشر الاكاسر قضينا الاجيال نحمل المدنية من جيل الى جيل.. أما أنت أيها القذر..

فماذا صنعت.. وماذا صنع قبيلك الا انه دنس الاجناس الطاهرة، وسود النطف البيضاء الزاهرة.. والآن أخرج أيها التعس عنا فقد نفيناك نفيا مؤبدا».

ونظر الجدى الى من حوله فوجد عيونا قاسية، فما لبث أن تسلل وخرج الى الغاب، وابتعد.

فقال النمر: والآن فلنسر معا الى العلا، ولنحقق ما أراده لنا القدر من مجد».

وبدأوا بالسير جماعة.. ومشى الموكب فى الغاب وعلى رأسه

الدكتاتور النمر، والضبع على يمينه وابن آوى على يساره. وفى آخر الموكب الزرافة والقرد فوقها .

قالت الزرافة : «أليس من حسن الحظ أن يكون على رأسنا زعيم قوى كهذا؟ انه يتحدث عن إيمان!».

* * *

ومشوا ساعات.. فأصابهم الجوع مما لم يتعودوه من مشى شديد ومما اشتنشقوا فى الليل البارد من هواء.. أما الفيل.. فرفع خرطومه الى بعض الشجر يحاول أن يسد جوعه.. وأما الزرافة فوقفت دقيقة عند شجرة ذات ثمر تلتقط منها التقاطا.. اما آكلات اللحوم فنظرت الى آكلات العشب نظرات حاسدة.. وأما الذئب فرعى الثعلب بنظره رعاية زائدة، واما الاسد فأخذ يتشمم عنق الغزال الذى بجواره ، وأما النمر فمال بوجهه الى الابل حتى مس قرونه.

فارتعدت الابل ولكنه عاد الى اطمئنانه لما ابتسم له النمر.. وأما الدب فأخذ يتحسس حمار الوحش.

وفجأة وقف النمر وزمجر فى غضب زائد وصاح: «أيها الغزال» لقد دست على قدمى فأنا لابد آكلك..

فانتفض الغزال.. وقال: ولكن كيف أدوس على قدمك يا سيدى ورئيسى وأنا إنما أسير وراءك..

قال النمر: دع الكلام الفارغ أنا آكلك على كل حال.

وضرب بأنيابه فى لحمه.

وذاعت رائحة الدم.. فما لبث اللبث أن قفز على الأبل .. وتسمر هذا فلم يستطع حراكا وقتل الذئب الثعلب بعضه من فيه والدب ضرب الحمار ضربة فوق رأسه فهشمه.. وعلا الصياح من كل جانب.. وشاع الفزع وجرت الدماء وصرخ القرد صرخة مدوية وهو يطلب الفرار.

* * *

وجاء الفجر، وأخذت شعاعاته الأولى تظهر فى الشرق.

وعلى ضوئها دخل القرد الى الحديقة، حديقة الحيوانات.. فوجدها خرابا.. الا من جدى سبقه إليها، وقف على الحشيش يقرض .

وفى سكون، وفى خشوع ذهب القرد إلى مكان بدأ الثورة على الاسر منه ذهب إلى قفصه فدخله، وأغلق الباب، وعاد يغلقه من جديد ليؤكد لنفسه أنه أغلقه حقا.

ثم رقد فى ركن ، حيث القش كثير، ونام نومة لم ينمها عمره..

أيتها الحرية ..*
كم بأسمك تقترف الآثام

وقفت العربة من حولها الجند، ونزلت منها امرأة، واتجهت إلي باب السجن. ولم يكن عند حارس السجن علم بمجيئها، ولم يكن عند حارسته. وأنزلتها المرأة الحارسة في حجرة لها ريثما تهيىء لها حجرة أخري ، فى الطابق الأعلى ، حيث الهواء أعفن والاركان أقذر.

وكانت المرأة الحارسة تعطف على بنات جنسها اللاتى تقذف بهن الثورة إلى شواطىء السجون. ولم تكن الثورة القائمة قد بلغت بعد أقصى حدتها، ولا أدمى حوادثها. ولم تكن المرأة القادمة ذات قدر وضيع، ولا ذات جيب فارغ. أنها مدام رولان، زوجة المسيو رولان، وزير الداخلية فى الثورة الفرنسية وصنعت المرأة الحارسة للمرأة الضيفة، الضيفة بمعنى ما طعاما.

---

* هلال - سبتمبر ١٩٥٠

وانقضى اليوم .. فكان لابد لمدام رولان أن تصعد لتهبط. أن تستبدل حجرة دنيا، فيها الراحة والنظافة، على قدر، بحجرة عليا فيها التعب والقذارة. وصعدت حيث لا يستحب الصعود. وأغلقوا من ورائها الباب، وسمعت غلقه الثقيل يستقر فى موضعه.

لم تكن مدام رولان قد بلغت الاربعين. ولم يكن لها جمال صارخ، ولكن كانت فيها رشاقة وعندها للناس اجتذاب. وكان ممن اجتذبتهم اليها رجال الثورة. واجتمعوا فى صالونها فكان نعم الصالون. وفى بيتها تقارعت العقول ببعض الذى تمخضت عنه الاعوام التى جاءت من بعد ذلك، أعوام العقد التاسع من القرن الثامن عشر. واحتلت هى وزوجها من الثورة صفوفها الاولى. وتولى زوجها الوزارة فيمن تولى.

ولكن الانسجام الذى شمل الرجال والثورة فى أبانها لم يدم طويلا. واختلف الزعماء فى معنى الصالح ومعنى الفاسد، وتباينت أغراض اليها كانوا يهدفون.

وبتغير العقول تغيرت قلوب. وعملت الطبائع البشرية فتسربت إلى النفوس الاطماع وتسربت اليها الاحقاد. وانبهمت المآرب فلم يدر أحد ما منها كان للشعب، وما منها كان للشخص ، وما منها كان لله وما منها كان للشيطان. وتزيى الشيطان بزى الرحمن

أحيانا فانتزع من الناس نفس العزائم والقوى التى ينتزعها الايمان. وأخذت الثورة، بعد أن أكلت أعداءها، تأكل رجالها. وكان من المأكولين، بل المأكولات، مدام رولان.

وانتظرت رولان دورها فى الذبح، لتطبخ بعد ذلك وتهيأ قربانا على مائدة الوطن.

نعم.. لم يكن فى مآلها شك. إنها عندما ركبت العربة ، ومن حولها الجند صفين، تصايح بها الناس: إلى الجيلوتين!

والناس تدعو بالنار لمن دعت له بالأمس بالجنة.. أنهم قوم يجهلون .

استقرت السيدة آخر الأمر فى هذه الحجرة، وتكرموا عليها فيها بوسادة . وقامت هى تهيىء من هذا الضيق، بين هذه الحوائط الاربع، تهيىء منه سعة ، بما حملت معها من غطاء وثياب. وبسطت على شىء كالطاولة مفرشا، واتخذت منه لنفسها مكتبا. وعليه بدأت تكتب تلك الذكريات الخالدة التى أسمتها احتكام إلى الاجيال المقبلة المنصفة. وهى من خير ما كتبه الكاتبون فى أكناف السجون.

* * *

رفعت القلم وبدأت تكتب

وغلب الفكر ، وغلب الذكر، فاستسلمت لهما .. وجف فى يدها القلم .

ذكرت ما حدث فى اليومين الذاهبين. لقد كان همها، كل الهم ، فى زوجها . أن زوجها ربيب الثورة، وهو رأس من رؤوسها التى يجب أن لا تهشم. وأعداؤه. أعداء الثورة باطنا، وأحبابها ظاهرا، لابد طالبوه . وهو لابد من خلاصه . لابد من فراره. لابد من تهريبه. وهو سوف تهربه ليختفى حينا، وتظهر هى للاعداء ليشفوا فيها غليلهم. أنه لابد أن ينجو ليبقى للثورة، فللوطن ، فى زمن، أصلح وأرحب. هكذا كانت خطتها.

وتحقق ظنها وتحقق خوفها قبل انفاذ هذه الخطة. ودق الجند الباب، للقبض على زوجها. وأعلنوه فاعترضت ، واعترض . قال لهم: «أن استخدمتم الشدة، فسوف أقاوم ما استطاع رجل شيخ مثلى أن يقاوم» . قالوا: «ليس عندنا أمر بالشدة». وعاد رئيسهم إلى أولى الأمر يستفسر، وترك خفرا. وراحت هى تذرع باريس فى اسماع صوتها بالشكوى لزعماء كانوا لها بالأمس أصدقاء. وعادت آخر النهار، متعبة عاجزة، بالخيبة. وانصرف الجند عن البيت ليعودوا. وانتهزت هى الفرصة ، فلما عادوا لم يجدوا لزوجها رولان أثرا.

فلما أصبح الصباح التالى، كانت هى فى سبيلها إلى السجن .

* * *

وقضت أربعة وعشرين يوما فى السجن، فى هذا السجن الاول، سجن أبيه .

وأفرجوا عنها . وفرحت . وفرحت خادمتها . وفرح حتى السجان والسجانة. لقد كانت لهما فى السجن منها صحبة طيبة ممتعة. إن الزهرة التى لها عطر، تنفح به فى الروض، وتنفح به فى القصر وفى السجن.

ودخلت بيتها مبتهجة تنثر سلامها للخدام كما تنثر الورد.

وخطت من سلم بيتها سلمة ، فسلمة ، فسلمة. وعند السلمة الرابعة سمعت من ورائها صوتا يصيح بها: مدام رولان، باسم القانون أقبض عليك!

والتفتت وراءها ، فسقط قلبها ، ولكن ما لبث أن عاد إلى موضعه. وكان لابد له أن يعود. إنها اعتزمت أن تقدم نفسها قربانا، وهذا بعض ما يلقى القربان قبل أن يتقربوا به.

وعادوا بها إلى سجن جديد

واستفسرت ، فقالوا لها أن سجنها الاول لم يكن شرعيا . فهم أطلقوها ساعة ريثما يغيروا من صياغة الأمر ما يجعل السجن شرعيا .

يالدقة العدالة !

وكان السجن الجديد سجن سانت بيلاجى

وكان كالسجن الاول سواء، بل زاده سوءا وجه سجان هناك يثير الرعب فى قلب امرأة فى حجرتها فى السجن وحيدة.

وفى الغد طلبت الصحف، وفتحتها وقرأت فيها أول خبر لقد قبضوا على «الاثنين والعشرين». قرأته فسقطت الصحيفة من يدها . وصاحت : أيها الوطن ، إلى أى المهالك هم بك سائرون؟

إن الاثنين والعشرين رجلا هم رؤساء حزبها . وأسماؤهم أسماء لمعت فى الثورة: فرنيو، بوالو، فوشيه، لاسور..

ولم يكن بينهم اسم زوجها، رولان. ولم يكن بينهم أسماء اختفوا فى الريف، مطلوبين مشردين، يلوذون بالغاب كما تلوذ الوحوش.

ومن طلب، ومن شرد؟ أنه الحزب الذى عد بين زعمائه دانتون، ومارات، وروبسبير..

وترجع إلى عهد الثورة الأول تتفحص هذه الأسماء، فتجد جدولا شاملا واحدا ، كتبت أسماؤه بمداد واحد، ذى لون واحد . هو لون المبادىء الواحدة، والمشارب الواحدة، والاهداف الواحدة .

فلما تدهورت الثورة، نزلت إلى ما تنزل اليه كل الثورات فى تدهورها. وإذا الجدول يتفرع إلى نهرين، أيسر وأيمن، هذا كتبت أسماؤه بالازرق وهذ بالاخضر. وتبحث عن الفروق فى المبادىء، على الرغم من الالوان ، فلا تجد فرقا. وتجد الفروق للأمزجة، وتجد الفروق للمطامع والمطامح.

قرأت مدام رولان الخبر الذى قرأت ، فذكرت ما يصنع الآن دانتون بزوجها، وقد كان زميله فى الوزارة الواحدة. كان دانتون وزير العدل، وكان رولان كما قدمنا وزير الأمن

وكتبت مذكراتها الخالدة:

«أى دانتون، لكم شحذت خنجرك قبل أن تضرب به! فاضرب به ، اضرب مرة أخرى، فأخرى، فوالله ما يزيد هذا فى الذى كان من اجرامك شيئا».

وظلت فى سجنها تسمع أخبار «الأثنين والعشرين»

حتى إذا كان يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٧٩٣ حكم عليهم القضاء، نعم القضاء ، بالموت، لتآمرهم على وحدة الدولة، وتقسيم الجمهورية وبهت الرجال الاثنان والعشرون لما سمعوا الحكم.

وطعن أحدهم نفسه بسكين ، لهول ما سمع. وهو فالازيه

وتكوكب الاحد والعشرون حول الجثة، وحملوها معهم إلى السجن، فلقد قضت المحكمة على هذه الجثة أن يتم سجنها، وان ترسل فى الغد مع سائرهم إلى المقصلة .

وقضى هؤلاء الرجال، رهناء الموت، ليلة من أشنع وأمتع ما قرأت فى الليالى. ووصفها لامارتين فبلغ الغاية من وصفها. واجتمعوا فى هذه الليلة على الضحك والبكاء، واجتمعوا على أشهى طعام وألذ شراب وآلم ذكرى وأوجع قلب .

وفى الغد، ساروا إلى المقصلة بين الجماهير الصاخبة عن غباء، الهاتفة عن جهالة، ساروا اليها ينشدون نشيد الوطن كأعلى ما أنشدوا. أنه المرسيليز .

وتنزل المقصلة مرة بعد مرة فينقص النشيد شدة بنقص الحناجر المنشدة .

وأخيرا يأتى دور الجثة فتقصل هى أيضا. أنها المساواة التى نادى بها الأحرار !

وتسمع مدام رولان بكل هذا، فتعلم أنه ما من الموت مهرب.

وما كانت في شك قط. وما جزعت من الموت قط

ويأتى دورها. ويأتى يومها ويأتى حكمها

وتخرج فى طريقها إلى الموت

وتمر فى الطريق بـ«ميدان الثورة». وترى فيه تمثالا للحرية أقاموه من صلصال. فما تكاد تحاذيه حتى تحنى له رأسها إعظاما وأكبارا. ثم هى تنطق مقالتها الخالدة: «أيتها الحرية، كم باسمك تقترف الآثام!»

وزوجها ؟ ماذا كان من أمر زوجها ؟

بلغه ما كان من أمر زوجته فجن جنونا. وخرج من مخبئه يذرع الارض أميالا. وبلغ به الحزن، وبلغ به اليأس، مبلغا لم يحتمل معه الحياة

وجاء بورقة فكتب عليها: من يوم أن عرفت أنهم قتلوا زوجتى لم تعد لى رغبة فى البقاء بدنيا فيها هذا القدر من القذر والغدر .

ووضع هذه الورقة على صدره. وثبتها عليه بسن سيفه. ثم سقط على السيف فانغمد فى قلبه

ماتت هي في الثامن من نوفمبر عام ١٧٩٣، ومات هو في العاشر منه، بعدها بيومين

وبذهابهما، وبذهاب أصحابهما ، انطوت صفحة من أشد صفحات التاريخ أحمرارا، بالدم، وأسودادا بالذي يستطيع بالانسان أن يصنع بصاحبه الانسان، بل وصديقه، بل وشريكه في الوطن ، وشريكه في انقاذه .

المدرسة والحرية والحياة *

سألت طالبا، فى الثانوى ، من بعض أهلى ... قلت :

– بدأت الدراسة ، أو تبدأ ، فكيف تقع شهيتك منها ؟

قال : «لقد استمتعت بالبحر استمتاعا كثيرا . ونجحت فى الدور الأول ففرغت لمتعة الصيف : الهواء والماء» .

قلت : «هذا شىء جميل ... ولكنى لازلت أسأل ، كيف تقع شهيتك من افتتاح المدارس ؟» .

قال : «اشتهى الدراسة للقاء اخوان لى فرقت بينى وبينهم عطلة الصيف» .

معنى جميل ... لا شك فى هذا ، ذلك التشوق إلى لقاء الاخوان ، والحرص على لقائهم ، واستغلال العهد الدراسى ، بل انتهاز العهد الدراسى ، لتكوين الصداقات، والحق أن كل من مر بهذا العهد، وفاته بعيدا ، وكون فى هذا العهد صداقات، وكون فيما تبعه من عهود صداقات ، يعلم علم اليقين أنه لا صداقة أمتن، ولا صداقة أخلص، ولا صداقة امتع، ولا صداقة ألصق بشغاف

---

* هلال – اكتوبر ١٩٥٥

القلوب من صداقة تتكون بين الدروس ، فى حوش مدرسة، أو خلال المحاضرات فى حرم جامعة، تحت ظلال من الشجر وريقة ، وظلال من الشباب ناضرة بالذى حمل الشباب من ورق أخضر، بالذى خرج من بين أوراقه من الزهر أصفر وأحمر وانضر .

والسبب فى هذا؟ .. أنها صداقة على حلاوة ، فالعيش بعد لا تكون دخلت إلى حلاوته مرارة ، ولأنها صداقة على أمل ، فالعيش بعد لا تكون دخلت إلى أمله خيبة .

وعدت أسأل . قلت «أن الاصحاب متعة ، وهم عندما يجد الجد عدة. ولكن قل لى الدراسة كيف تستقبلها؟! .

قال : «لقد عرفت انك تسأل عن الدراسة ، لهذا تجنبتها أطول التجنب» .

قلت : «أذكرها يسىء؟» .

قال : «بل فى تجنب ذكرها الخير ... أتذكر حديثك لنا عن الخوف فى الحياة، أو الخوف من الحياة ، وأنه لا ينجح فى الحياة إلا من نجا بنفسه من الخوف من الحياة ؟

قلت : «أذكر» .

قل : «فحياة المدرسة بعض هذه الحياة ... والامتحان خوفها ، ووسيلته الدراسة ، ووسيلة المخوف مخوفة . وقد حملت نفسى على

نفى خوفها من نفسى بتناسيها ، والكف عن الحديث فيها . فخرج من قلبى الخوف، ودخله الأمل ، وكان ما تعرف من نجاح » .

واستطرد يسأل بدوره . قال :

«ولكن قل لى يا عم ، أراك تدرس كثيرا ، أليس كذلك ؟» .

قلت : «نعم» .

قال : «ولا شك تلتذ من الدراسة، أليس كذلك؟» .

قلت : «نعم» .

قال «أتدرى لماذا؟» .

قلت : «أدرى ... ولكن أحب أن أسمع منك» .

قال : «لانك تدرس ما تشتهى ، وتدرس فى الوقت الذى تشتهى ، وليس وراء ذلك امتحان . أما فى المدرسة فنحن جنود مجندة ندرس بالجرس، وبالساعة. وندرس ما نحب وما لا نحب ، وكثيرا ما ندرسه بالطريقة التى لا نحب ، أفلست ترى فى كل هذا مناقضه للحرية التى نتعشقها؟» .

قلت : «تريد أن تقول أن المدرسة بيئة اصطناعية ، غير طبيعية. وهذا حق . أنه فى القرون الأولى كان العلم يعطى فى حلقه ، يتجمع فيها الطلبة حول استاذ يقول ما يقول ، ويقول ما

يريد ، ولا يقول مالا يريد، ويقوله عندما يريد ، في أي ساعة من ساعات النهار، أو طرف من أطراف الليل، فكان هو المدرس، وهو الناظر وهو المفتش ، وهو وزارة التربية جميعها . كذلك كان الطالب ، يحضر على من يشاء من الاساتذة، ويمتنع عمن يشاء ، ويقبل على علم، ويعزف عن علم، ولا يكون من بعد ذلك امتحان ، ولا شهادة بأنه تعلم ولا كم تعلم . وكان يكفي أن يقال أنه أخذ عن فلان وعن فلان» .

قال الغلام ، الذى هو من أهلى : «وعلى هذه الطريقة ، على هذه الحرية ، ألم يتخرج الاشهرون النابغون الاقدمون من العلماء؟» .

قلت : «بلى .. فليس شيء كالجو الطلق ينمو فيه النبات ويترعرع ويزدهر ، والذين تخرجوا على هذه الحرية شغفوا بالعلم اختيارا لا غصبا . وصاروا اساتذة أللفوا فى العلم شيئا لا يكاد يتصور المتأمل فيه كيف ألفوه ، لسعته ، ولاختلاف مادته .. ولأنه ، لو وزع على الأعمار ، لملأ العمرين والثلاثة . فكيف بالرجل الواحد ذى العمر الواحد . ولكن لا تنس يا بنى أن العلم عند ذاك كان محدود الدائرة ، لأن النوع الذى كان منه لم يكن يؤدى إلى سبيل يطلب فيه الرزق . وكان أكثر من يطلب العلم الخاصة، ولم لم يكن

بابه مغلقا على فقير. ثم تغيرت الأحوال ، ودخلت مدنية حديثة تنوعت فيها العلوم واتصلت بمصادر الارزاق .، ومع المدنية الحديثة دخلت الديمقراطية ، وصار التعليم حق كل الناس، بل واجبا على كل من ينتمى إلى الأمة وتعليم المئات والألوف ليس كتعليم الملايين، وكثرت المدارس .. وكثر التلاميذ . فكان لابد من ضبط ، ولابد من ربط، ولابد من تنظيم يشمل هذه الآلاف المؤلفة فى الأمم. فدخل بذلك النظام الذى تنميه بالجندية ، ودخل معه الحد من الحرية» .

قال صاحبى الطالب : «أكل نظام يصحبه ضياع الحرية؟» .

قلت : «كل نظام يصحبه ضياع بعض الحرية ، فى التعليم وغير التعليم . انظرت فى بيئة الصناعة والصناع الصانع الفرد. كالنجار أو صانع الاحذية ، يصنع ما يشاء، متى شاء ، ويغلق دكانه فى أى وقت شاء. ولكنه إذا دخل المصنع ، وفيه المئات أو الألوف من مثله ، وجد نظاما لابد هو متبعه ، وهو يحد أول شئ من حرية الفرد، وتحكمه عند ذلك صفارة المصنع كما يحكمك الجرس المدرسة ... فالمدرسة ، أن حدت من بعض حريتك ، فيجب أن تقبل هذا لأنه صار من ضرورات الأمور ، فى مدرسة ، ومن بعد مدرسة . وهو فى المدرسة تدريب لما بعدها . أن هذه المدنية

الحديثة كلما تقدمت ، صارت كبعض آلات معقدة هي تبتدعها ، وصار الفرد فيها كبعض تروسها ، كترس لابد أن يسير مع سائر التروس ، في وقت تفرضه هي ، ليس له اختيار فيه» .

ووجم الطالب المسكين حتى خيل إليّ أنني اثقلت . ثم تبين أنه ما وجم إلا ليفكر . قال : «إذا كانت المدرسة تدريبا للعيش الذي يأتي بعدها ، كما تقول ، فلماذا لا نحس في المدرسة بأننا نتهيأ للعيش الذي يجيء بعدها ؟ في المدرسة ندرس خواص الاعداد، فهذا مربع، وهذا مكعب ، وهذا أس ، وهذا جذر، والمثلث القائم الزاوية مربع وتره يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين . وفي خارج المدرسة نسمع بالسيارات والطائرت وبالصواريخ وبأننا على وشك أن نذهب إلى القمر . وأنت إذا تحدثت في المدرسة عن الذهاب إلى القمر فقد خرجت على النظام » .

هنا، كان لابد أن أبتسم .. ومع الابتسام إعجاب بهذا الطالب الذي يكشف عن احساسه صادقا ، فإذا به يصيب التربية المصنوعة في أحسن مواضعها . ولقد زادني هذا ايمانا بأن الذين يدرسون شئون التعليم ، من نظم ومن مناهج ، يجب أن يضموا إلى آراء يجمعونها من الأساتذة ، آراء يجمعونها ، على مثل هذا الحديث الحر، من الطلاب .

أما عن سؤال الطالب ، فقد قلت على التو، مشجعاً :

– صدقت ،أحسنت .. ومن الحس الطيب أن تفتقد ،. أنت الطالب العلاقة بين ما تدرس فى المدرسة وما تجد ، وما تسمع عنه، فى الحياة. ولكن أعلم أن المدرسة تعتذر عن هذا بأنه ، لتفهم نتائج العلم، معقدة مركبة فى الحياة، لابد أن تبدأ بفهم مبادىء أدت إليها ، على بساطتها الأولى، ويكون هذا فى المدرسة. فكما قلنا، أن المدرسة تحضير لما بعدها .. وهى فى هذا تحضير لما بعدها ».

قال الطالب النابه : «ولكنى قرأت فى مجلة انجليزية مقالا عن الطائرات النفاثة وعن التربينات الغازية ، ففهمت الشىء الكثير» .

وصدق الطالب .. فكما أن العلم درجات ، ففهم العلم درجات كذلك. أنه قرأ ففهم الشىء الكثير . ولقد أعجبنى هذا التعبير .. فمعناه أن هناك شيئا لم يفهمه ، وهذا حق وهذا يكاد أن يكون حقا فى كل شىء . أن الفهم درجات ، ولكن مهما كانت درجات الفهم فهو يرضى . والعلم ، على أى درجة من التعقد ، له درجات فى التبسيط ، ففى الفهم ، وهذا عمل الكتب وعمل المجلات ، ونحن ينقصنا فى مصر وفى الشرق، من ذلك ، الشىء الكثير .

قلت للطالب : «كم تقرأ فى غير اللغة العربية ؟» .

قال : «أقرأ الشيء الكثير .. وبهذا استعيض الحرية التى افقدتنيها المدرسة . ففى الكتب الافرنجية العلمية وفى المجالات ، أقرأ ما يلذ لى ، لا ما يفرض علىَّ . واقرأ فأفهم من الحياة ما عز أن أفهمه فى مدرسة» .

قلت : «وسر نجاحك المتصل؟» .

قال : «سره فى هذا .. انى اغترف مما يلذ لى اغترافا ، فى مدرسة وغير مدرسة ، وأنى لا أبالى بامتحان ، ولا أبالى بأن أكون الأول فيه ، حتى لا تصبح حياتى حياة سخرة، ومع هذا فالذى أوغل فيه من العلوم يعوضنى من التمر فى الامتحان عما قد افتقده من علوم لا أوغل فيها ، ويزيد . وأنا ، وأن لم أصل إلى المرتبة الأولى قط، فأنا لم أنزل عن المرتبة الرابعة قط. وبلغتها واحتفظ بها عن غير قصد» .

وطال الحديث ، وكان حديثا ممتعا .. انتهى بقولى :

– على كل حال لا أراك الا بافتتاح الدراسة مغتبطا . وفيها لك أمل تتحكم فيه خشية أن يسبق فيحكمك . وذلك نوع من الرجولة، الباكرة يؤدى إلى الخير الكثير عندما تصبح رجلا كاملا . فمبروك دراستك إن شاء الله . ومفتوح لك بها باب الأمل الواسع، وعلى الله التوفيق ..

لماذا يخشى الغرب العرب ؟ *

سألنى سائل ماخشية الغرب من العرب وما أسبابها؟

فقلت مصححا : ماهى بخشية، وإنما هى خصومة فى جوهرها، وما الخشية إلا عرضا، ومع الخشية طائفة أخرى من أعراض .

وقلت مصححا : وهذه الخصومة ليست خصومة أهل الغرب كلهم، أعنى دولهم جميعها . فمن دول أوربا المسالم . فالدانمارك لاتخاصم العرب، ولا السويد ولا النرويج، وألمانيا بشقيها لاتخاصم العرب، ولا النمسا، ولا سويسرا، كذلك الأمم التى تقع وراء ماأسموه بالستار الحديدى، لاتخاصم العرب. ولا اليونان ، ولايوغوسلافيا، وأنت لا شك مدرك من هذا التفصيل أن هذه الأمم لها صفة تجمعها، وشذت عنها انجلترا وفرنسا كذلك لصفة تجمعها .

والصفة الجامعة فى الحالين : استعمار أو لا استعمار .

---

* هلال – يناير ١٩٥٧

جمع بين الطائفة الكبيرة الأولى من الأمم الأوربية أنها لاتبغى الآخرين أنهما مستعمرتان وتبغى لذلك دواما .

وقد اسقطت طائفة ثالثة، لأن منها من لايزال يعيش على الاستعمار ذكرا . ومنها من هو بين المستعمرين تابع. فهو يحضر قاعة الطعام ولكن لايجلس الى المائدة، ويظل يبصبص بذنبه حتى يلقى إليه مايلقى . فهؤلاء خصومتهم من خصومة من يتبعون .

لقمة العيش أصل الخصومات

ولاستجلاء أسباب هذه الخصومة لابد من أن أتناول، وتتناول معى، خصومات الناس جميعا .. وأبدأ فأسألك:

هل شهدت خصومة فى أسرة؟

أم هل شهدت خصومة فى شارع ؟

أم هل شهدت خصومة بين موظف وموظف فى دار حكومة، أو حتى فى مدرسة أو حتى فى جامعة ؟

وأعنى بالخصومات تلك التي بلغت من الخطر بحيث تنذر بالشر.

إن فى هذه الخصومات جميعا منازعة الفرد للفرد على أسباب العيش . منازعة الفرد للفرد على المال وأسباب اجتلابه.

الزوجة تخاصم الزوج لأنه لايكسب كافيا، أو هو يكسب ويقتر، والزوج يخاصم الزوجة لأنها مسرفة !

وأنت فى الشارع أو فى السوق تشترى فتساوم، والمساومة مخاصمة، تريد أنت تنقص ويريد البائع أن يزيد، وتختلفان ثم تفترقان على كراهة صامتة، أو خصومة صارخة، أو تتفقان، وما الاتفاق إلا خصومة انطفأت.

وفى الشارع وفى السوق يختلف البائعان على قرشين أو ثلاثة، وتنشب خصومة يعززها كل منهما بلفحات من غضب، بسكين يغمد فى صدر هذا أو بطن هذا .

والموظف يخاصم الموظف علي مافي الدار، دار الحكومة، أو غير دار الحكومة، من درجات، ويشتد التنافس، وتهون القيم الكريمة عند الرجال الكرام، فتنصب الفخاخ وتعقد الأحابيل ، وحتى فى المدرسة، دار العلم، وحتى فى الجامعة، دار التخصص فى العرفان، إنما يختصم المختصمون على لقمة الطعام. وهم يستخدمون فى قتالهم ماهو أمضى من المدى والسكاكين، وأخفى، وأشد غدرا .

وحتى فى الأمة الواحدة تتصارع الطوائف، وقد تجعل سبب الصراع الدين أو العقيدة أو المذهب، أو المهنة وكرامتها، وهى

أسباب ظاهرة تخفى وراءها أسبابا مستورة تتصل بلقمة العيش ويحصيلة المال.

وكذلك الأمم تختصم وتتقاتل، وتنصب للقتال لافتات، وترفع عناوين، تحمل أسماء كلها كواذب، وتبقى مقالة الصدق تحت كل هذا الركام خافية : إن الصراع على موارد العيش هو أصل القتال وحافزه، ولبه وجوهره .

خصومة تمتد في التاريخ جذورها

وانتقل بك بعد ذلك الى خصومة بين الغرب والعرب، وأسارع فأقول: ولاشك سوف تقول معى، إنها بعض خصومة الغرب لأمم الشرق جميعا، وهى خصومة تمتد جذورها فى التاريخ الى الوراء قرونا.

ولست أبعد بك أيها القارىء فكفانى أن أرجع بلك إلى الوراء أربعة قرون أو خمسة، ففى هذه القرون، فى أولها، بدأ غزو الغرب للشرق، غزته البرتغال وأسبانيا وهولندا وانجلترا وفرنسا، وأخيرا جاء دور ايطاليا ودور الألمان.

ويبدأ هذا القرن العشرون، وتنظر الى خريطة الأرض بألوانها الحمراء والخضراء والزرقاء والصفراء، فتجزع، ويجزع معك كل عارف بهذه الألوان ولها فاهم .

انقسم ظهر الأرض الى أمم مسيطرة وأمم سيطروا عليها. وبحد السيف سيطروا، وبقوة المدفع، ومع السيطرة استغلال، ومع السيطرة سرقة وانتهاب. ويحملون خيرات هذه الأمم، مما تكتنز الأرض، أو تجود به التربة، ويعوضونها عن ذلك بخسا، ومع السيطرة أمرة وإذلال، وهى أشياء ومعان ضمها لفظ جديد، ذلك الاستعمار.

حتي ألوان الوجوه كرهوها

واستعمرت أوربا آسيا

واستعمرت أوربا أفريقيا

وهى أمم أكثر ألوانها السمرة والصفرة والسواد.

وهى ألوان من صنع الله فجعلوها بحكم السيادة الفاجرة شارة الذلة والهوان. ويزور الأصفر والأسمر والأسود بلاد تلك السادة فيجعلون بينهم وبين أهلهم سدا، كأنهم الوباء المخوف.

ويجرى التعليم غصبا فى هذه الأمم المستعمرة، المغلوبة على أمرها. والتعليم يقظة. وتتحفز الكرامة الإنسانية فى هؤلاء الايقاظ. ويقوم الصراع لدفع الغاصبين .. وتقوم بينهما الكراهة، وتقوم الأحقاد.

يذكرون المصالح بعد ذكر الله

وتقول لهؤلاء الغاصبين أن الأرض لأهلها، فيحدثونك بلغة

لاتفهمها يقولون إنها مسئوليات وقعت عليهم، فهم لايتخلون عندها، وتسال من أوقعها، أو كنت أنا أسال في صباى وشبابى : من حملهم هذه التبعات. فأسمع منهم الجواب : أن الله حملهم إياها، وأنها مشيئة الله، فلا أفهم .

وهوشوا باسم الله حينا، فلما لم ينفعهم تهويش باسمه سبحانه، قالوها قولة واضحة صريحة : إنها المصالح تجعلهم لايفارقون.

وما المصالح الا المال

وما المصالح إلا موارد العيش.

وعلى متسوى المعيشة فيهم، في المستعمرين، بمقدار ما انخفض عند المستعمرين المسودين، أنه الاقطاع بين الأمم، ثراء السالب وسمنه، يقابلهما فقر المسلوب ونحافته.

وزادت هذه الأمم السالبة أعدادا، وربت علي الخير الذى استلبوه ولازالوا يستلبونه، ولم يدركوا في قحة الغلبة، ان السلام خير، وأن رفاهة العيش لأمة ليس من الضرورى أن تعتمد على نهب وسلب، وأن في أمم أوربا أمما لاتستعمر، كسويسرا والدانمارك وأسوج والنرويج، وإنما تجد وتعمل، وتأكل كل ماكل من عرق جبينها خالصا طهورا، وأنها لاتستلب كنائز الأرض

ولانتاج الزرع ولا تنتهبه بالسيادة بثمن بخس، وإنما هي تشتريه حرا من سوق حرة، ومع هذا ومع كل هذا، فمستوى المعيشة فى هذه الأمم أرفع المستويات.

الزيت والخصومة القائمة

فخصومة الغرب للعرب مخاصمة مستعمر مستعمرا، وزاد هذه الخصومة يقظة العرب، وزاد هذه الخصومة أن الزيت نبع فى أراضيهم فخشية الغرب العرب خشية الزيت، خشية ضياعه، وفى سبيل حماية الزيت هيأوا لأنفسهم منزلا، فى الصميم من أرض العرب، ينزلون به كلما تحرجت الأمور، وأسموا هذا المنزل اسرائيل.

وبلاد العرب سوق طيبة

وبلاد العرب سوق طيبةويود الغرب أن يستبقيها لنفسه، لتتجر معه نازلة على شروطه، وهذا هو الاستعمار التجارى، الاستعمار الاقتصادى ويطلب العرب فى هذا الحرية، فيكون بينه وبين الغرب خصام، وتكون خشية .

وبلاد العرب معابرهم إلى قارتين

ولو لم يكن فى العرب تجارة، ولم يكن فيهم زيت، لكان من موقعهم الحربى داع لخصومة، أن الكتلة العربية الشرقية، تضاف

إليها الكتلة العربية المغربية، تتوسطهما - مصر، تحجب أوربا عن آسيا، وتحجب أوربا عن افريقيا، إن هذه الدول العربية معابر لهاتين القارتين، وأرباب القوة الغاشمة، الذين لايفهمون معنى التعايش، ولا يراون الحياة على هذه الأرض إلا حكم القوة والاحتكام اليها، يودون أن يحتلوا هذه المعابر ، ويأبى العرب عليهم، فيكون خصام وتكون خشية.

وكرهوا العرب لأن أكثرهم مسلمون

والعرب أكثرهم المسلمون . والغرب لايغفر للعرب أنهم، أو أن أكثرهم مسلمون، وفرنسا خاصة تشير إلى أهل الجزائر، وأهل المغرب عامة، فلا تقول العرب، ولكن تقول المسلمين أحياء لاحقاد مؤسفة قديمة، ليكون شبابهم المحارب للعرب أكره، وفي قتالهم أقسى وأشنع.. وتتناسى قولة قالها المسيح عليه السلام : المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام، وفي الناس المحبة .

أما بعد

أما بعد ، فهذه خشية الغرب من العرب، وخصومته إياهم، وكراهته لهم . وهي الفصل الأخير من قصة في تطور الإنسان علي هذه الأرض محزنة مخجلة، وسوف يرتفع الستار، بعد حين، عن قصة للإنسانية أقل أحزانا، وأقل اخجالا، وعلى كل حال، ليس لدينا في هذا الأمر إلا الرجاء، وعلى الله التحقيق والتوفيق .

الحب والجمال

حدثنى الجمال .. قال :*

أنا الجمال .. يعرفنى الناس رسما واسما ، ولا يعرفوننى وصفا ، كالمعنى الذى يحسه القلب ويعجز فلا يفصح عنه اللسان .

أو أنا كالكهرباء يمسنى الرجل منكم فتأخذه هزة منى تعجزه عن التفكير فى كنهى . ومنكم فلاسفة ذوو قلوب باردة ، حللونى كما حللوا الكهرباء ، وحللونى كما تحلل الكيمياء ، فخرجوا من الشيء المشكل الواحد على عدة من أشياء مشكلة ، لم تزدهم فطنة، ولم تكسبهم فى اجتلائى علما ، بل زادتهم ضلالة ، كمن حلل الماء فخرج على غازين لا يشبهان الماء فى شيء ، فهما لا يرويان من ظمأ ، ولا يبللان من جفاف، ولا يلطفان من حر كما يلطف الماء . والناس فى استكناهى بالتحليل كمن يستكنه الوردة بالتمزيق ، لا يخرج منها إلا على عدد من الوريقات الذابلة .

وأنا الجمال .. أعيش على الجيم والميم واللام ، أعيش على الجملة لا على التفصيل ، وتدركنى العين فى لمحة لا تجعل للعقل

---

* هلال – يونيه ١٩٤٨

مجالا ليعقل ، ولا تترك للمنطق فسحة ليتمنطق ، فأنا أما هنا أو لست هنا . أنا أمــا حــاضــر أو غــائب ، وليس لى لقب أدعى به فألبى. ليس لى بطاقة اكشف بها عن نفسى كما يكشف المجهولون المغمورون .

* * *

وجعلوا بينى وبين الحساب نسبا ، وقاسوا منازل نزلتها من الناس والأشياء طولا وعرضا ، ورقموها وخططوها على الأوراق ، ثم قالوا بهذه الأرقام ، وعلى هذه النسب ، وفى مثل هذه الأشكال ينزل الجمال . ونظرتها فوجدت أنها مما أنزل فيه أو لا أنزل . ووجدتنى أنزل فى غيرها أكثر مما أنزل فيها . وعجبت لهؤلاء الحاسبين ، ،قد بلغ منهم حب القيد والتقيد أنهم يريدون أن يقيدوا الجمال بمنازل ينزل فيها . وأن يكن فى الدنيا شىء يكره القيد والتقيد ، ويحب الحرية والتحرر ، فذلك أنا .. أنا الجمال ، كثير المساكن ، واسع الساحات ، لى بكل أرض مهبط ومهابط، وبكل جنس من أجناس البشر منزل ومنازل .

* * *

وأنا أنزل فى الشجر ، وأنزل فى الطير ، وأنزل فى ما مشى على الأرض أو دب ، ولكنى أبهج ما أكون وأمتع ما أكون فى

الإنسان ، أسير فى ركاب الرجل ، أو ركاب المرأة ، فيتبع الناس حيثما سار وسارت . وحيثما حللت واياهما ، تكون الغبطة ويكون السرور .

ولست أنسى ، أنا الجمال ، بولينة الجميلة ، تلك التى سويت قدها ، ووزعت قسمات الحسن على وجهها ، بما خبل الناس .. فثاروا يطالبون أولى الأمر بالمدينة ، مدينة طولوز ، بأن يكون لهم الحق فى هذه المتعة ، ونصيب من هذه الفتنة ، فقضت السلطة عليها بالظهور مرتين كل أسبوع فى شرفة دارها . وكانت كلما ظهرت ، هاج القوم وماجوا ، وثاروا فكادوا أن يكونوا على الأمن خطرا .

وأخرى فى القرن السابع عشر ، أليزة دوقة هاملتون ، سويت منها ما سويت ، وزينت منها ما زينت . وتلقاها الملك فى قصره فى حفل ثقيل بوقاره ، فخف بالقوم جمالها ، فتكوكبوا عليها ، وركبوا المقاعد والمناضد لاجتلاء نظرة منها . والملك نسوه ، وحكم القصر طوره . وكانت حيثما حلت نبت زحام . والمسارح امتلأت وفاضت كلما زارت . وتنزل فى الريف فيقبع حول دارها المئات من الخلق ليروها وهى تخرج فى بكور الصباح .

ولكل قرن نساؤه ، ولكل جيل بهاؤه .

وكوبيد رسول الحب ، جلعوه طفلاً ذا جناحين ، وعلى عينيه عصابة ، فهو أعمى ، وأنا قائده . اقتاده فيطيع ، فلا حجة المحتج تفيد ، ولا عدل العادل ينفع .

* * *

وأنا الجمال ، أحل فى الصغير وأحل فى الكبير .. ولكنى فى الصغير أحب ، لأن الصنعة فيه أدق ، والفن أرق ، والفنان فيه أحدق . والكبير يثير الروعة ، والصغير يثير العطف ، والروعة ارتياع ، وهو يدعو إلى البعد ، والعطف ميل ، وهو يدعو إلى القرب . وزهرة الياسمين البيضاء تلتقط بين السبابة والابهام فى حنان وريبة ، والوردة الحمراء تؤخذ أخذا بالأصابع كافة على اطمئنان وثقة . والريبة تحيي الحب ، والثقة تقتله . والمرأة يدعوها صاحبها بعزيزتى الصغيرة ، ولم نسمع أحدا دعاها عزيزتى الكبيرة .

ومثل الصغر الضعف ، ومثل الضعف المرض . فأنا أسكن إلى الضعف أكثر من سكنى إلى القوة . وأنا فى مظاهر المرض أفعل منى فى مظاهر الصحة . أن الغزالة على دقة ساقها ودقة قرنها أجمل من الوعل . وجواد السباق أجمل من حصان الجر . والقطة فى إقعاعتها أجمل من الأسد فى إقعاعته .. فى تلك الوداعة ، وفى

هذا الفخامة . والمرأة جمالها فى ضعفها ، وهى أفعل فى الرقة منها فى الغلظ . وهى فى الغلائل خير منها فى الثوب الصفيق ، كالبدر يزيده السحاب الرقيق فتنة . والخفر صنو الضعف ، وفى الخفر التراجع ، وما أحب إلى الرجل من جمال متراجع . وكذلك الجمال المتمارض وليس به مرض .

وأنا الجمال ، أحل بالوجه الضاحك كما أنزل بالوجه الحزين . وكم وجه أظلم على الجد ، فلما ابتسم أشرق وأضاء كأحسن ما تشرق الأقمار . وكم وجه ضحك فكان كسائر الوجوه اذ تضحك ، ثم وجم وعلته مسة من حزن فشاق وفتن . أنه جمال باك لا يسطع إلا فى الثياب السود .

* * *

وأنا الجمال ، أعيش في الملاسة وعلى التطرية ، وحدودى فى المرأة جلد أملس . وحدودها خط لا يعرف الزوايا ، وهو إذا دار انحنى ، تصوب أو تصعد . ولو درت معه بأصبعك وهو يتثنى ويتحنى ، لتغير اتجاهك وما أحسست لفرط اللين والتدرج بانعكاس وجهتك .

وأنا الجمال ، تلقانى عند شفة كالعناب ، وفى وجنة كالورد ، وعلى جبين كاشراقة الصباح ، ولكنك لا تجد منى فىّ كل هذا مثل

ما تجد إذا تلقاني في العين الجميلة ، تحدق فيها وهي صافية فتهبط في صفائها من عمق إلي عمق لا ينتهي بك إلي قاع . وهي كالغدير الرائق يعكس صور الدنيا . وقد تطرف العين فكأنما لعب النسيم علي سطح الغدير فاضطرب ماؤه ، ولم يذهب الريح بصفائه . والعين ، من دون سائر الأعضاء ، تنطق علي الصمت ، وهي انطق ما تكون إذا صمت اللسان . وهي بواحة فضاحة ، لا تقول إلا الصدق إذا أعوز الصدق قائلوه . وقد أرادت النفس ، وهي أسيرة الجسم حبيسته ، أن تخرج عن إسارها ، وتتروح من حبستها ، فلم تجد كالعين شرفة تطل منها علي الوجود والحياة . وفي هذه الشرفات تلتقي الأحباب أول التقاء ، فأما رضا فاشتفاء، وأما تجاف يكون منه الداء .

وأنا الجمال ، أعيش في السكون كما أعيش في الحركة . فأنا أعيش في الحجر في الاصنام ، وفي الزيت علي الخيش ، ولكن كما يعيش الصوت الجميل في أقراص الشمع ، تعوزه اليد التي تديرها وتحركها ، وكما تعيش الفكرة الرائعة في كتاب ، يعوزها اللسان الذي ينطق بها . وأنا في حجر أو خيش ، نغمة واحدة من لحن طويل بديع ، لا تبين موسيقاه إلا إذا تحرك النغم وتدفق .

إن المرأة الجميلة .. جميلة في سكونها ، ولكنها أجمل في

حركتها . وهى جميلة في قعودها ، ولكنها أجمل فى قيامها ومشيتها . ففى القيام يستقيم العود وتتصدر النهود ، وتتحرك الأعضاء ، التى صاغها الله فأحسن صياغتها ، على اتفاق واتساق فى تتابع يعطيك ، لا صورة واحدة من الجمال ، ولكن صورا شتى . وهى صور حية دافئة بالذى يجرى فيها من دم حار، ود ناظره لو يكون شرابا .

وأنا الجمال ، أنزل حيث أنزل فلا أقيم طويلا .. فى طبعى القلق ، وفيه الملل ، وفيه التحول . وأنا أحمد الجدة فى الأوعية ، والحرارة فى الدماء ، فإذا أخذت تبرد أعترتنى قشعريرة ، فتحولت إلى حيث الحياة أزخر ، ومنابعها أوفر قال شاعركم :

زودينا من حسن وجهك مادا

م فتحسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنيا

فإن المقام فيها قليل

ولقد صدق .. غير أن الحسن لا يحول فيفنى وأن فنيت صاحبته . أن الناس تذهب وأنا غير ذاهب ، والناس تموت وأنا الحى الباقى . أنا الخالد انتقل مع الحيوات فى الأرحام ، وأركب ما أشاء من الصور فى مدارج القرون .

الطبيعة حين تنام *
وحين تصحو

للساكن المقيم على هذه الأرض ، تبدو الشمس شيئا سيارا دوارا ، لا يمل سيرا ، ولا يتعب دورانا . وهى تحضر فيحضر معها النور ويحضر الدفء ، ومن النور والدفء تنبع ينابيع العيش فى هذه الدنيا ، وعليهما يكون الصحو وتكون الحركة ويكون العمل . ثم هى تغيب فيغيب معها النور ويغيب الحر ، وينضب ينبوع العيش فى هذه الدنيا ، فيكون السكون ويكون النوم ، ومع النوم البطالة .

وليس الإنسان وحده الذى ينام ، وليس هو وحده الذى يتعطل ويتبطل ، ولكن كذلك يفعل الحيوان ، إلا من وجد تحت ستر الليل رزقا . وكذلك يفعل النبات . والحيوانات والنباتات تصحو على نار الشمس ونورها ، فتصلح من أجسامها ما أفسده العيش وتبنى ما هدمته الحياة . فالحياة اصلاح لا فساد ، وهى افساد لا صلاح . والحياة بناء لهدم ، وهى كذلك هدم لبناء .

---

* هلال - ابريل ١٩٤٨

والشمس ، كما تعاقب على الناس والأحياء بين السكون والحركة ، وبين النوم والصحو ، في موجات قصيرة ، هي الأيام والليالي ، فهي علي مثل هذا النحو ، تعاقب بين السكون ، والحركة، وبين النوم والصحو ، في موجات كبيرة ، هي الفصول . ربيع وصيف ، يأتى من بعدهما خريف وشتاء ، وخريف وشتاء ، يأتى من بعدهما ربيع وصيف . والشمس فى ذلك تتأرجح شمالا وجنوبا ، على هذه الكرة الضئيلة القليلة ، التى تظهر لأعيننا القاصرة القصيرة ، كبيرة كثيرة . وهي في تأرجحها تميل شمالا فيميل معها ميزان الحياة ، وتختل من الميزان كفتاه ، فكفة في شمال الأرض ، تثقل بالذى فيها من قوة وفتوة ، ومن غنى وثروة ، هى هبات الربيع والصيف ، بينما الكفة الأخرى فى جنوب الأرض تشيل ، عن فتور وخمول ، وعن اجداب وامحال ، هى هبات الخريف والشتاء . والشمس فى تأرجحها تميل جنوبا فيميل معها ميزان الحياة ، فيعطى الفتور من كان أعطاه القوة ، ويعطي الجدب والمحل من كان أعطاه الغني والثروة . وفي ميلان الشمس شمالا وجنوبا ، بالأفقار من بعد اسعاد ، وبالاسعاد من بعد افقار، يبقي أوسط الأرض على استواء ، لا يكاد يحس عاتق

الميزان حين يميل ، ربيعه أشبه ما يكون بخريفه ، وصيفه أقرب ما يكون إلى شتائه .

* * *

وأحب الفصول إلى سكان الأرض جميعا الربيع ، لأنه أول اليقظة وأول التفتح ، وهو فصل الولادة والايلاد . وفيه تولد حيوات جديدة ، وفيه تتجدد حيوات قديمة . فهو فصل التغير والتبدل ، وهو فصل الأمل البادىء ، والحب الناشىء والشوق الراجع المعاود.

والربيع نغمة واحدة جميلة ، تنتظم الحياة جميعا ، فى بحر أو أرض أو سماء .

* * *

ومن يقظة الربيع الأولى يقظته فوق الشجر . فالبراعم المختومة على الأفرع ، وبيها حصيلتها القديمة من غذاء ، تفض ختامها ، وتتفتح عن ورق صغير أخضر . وبالورق الأخضر يأخذ يتغذى الشجر من بعد جوع ، ويفطر من بعد صيام . والورق هو الذى يجمع طعام الشجر من الهواء من الضياء . والجذور تمتلىء بماء الأرض من بعد فراغ . وفى ماء الأرض حاجة النبات من ملح

وسماد . وتجرى العصارة صعدا فى عروق جمدها الشتاء ، فألانها وطراها الربيع . فإذا شبع الشجر وارتوى ، أخذت براعم الزهور تظهر وتبين ، ثم تتفتح تيجانها بيضاء وصفراء ، وبنفسجية وحمراء ، فيجتمع على رأس الشجرة من الزينة الناصعة البارعة ما لا يجتمع مثله على رؤوس العرائس وهن حسان . وما الزهور للشجر إلا أوعية النسل الجديد . ومن الشجر ما يسبق إلى النسل قبل الشبع ، فيزهر قبل أن يورق . ومن الشجر ما يسبق إلى الشبع قبل اتسال ، كما يفعل الإنسان ، فيورق ثم يزهر .

وإذا أجتمع للشجرة الورق الأخضر ، والزهر الأبيض والأصفر ، فقد اجتمعت لها أسباب الحياة جميعا .

* * *

ومن يقظة الربيع يقظته في البذور ، تلك التى نثرها النبات وفرقها الريح فى عام سبق عندما اشتد البرد وتجهم وجه الحياة ، فقبعت من الأرض حيثما وقعت ، تنتظر على جمود فرصة الحياة أن تعود . وتعود فرصة الحياة بالربيع ، فتأخذ تدق فى الأرض جذرا ، وتأخذ ترفع فوق الأرض ورقا . ثم لا تلبث البذرة ، على

الماء والغذاء ، وعلى الدفء والضياء ، أن تكون نباتا . ومن عجب أن يكون فى البذرة للجذر منبت ، ويكون للورقة منبت ، ثم تقع البذرة من الأرض مقلوبة الوضع فينبت الجذر إلى عل ، ولكنه لا يلبث أن يدرك خطأ الوضع ، فيدور ليغوص فى الأرض إلى أسفل، حيث الملح والماء . ويدور الساق بورقته أو ورقتيه إلى أعلى ليغوص صاعدا فى الهواء حيث الغذاء والضياء .

ومن الصحراء ، وهى ليست مظنة النبت والانبات ، ما يأتى عليه الربيع وهو أصفر التربة أو أدكنها ، فلا يلبث أن يكتسى بساطا من سندس أخضر ، تتخلله فى ازدحام عيون للزهر ناظرة، أو شفاه له باسمة ، ويتزركش البساط زركشة تزرى بزركشة الصنعة وعمل الفنان .

يحدث هذا فى صحراء مصر ، إلى جانب الاسكندرية ، ويحدث هذا فى روسيا وسيبريا ، فى البرارى الشمالية ، حيث الثلج قد ساح ولم يكد . فإلى هذه البرارى ترسل الشمس خيوطا من دفء ونور ، لا تلبث أن تستحيل فجأة إلى نسيج من نضرة ذات ألوان .

* * *

ومع يقظة النبات والشجر ، يستيقظ الحشر . والنحل من أكثر الحشر حركة ، أو أعظمها جدا ، وأبعدها فى الطواف مدى . وهو يطوف ليجمع من الزهر الرحيق . وهو اذ يجمع رحيقه يؤدى للحب فرضا وجب . فتلك الزهرة الذكر ، الذى حط عليها ، قد حملته من حيث لا يدرى رسالة للحب هو ملقيها عندما يحط على زهرة أنثى يطلب رحيقها . وبالرسالة ، وهى من طلع ، يشتفي الشوق ويستقر الحب بعد أن كان واقفا حائرا يترقب .

* * *

والطير تنطلق فى حناجره بالربيع الأصوات المكبوتة ، وتسوغ فى مجاريها الأغاريد . والصوت فى الحيوان سبيل الغزل . وقد بدأ الصوت، أداة للغزل ، بداية لا تصح فى الاسماع ولا تحلو ، عند الضفادع . ولست أذكر الحمير . وبلغ الصوت ، أداة للغزل ، غاية الصنعة وغاية الرقة عند الطير . والصداحون الطلابون المتوددون فى الطير هم في العادة الذكور ، يرفعون عقائرهم بالغناء ، والأنثى قابعة تسمع ، أو هى تنط هنا ، وتدور هناك.. فى غير أبعاد . ثم يكون العطف ويكون الرضا بالخليل خليلا ، بل بالزوج زوجا . وتكون زيجة ثابتة باقية ولو لم يمهرها إمضاء ولم

تسجل في كتاب . ويمضي الاثنان على الأمل ينظران البيت أين يكون ، والعش أين يصنع ، على غريزة كالفهم . وتمضي الأنثى تبني عشها لأول مرة ، وعلى غير تعلم ، فتحسب أنت من دقته ومتانته ، واطمئنانه في مستقره ، يغالب المطر والريح ، إنها إنما بنته للمرة المائة .

وقد يكون الغزل على الصمت ، فتكون الحركة أداة التودد ، ويكون الرقص . وتشترك في الرقص حتى العناكب . فمن العناكب ما يتقن الرقص اتقانا ، لأنه سبيله إلى الأنثى . هو لها الشعر والطبل والزمر والموسيقى . وقد يقترب العنكبوت الذكر من الأنثى ، ويهز بيتها ، وهو من نسيج رقيق ، ايذانا بحضوره . ثم هو يلعب ألاعيبه ، فاما أن يحوز الرضا ، وأما الهرب السريع . وقد تكون النجاة في هربه . فإن الأنثى لو رضيت ، وأخصبت ، فأنها لا شك آكلته من بعد اخصاب . فهكذا تفعل نساء العناكب برجالها .

وقد يكون سبيل الأنثى إلى الذكر ، والذكر إلى الأنثى ، رائحة تفوح . وقد تحمل الرائحة فراشة أنثى ، تنفضها من جناحيها في الجو نفضا وهي تطير ، فيتأثر بها الذكر أثرها ميلا أو يزيد . ومن ذوات الثدي ما تسقط الرآئحة في طريقها اسقاطا ، فيعرف منها

الذكر ، أو تعرف الانثى ، أين يكون صاحبها . واستخدام الأنثى من بنى الناس العطور والروائح معروف مشهور .

والألوان تلعب في الربيع أيما لعب . فليس الشجر وحده هو الذى يزهو بألوانه ، وليست هى الأرض وحدها التى تباهى بزهورها ، أبيضها وأصفرها ، والأحمر والأزرق ، ولكن كذلك يباهى الحيوان من حشر وطير . وما كانت العين ، وهى باب الحب الأول ، أن تنسى عن دخول الحب من الأحاسيس بابا .

والذى اعتاد من الناس أن ينظر إلى عل ، سيجد فى الربيع من ألوان الطير واقفا على الشجر ، ومن ألوان جناحيه مبسوطة وهو طائر فى السماء ، ألوانا تزرى بلون الزهر وما يخرج النبات من شيات .

* * *

وليس الحب فى ذوات الأربع ، بأقل منه فى ذات جناح وغير ذات جناح .

يعرف ذلك من عاشر البقر وألف الأغنام ، وكل ذات ثدى تسعى . أنه الربيع يتردد صداه فى كل الأحياء ، وتجرى هرموناته فى كل الدماء . وترى النعاج طالبة راجية صابرة مخلصة ، فإذا جاءها بنوها ، فالتواثب منهم والتلاعب ، وهو

لأعيننا متعة للحياة صغيرة ، وهو للحمل انتعاش ولهو فى احضان الطبيعة الفرحة المرحة ، وهو له المران الأول على صناعة العيش .

* * *

وبنو الناس ، وقد تغلبوا بالمدنية والصنعة على الفصول ، فسووا ما أمكنت التسوية بين اخصابها وامحالها ، وبين اعطائها ومنعها ، وبين حرها وبردها ، وبين أنارتها واظلامها ، لم يفلتوا من آثار الربيع إذا حل ، ولم يسدوا آذانهم دونه إذا دعا ، ولم يغمضوا عيونهم عن صور له رائعة ، يقيم لها معارض للفن شائقة، فى كل ركن وبكل أرض ، وهى معارض تغشى بغير دعوة، ويدخلها الداخل بغير حساب .

* * *

فهذا هو الربيع . هذا هو الفصل الأول الذى تنبت فيه الحيا وتترعرع . وفيه يسيطر الحب على كل الخلائق ، من حى يحيا ولا يتحرك ، وذاك النبات ، ومن حى يحيا ويتحرك ، وذاك الحيوان ، ومن حى يحيا ويتحرك ، وله فهم وله لسان ، وذاك هو الإنسان .

وأن يكن الربيع فصل الازهار ، فالصيف فصل الاثمار . فى الربيع تبدأ الحياة ، وفى الصيف تبلغ الحياة أوجها وتبلغ أمدها

وتبلغ غايتها . فى الربيع تبذل الطاقات فى رفق وعلى مهل ، وفى الصيف تبذل الطاقات فى عنف ، وفى تواصل وتدفق . فإذا أتى الخريف تكون قد قضيت الحاجات ، واستنزفت الطاقات ، وبدأت تكل الجهود . وما دام لابد بعد كل جهد من راحة ، فقد مهد الخريف لهذه الجهود أن ترتاح . فالشجر يسقط أوراقه بعد كلالها من العمل المضنى ، عمل الغذاء والبناء . وهو ينثر بذوره للريح بعد تزويدها بالزاد الذى يكفيها ، ويرجو لها الحياة ويرجو لها النجاة . والحشر يموت أكثره ، وهو يصل حياة جنسه على السنين بالأبيض يخبئه فى شقوق الأرض ومخابئها . والطير يقل ، وقد يترنح وقد يموت ، وتبقى منه بقية تواصل العيش فى كل ركن من أركان الأرض . وينزل الشتاء على الخلائق نزول الليل فتسكن الطبيعة وتنام ، على قلة من نور وقلة من نار ، وهى تتربص بالشمس أن تقترب من بعد ، وأن تصل بعد قطع ، لتتنفس الأرض بالربيع أنفاسا جديدة ، تشتد على صيف جديد ، يعقبه خريف فشتاء وهكذا دواليك ، حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسماء.

للنساء حروب ناعمة *

حدث زرادشت، قال:

فى أصيل يوم كهذا اليوم، ذهبت مذهبى وحدى، فلقيتنى امرأة ضئيلة قليلة .

قالت المرأة : إن زرادشت تحدث لنا نحن النساء كثيرا فى أمور كثيرة، ولكنه لم يتحدث لنا قط عن المرأة .

فقلت لها : إن الرجل لايتحدث عن المرأة إلا للرجل.

قالت : إذن فتحدث لى أنا عن المرأة، فقد بلغت السن التى عندها أنسى ما أسمع وأنساه سريعا .

فرضيت، وأخذت أقول لهذه المرأة العجوز :

كل ما فى المرأة عماء، والمرأة لغز الألغاز، ولايسأل أحد سؤالا فى شئون المرأة إلا ويهدف جوابه الى هدف واحد .. ذلك الحمل .

إن الرجل، للمرأة، ليس إلا واسطة، غايتها دائما إلى الولد .

ولكن ما المرأة للرجل؟

إن الرجل يهوى فى الحياة شيئين ؟: اللعب وركوب المخاطر .

وهو من أجل ذلك يطلب المرأة، لأنها أخطر مايلعب به اللاعب .

---

* هلال - سبتمبر ١٩٤٩

وعلى الرجل التدرب للحرب، والاصطلاء بنارها، وعلى المرأة ترفيه الرجل المحارب . وماسائر العيش إلا وهم كاذب .

والرجل المحارب يحب الحلو، ولكنه لايحب الحلاوة الزائدة. ومن أجل هذا هو يحب المرأة ، فالمرأة مهما حلت ، بها عند المذاق مرارة لا تخفى.

* * *

هكذا حدث زارادشت، نبى الفرس وحكيمهم، أو هكذا حدث على لسانه، نيتشه فيلسوف الألمان.

ونحن إنما أوردنا من ذلك الحديث طرفا، لنقول ما شد ما تغيرت الأيام .

ولكن هل تغيرت الأيام حقا؟

أليست غاية المرأة الى اليوم الولد ؟ وأليس الرجل واسطة ذلك إلى الأبد؟

ثم عن الحرب واللعب ..

لقد كانت حرب قريبة، وكان معها لهو وترفيه .. وما رأى فيلسوف الألمان حربا كهذه الحرب، ولا ترفيها كهذا الترفيه .. وإنما قال ماقال مجازا، ثم مضى الزمان حتى رأيناه نحن عينا.

* * *

حضرت حفلا لجماعة تناصر المرأة . ونظرت إلى المسرح فلم أجد إلا ذات خلخال، ولكن بغير الخلخال، صفا واحدا من النساء تهيأ للقتال ، وليس بينهن رجل، فعرفت إلى من سوف تسدد فى هذه الحرب السنان، ولحم من ستعض هذه الأسنان، وهى كاللؤلؤ النضيد ، وفى جلد من ستنشب هذه الأظفار، وقد صبغتها دما ليست له قسوة الدماء، إنه كدم الشفاه أدماها كثرة التقبيل، يرشفه الراشف فى مواضعه رشفا .

ونظرت فى قاعة الحفل، فى السامعين، فوجدت النساء كثرة، والرجال قلة، فعرفت أنهن لم تفتهن دعوة نفر من الاعداء قليل، حتى تكون الحرب استشهادا، ورأيت الحواجب مزججة. ورموش العيون مسودة، والخدود موردة، والشفاه معنبة، والصدور تزينها العقود وتزينها النهود . وعلى المعاصم أساور، وعلى الأصابع جواهر، دمية حقا، من بعد دمية، من بعد أخرى، تطلب اللاعب .. فمن يلعب بها؟ لقد صدق زرادشت. أن الرجل هو اللاعب، وما دعا هؤلاء النساء هؤلاء الرجال، إلا لعلمهن أن الدمى لاتكتسب الحياة بغير الحركة، فدعون لها الرجال محركين، ونسين فى غمرة الواقع اليقين أن الرجل خصيم مبين .

والحلاوة التى ذكرها حكيم الفرس، أين هى . أين ؟

إن كل شىء حولى حلو، هذا الوجه القمرى ، وهو خير من القمر، لأن القمر حجر، وهو بارد، أما هذا الوجه فمن لحم رخص ودم دافىء، وهذا الصدر الملائكى، وهذا القوام الشيطانى، وهذه النظرة، وتلك الخطرة.

وهذا العطر الذى هو كبعض روائح الجنة، خرجت منها ضالة فتصوبت الى الأرض.

حلاوة بالغة تتذوقها النفس بألف لسان .

والمرارة التى ذكرها حكيم الفرس أين هى أين؟

وبدأت الخطيبات تتحدث، وتقول فى الرجل ماقال مالك فى الخمر. نفثن فى الخمر سموما جعلتها غير سائغة، فقلت تلك هى المرارة، وقلت لقد صدق زرادشت: إن الرجل المحارب يحب الحلو، ولكنه لايحب الحلاوة الزائدة، من أجل هذا هو يحب المرأة، فالمرأة، مهما حلت، بها عند المذاق مرارة لاتخفى .

* * *

لقد طلبت المرأة الحرية منذ جيلين أو ثلاثة، عن طريقها المألوف ذلك الثورة، وكانت ثورة في مزاجها أنثى . كانت وسيلتها قذف

النوافذ بالأحجار، واشعال النار فى بيوت من خاصموهن من رجال، وفى صفع رجل الأمن وضربه وبايقاعه على الأرض ثم النط عليه بالأحذية وكعوبها وهى لعمر الله أليمة .

وقام رجال الأمن الظرفاء عن مراقدهم، وهم يقولون مايقول الرجل البلدى : ضرب الحبيب ، كأكل الزبيب، وغالى النساء أحيانا فجئن بالمفاجع، امرأة منهن وجدت طريقها إلى الاحتجاج الصارخ فى أن تأخذ بلجام جواد الملك، ملك بريطانيا، لتوقفه وهو يجرى فى السباق، سباق الدربى، ذلك السباق السنوى الشهير، وسقطت تحت الخيول، ودقتها الحوافر، وتركتها جسة هامدة، وألوف من الأعين تنظر، أكثرها عيون رجال ، ووقفت لهذا الحادث قلوب عن دقها، أكثرها قلوب رجال، وظلت حواء تحارب قلب الرجل، بقلب الرجل، وتقهقر آدم، وتقدمت حواء . وكسبت بالعنف كسبا كثيرا، وأعان حواء فى حربها حربان دوختا الدنيا . حرب عام ١٩١٤ وحرب عام ١٩٣٩ والحرب تنسف العادات وتفكك ما استعصى عقده من التقاليد . فكان للمرأة نصر من بعد تلك الحرب الأولى، ونصر أكبر من بعد تلك الحرب الثانية .

وهل نصر كنصر سجلته النساء فى منظمة الأمم ؟ لقد خلقت لهن المنظمة العالمية لجنة تنظر فى حقوق النساء فى مختلف الأمم

وقدمت اللجنة تقريرا، ألفى كلمة اعلانا لحقوق النساء، قدمه ثمان منهن، من أمم متفرقة .

إن ثورة النساء لاتزال قائمة ولاتزال حربهن واقعة، يدرن دولابها ولكن بغير تلك الأداة .

لقد استبدلن بكعوب الأحذية ابتسامة حلوة ترتسم على الشفاه، ووجدن فيها السلاح الأقوى، فلجنة الثمانية هذه على رأسها فتاة زانها الجمال قبل أن يزينها العقل وقبل أن تزينها الأمومة وهى معجبة بجمالها وجمال من حولها . سألوها فيهن ، قالت : كلهن أنثوة مغرية، فمنذ أجتمعن تقدم الرجال، نعم الرجال، لأكثر من واحدة، يطلبون أيديهن فى زواج .

* * *

لقد تغير الزمان منذ زرادشت ولكنه لم يتغير فى الجوهر إلا قليلا.

إن المرأة قد تكسب حق التصويت فى سياسة وقد تكسب ماتراه نصيبها فى إدارة وقد تكسب حق العمل، وحقوقا لها فى زواج وحقوقا فى طلاق، وقد تخاصم الرجل إعلانا خصومة تنتفخ

منها أوداجه ويتخدش فيها وجهه، ويتقطع قميصه حتى تقول أنت: مابعد هذا الخصام وئام، ولابعد هذا الانفصال إلتئام.

ثم تنفض الجلسة، وتأتى للاستراحة فترة، تبحث فيها عنه وعنها فتجدهما وراء الكواليس قد جمعتهما قبلة .

إن الغاية لاتستغنى أبدا عن وسيلتها، والرجل وسيلة المرأة، والولد غايتها .

هكذا قال زرادشت .

جمال الشيخوخة *

قيل للشيخ : « أنت جميل» فلم يسمع ما قيل .. لأن بأذنه صمما أو بعض صمم ، أو لعله شك فيما سمع فآثر أن لا يفهم ، فعاد القائل يقول للشيخ : « أنت جميل» . وعند ذاك ابتسم .

ومضت ساعة ، مر من بعدها عفوا أمام المرآة ، فذكر كلمة الجمال التى قيلت ، فتوقف . وراح ينظر في المرآة ، ينظر إلى هذا الوجه الآخر الذى ظهر فيها ، وتأمله مليا ، ثم انصرف عن المرأة وهو يبتسم .

ومضى يوم أو يومان ، فإذا به يقلب فى أوراقه ، يبحث عن ورقة قديمة ، بين ما جمع الزمان فى خزانته من ركام ، فتقع يده غير عامدة على ظرف كتب عليه أن به صورا . ويتوقف عند هذا الظرف ، ويفتحه ، ويأخذ ينظر فى الذى احتواه طويلا ، صورة من بعد صورة من بعد صورة . سجل الزمان الطويل . الزمان العتيق ، فالأقل عتاقة ، فالحديث ، فالأحدث . فيجد محاصيل هذا الزمان على نقيض وصفه . فصورة الزمان العتيق أحدث . وصورة

* هلال - مارس ١٩٥٥

الأقل عتاقة إنما هى أقل حداثة ، وصورة الحديث عتيقة ، وصورة الأحداث اعتق . ويطوى الصور . ويأخذ يتأمل ، غير ناظر إلى شئ ، مليا . ثم يقوم عما هو فيه ، ويعاوده ذكر الجمال الذى قيل، وهو يقوم ، وتعاوده الابتسامة ، ترتسم على وجهه ، أو يعاوده ظل منها .

ثلاث ابتسامات ، اختلف ما وقع وراءها من أحاسيس ، هى فيما بينها تنوعت . واختلف ما وقع وراءها من معان ، هى فيما بينها اختلفت . وهكذا النفس تعترك بالذى به تعترك ، ويصطخب فيها الموج ويصطدم ، ولا ترى من أثر هذا العراك والصخب والصدام ، غير ابتسامة على الوجه ، قليلة ، هادئة ، غامضة . وتسأل : هل اقتنع الشيخ بأنه جميل ؟

ويجيئك الجواب بأن الشيخ ما اقتنع ، وما همه أن يقتنع . ولكنه راح ينظر فى الجمال ، كيف كان ، إن كان حقا كان ، وكيف زال ، إن كان حقا زال . أم هو تبدل وتغير ، فحل جمال محل جمال ، وإن كان للطفولة جمال على ضعف ، فقد يكون للشيخوخة جمال على ضعف وجلست إلى الشيخ أتحدث ، وجلست من بعد ذلك إلى نفسى أتحدث ، وخرجت آخر الأمر للجمال بأكثر من وجه جميل .

إن من فضل الجمال أن له رخصة واسعة . سألت العارفين بعلم الجمال ، بفلسفة الجمال - والجمال والنظر فيه لاشك بعض فصول الفلسفة - فوجدت بينهم اختلافا في معناه ، واختلافا في مبناه . يقول باحث أن كل ما سرك جميل . فيقول الثانى : يسرنى أكل القرع . فيقول الأول : فالقرع جميل ، ويجاريه الثانى يبحث معه فى سر جمال القرع ، فلا يهتديان . وباحثان آخران ، يقول أحدهما أن معانى الجمال تقبع فى الشئ الجميل ، فهى «موضوعية» . فيقول الثانى أن معانى الجمال تخلق خلقا فى نفس رائية ، فهى «شخصية ذاتية» .

وفى ظل هذا الاختلاف يستطيع القائل أن يقول فى أمر الجمال ما يقول ، وهو آمن من أن يقال له أخطأت .

وأذن يستطيع أن يتحدث المتحدث عن جمال الشيخوخة ، مادام أن معانى الجمال «شخصية ذاتية» تخلق خلقا فى نفس رائيها والحق إنى لم أجد أوسع من لفظة الجمال معنى ، بل معانى، تتصل بكل شئ . وهى تتلون بلون هذا الشئ ، وبجو هذا الشئ ، وحتى بموضعه من هذا الوجود .

فإذا أنت تحدثت عن المرأة .

فقلت إنها جميلة ، كان لقولك معنى غير معنى تقوله امرأة ، تتحدث عن امرأة مثلها تحسبها جميلة . وهنا قد يختلف الرجل وتختلف المرأة فى التقدير . لأنه يدخل فى التقدير شئ يقال له الجنس ، تختلف فيه المرأة عن الرجل ، بقدر ما يختلف الرجل عن المرأة فيه . وأذن فهذا النوع من الجمال يشوبه ، غير شائب إياه ، ما يمهد الرجل والمرأة للنسل والانسال . وجمال الإنسان ، على هذا ، فوق الذى فيه من معنى عام للجمال ، هو جمال نسل وانسال . ولهذا وجب أن تصحبه صفتان : القوة والفورة .

والشيخ منقوص القوة والفورة .

ومن أجل هذا كان الشيخ منقوص الجمال الإنسانى ، بهذا المعنى .

ولن يسوء الشيوخ إنى وصفتهم بنقص فى القوة ، وبرود فى الحرارة .. فالشيخ عندى هو من بلغ التسعين .

وإنى اعتمد فى هذا التقدير على المرأة التاريخية ، ولا يحضرنى الآن اسمها ، التى سألها سائل : متى يفقد الجسم الرغبة فى مباهج الحياة . فقالت : ولم تسألنى أنا ، وأنا لم أبلغ بعد إلا التسعين ؟

فالرجل إذن – وكذا الضلع الذى خرج منه – كلاهما يفقدان بالشيخوخة الكثير من الجمال . من ذلك الجمال الإنسانى الذى يعتمد على حرارة فى الجسم يبعثها ما يجرى فيه من تفاعلات كيمياوية فسيولوچية .

ومن أجل هذا ، ابتسم الشيخ عندما قيل له أنت جميل .. وابتسم على الأخص أن قالت له ذلك امرأة ، كاد قولها أن يكون سخرية . وهى ما سخرت .

أنها اسقطت من الحساب تلك العناصر التى تدخل إلى جمال الإنسان فتهوش على معانيه . إنها نظرت إليه تطلب ذلك الجمال الذى تجده فى الجماد . ذلك الذى تجده فى الصخر وفى الحجر . ثم أضافت إلى ذلك ما شع لها ، من وراء هذه الصورة الجامدة ، من معان للحياة ، لا تتصل بالانسال ، ولكن تتصل بالحكمة ، الحكمة الإنسانية الباقية الخالدة ، التى لا تأكل منها الشيخوخة ، ولا تنقص منها ، ولكن ينقص الشباب .

وما كل شيخ بجميل . ولا كل شاب أو شابة بجميل . ولا كل شاب أو شابة بجميل أو جميلة .

ذلك لأن الجمال ليس قوة وحرارة فحسب ، ولكنه شكل .. والجمال ، فيما يختص بالعين الباصرة ، كله أشكال . أنه هندسة

.. ولكنه ، فى الإنسان ، غير هندسة اقليدس ، هندسة المثلثات والمربعات والمخمسات . ولا هى حتى هندسة دوائر . إنها هندسة فراغية لا تحكمها حتى هندسة الفراغات .

إن جمال الرجل وجمال المرأة ، جمال الشكل ، جمال عظام وجلد . العظام تقيم ، وهى تلف ، والجلد يدور ، ويمتلئ باللحم والشحم ، فتكون البضاضة .

والشيخوخة تضعف من عظم ، وتقوس من ظهر ، وتفرغ الجلد من لحم وشحم ، فتدخل فى الوجه الأملس الأخاديد ، وتدخل التجاعيد .

فإن يكن بالشيخ جمال ، فهو بقية من ذلك الجمال الذاهب ، أفلتت من صنع الأيام والليالى .

وقد تذهب حتى هذه البقية ، ويبقى فى الشيخ جمال ، هو جمال الآثار . والجمال فيه عبادة ، هى من عبادة الزمان .

قال حافظ يخاطب امبراطورة فرنسا ، أوجينى ، وقد مرت بالقنال :

إن يكن غاب عن جبينك تاج

كان بالأمس أشرف التيجان

فلقد زانك المشيب بتاج

لا يدانيه فى الجلال مدانى

ذاك من صنعة الأنام وهذا

من صنع المهيمن الديان

أنه جلال الشيخوخة ، وهو من جلال الله .

وجمال آخر فى الشيخ ، لاتنطفئ جذوته أبدا . أن الروح يتصل بناؤها ، بينما الجسم يتصل تهدمه ، والروح يزيد فى جمالها النضوج والروح تطل من العين . والروح تضطرب فتظهر خلجاتها فى سمات الوجه . وأنت ترى نفس الشيخ فى عينه وفى وجهه ، كما تراها فى مرآة.

إن أشقى ما يشقى به الشيخ ، النفس الفتية ، فى الجسم العجوز ، العاجز . هذا ما عرفنا من أشياخنا الماضين . وقد عرفنا ما النفس الفتية ، ولم نعرف بعد ما الجسم العجوز ، العاجز .

العلم
بين الحقيقة والخيال

الذرة فى حياة الناس *

نعم ، إن الذرة سوف تكون فى حياة الناس، لتمد فيها على الراحة والرفة والخير، أو هى سوف تكون في حياتهم ريثما تختمها ختاما سريعا، أو ختاما بطيئا على الألم والعذاب.

إن العلماء اليوم، ومن قبل اليوم، فى بحوثهم للذرة، يسلكون طريقين مختلفين، يستهدفون فيهما غايتين متباينتين، بل متناقضتين، إحداهما للسلام والاخرى للحرب. إحداهما للعمار والاخرى للدمار. ولو أن بحوثا للدمار استمهلت حتى تفرغ بحوث للعمار، فقد يجد الناس أنهم فى موقف من الحياة فيه الخير أكثر وأغزر مما يتكالب عليه الناس، والعيش أمتع من أن يعافه الناس فيخرجوا عنه هكذا سريعا إلى الموت

أما الذين يستهدفون ببحوثهم الدمار، فيطلبون من الذرة أن تعطى بعض طاقتها العارمة - وهى تقاس فى الذرة الواحدة بملايين من الفولتات الألكترونية، والذرة الواحدة من الصغر بحيث يعجز عن كشفها أى مجهر مهما كبر، والذرة الواحدة، حتى

* هلال - اكتوبر ١٩٥٠

أثقلها، تزن بالقران إلي بطيخة بمقدار ما تزن البطيخة بالقران إلي هذه الأرض – أقول أن الذين يطلبون الدمار يريدون أن تعطى الذرة بعض طاقتها العارمة في لمحة هي أقصير من لمحات البصر، فتسرى فيما حولها بالتدمير والتخريب في لمحات، وتطوى الناس في بيوتهم طي الرداء، وهو رداء الموت الذي لا يود صاحبه أن ينزعه، لان في نزعه الحياة التي هي كالموت من غير راحة الموت

وأما الذين يستهدفون ببحوثهم العمار، فيطلبون من الذرة أن تعطى طاقتها العارمة أيضا، ولكن على المهل، وعندما يطلب منها. فتكون بطاقتها كالصنبور بمائة، يفتحه الرجل فيجري، أو يغلقه فيحبس . وحياة الانسان طاقة. ورفاهة الانسان، وهذه المدنية، وهذه الصناعة انما هي انتجة لطاقات عدة. منها طاقة الفحم، ومنها طاقة الزيت . ومنها طاقة الماء الذي ينحدر من عل فيحدث الكهرباء. وهذه الطاقات محدودة، وهي سوف تنفذ. فالفحم في انجلترا قدروا لنفاده قرنين ونصف قرن. والفحم في أمريكا قدروا لنفاذه ألف عام. والزيت قدروا لنفاده أعواما. والامم من هذا النفاد في خوف، فهي تتصارع عليه وتتقاتل. والزيت أخرج أمريكا عن ديارها إلي الشرق وقد كان مزاجها أن تنطوي على نفسها وفي

ديارها انطواء. وصراع الامم فى مناطق الاستعمار صراع على الخامات ، ولكنه أيضا صراع على الطاقات ، ومنها الطاقات الانسانية، عبيد أفريقية، وعبيد القارات غير السوداء ولو لم يكن بهم سواد .

إن الذرة التي تعطي طاقتها على مهل سوف تغير كل هذا

إنها ستكون أرخص طاقة في الوجود، وأكثر طاقة في الوجود، لانها طاقة الوجود، وبها الوجود يفني، لان الذرة فيها تفني بحسبانها مادة توزن وتقاس

* * *

إن الفحم طاقة مخزونة فى بطن الارض، صنعتها الشمس منذ آلاف القرون، لما صنعت ذلك الشجر ومدت فى مساحات ذلك الغاب. وطاقة الزيت كطاقة الفحم مخزونة، وكل خزين إلى نفاد. والظروف التى كونت هذا الخزين لن تعود. وذهاب هذا الخزين، من فحم أو زيت، معناه تقوض هذه المدنية، وأغلاق هذه الصناعة، والوقوف بهذه المواصلات في أرض أو بحر أو هواء، ثم رجوع القهقرى بالعيش إلى الحال الاخشن، والى الحال الامهل، وتنكمش المدن وتنعزل، وتنعزل القرى، وتعود الحياة، من حيث تسكن أو

تتحرك، إلى ما كانت عليه الدنيا منذ ثلاثة قرون. ويتقلص الناس، وتقلص أعدادهم، وتعود العواصم إلى حين كانت باريس، أم المدن، تضم مائة الف من السكان من أجل هذا كان لابد للمدنية، لكى تطرد ، من طاقة جديدة، من وقود جديد

ومن الناس من يحسب أن هذا العيش، على هذه الأرض، يجرى اعتباطا ، على غير نظام، وبغير ترتيب ولا تدبير. ومن الناس من يرى أن هذا العيش له نظام مرسوم وطريق مرقوم وهدف مقدور. وأنا من هؤلاء القوم الاخيرين الذين يؤمنون بأن هذه الدنيا أنما تسير إلى غاية محتومة، حتمها طبع الانسان وطبيعة الارض، وحتمتها، فيما نحن بصدده، عقول بهذه الجماجم ، وذخائر فى هذه الأرض

والا فكيف يفسر المرء انفتاح باب الذرة، مصدرا للقوى، فى الوقت التى آنذرت فيه أبواب للقوى، قديمة مألوفة مطروقة، بانغلاق؟

وانسياقا مع هذا التفاؤل أرى أن الذرة سوف تكون فى الناس، آخر الأمر، للعمار لا للدمار. وللسلام لا للحرب.

* * *

إن الذى خوف الناس، وخوف العقلاء، من هذا الكشف، أن الانسان سبق بعقله، وتأخر بقلبه . وأن ذكاءه اتقد فى حين أن الروح لم تتقد مثل اتقاده. والذكاء يذهب بعيدا ولكنه لا يذهب دائما فى طريق الهدى إذا لم يكن له من الروح عاصم

والذى خوف الناس من هذا الكشف أن الجهل فى الأمم ضارب، حتى الامم المتعلمة جماهيرها أجهل ما تكون فى علاقة الانسان بالانسان، وعلاقة الامم بالامم. وأن قادتها لهم ذكاء ولهم فطنة، ولكنها الفطنة المحدودة، فطنة المحل الواحد، والمقام الواحد، والبلد الواحد، فهى لم تتسع بعد لتشمل بلاد الارض جميعا

والذى خوف الناس من هذا الكشف أن الامم، حتى الديمقراطية المتقدمة، لم تصل بعد بالديمقراطية إلى غايتها. فهى فى أرضها يستغل بعضها بعضا، ويركب بعضها ظهور البعض. وهى فى غير أرضها تطلب دائما ما تستغل، ومن تستغل، وتطلب الظهور التى تركبها. والاستغلال ميزة ، والناس لا تنزل عن ميزاتها الا بحرب. ومزاج الحرب له غضب يفقد صاحبه عليه نعمة التبصر، فهو لا يتورع أن يدفع بأية أداة . وقد رأينا الفرد يغضب فيغمد سكينه فى صدر أو بطن، ويعلم أنها المشنقة، ثم لا يبالى. وتلك جهالة. وكذلك الامم لها جهالتها .

ومع هذا فأنا أؤمن ، مما يحدث الآن فى المجتمعات الانسانية، بأن شيئا جديدا يجرى فيها . وانها بدأت تغالب وتناصب وترمى عن ظهورها أثقالها. وما هذا الصراع الاسيوى الا بعض هذا . وما هذا الصراع الاوربى، وكل أمة أوربية لاشك منشقة على نفسها، الا بعض هذا. وما حديث الوحدة الاوربية، والحكومة العالمية الا بعض هذا . ولا عبرة بأسياد، أبطرهم المال، أو أبطرتهم القوة، يقولون غير هذا. أن البحر يحزر ، ثم هو يمد، وكثيرا ما يمد فيغرق غافلا آمنا، لان المد في بطنه غادر

وقد لا يمنع الغباء الانسانى الحاضر من كارثة

قد تنفجر قنبلة ذرية هنا أو هناك. وقد تتهدم مدينة أو عاصمة هنا أو هناك. وأحسب أن هذا لو حدث فليس بضار. أن لكل شيء ثمنا، وسوف يكون ثمن هذا الدمار الكفر بما يعبد الناس اليوم من آلهة، لا آلهة من لحم ودم، ولكن آلهة من معان، قد استعبدت الناس طويلا، وآلهة من عواطف آضلت الناس طويلا

فأنا الآن قد أستعجل القنبلة ولا أستبطئها، لا لخير نفسى، فليس لى فيها من خير وليس لك، ولكن لخير الانسانية جملة

* * *

انى أحـيـانا أنظر إلى الحـرب فـأذكـر المثل الذى يقـول· «رب ضارة نـافعة» . أو أذكر الآية : «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» .

وأنظر إلى الحربين العالميتين الماضـيتين فـأجد فـيـهمـا الشـر وألسنة النيـران مندلعة، وأجـد فـيـهمـا الخـيـر من بعد انطفـاء تلك النيران وانطواء ألسنتها

إن الانسان كان أكثر تحررا من بعد الحرب العالمية الاولي مما كان قـبلهـا. وهو اليـوم، بعد الحـرب العـالمية الثـانية، أكثـر تحـررا وأكثر تطلعا إلي زيادة فى التـحـرر مما كان قبلهـا. ومثل الافراد الامم. فالذى لم ينـل الحرية اليوم هو أكثر تحفزا لنيلها، والجمعية الانسانية أكثر تهيؤا لقبول هذا التحفز، والرضاء به، والسبق إلى استرضائه أحيانا

ولعل هذا يـرجـع إلـى أن الحــرب تـفكك كل شـيء. وأن الحــرب التى تفكك الاجـسـام. وتفكك الأسـر، وتفكك روابط القـرى والمدن والامم، وتكشف الانسان على الدمار الشامل عاريا عاجزا سليبا فريدا الا من جثث حوله ودماء، هذه الحرب تفكك أيضا كل معقود فى نفسـه، وتحل العقد لتعيد ربطها من جديد. وهى قد ترتبط على

قديمها، ولكنها ترتبط أكثر ما ترتبط على حال أشبه بما يرجوه الناجون الباقون لمستقبل الانسان .

* * *

والحرب العالمية الثالثة إذا كانت حربا ذرية، فقد يمهد هذا لخبث الذرة أن يفرغ كله فى هذه الحرب، كما تفرغ الأفعى سمها، ثم لا يبقى من بعد الدرس الذى يتعلمه الانسان، ومن بعد التفكك والتربط، ومن بعد التحول العقلى والتحور النفسى، لا يبقى من الذرة الا خيرها

وعندئذ تجلس الذرة على عرشها فلا يكون وزراؤها الا الاخيار

وعندئذ يسهل العيش بها، وتكثر مؤونات الحياة. وتقوم القوى الذرية فى حقل بقرية، أو مصنع بمدينة، أو باخرة ببحر، تقوم تعمل على الجهد القليل والشكر الكثير والأمل الذى لا حد له

وعندئذ يعمل الرجل منا القليل، ويفرغ لكثير. وبكثرة فراغه يتجه إلى ترفيه جسمه باللعب، وإلى ترفيه عقله بالكتب، وإلى توسيع قلبه والسمو بنفسه عن عالم الحيوان، ذى المخلب والناب، إلى عالم أشبه بعوالم الملائكة ، حيث العيش تسابيح وترانيم، ولذائذ وعاؤها الأرواح لم يفطن لها بنو الناس إلا بوارق خاطفة فيما سبق من قرون.

الهجرة إلى القمر*
خرافة .. وهراء

قالوا : انه السفر إلى القمر..

فما أسرع ما صدق الناس !

وتكونت شركة في أمريكا ، أسموها «شركة السفر بين الكواكب». وأعجبني منهم احتياطهم هذا، فهم لا يسمونها «شركة السفر بين النجوم»، فالكواكب باردة، ومنها ما هو في برودة الثلج وأكثر بردا، والنجوم حارة، وهي نيران أحر ألف مرة من نيران الارض.. فالتنقل بينها كالتنقل من جحيم إلى جحيم.

وبلغ من تصديق الشركة هذه التي تألفت، لما زعمته من هذا السفر إلى الكواكب، وفيما بين الكوكب والكوكب، انها فتحت مكاتب تحجز فيها للناس المسافرين أماكنهم في الطائرات الذاهبة.

---

* هلال - مارس ١٩٥٦

وبلغ من تصديق الناس أن منهم من حجز مكانا له، للسفر إلى القمر.

وبلغ من تصديق الصحافة في سائر الامم أن أذاعت هذا الخبر في جماهيرها.. وصدقت الجماهير. وفي مصر هنا، فيما بيننا، من صدق!

ولم لا .. أليس العلم قادرا على كل شيء ؟

وقد اشترى قس بريطانى من هذه الشركة قطعة أرض فى القمر يبنى عليها كنيسة .. أن القمر لا يلبث أن يمتلىء بالسكان، ولا بد لعباد الله من هداية، ولابد من رعاية. وسبق الراعى قطيعه بل قطعانه !

ويأتينا الخبر اليوم أن المسيو «ديسان» مدير فندق مونتانا بمدينة نيس، على الساحل الفرنسى الجنوبى اللازوردى من فرنسا، أسرع هو الآخر فى حجز قطعة أرض على ظهر القمر يبنى عليها فندقا. قال انه لراحة السياح من عناء الرحلة الطويلة. واشترط أن تكونِ الإرض بجوار تلك الكنيسة، فالراحة تطيب أكثر فى جوار بيت الله.

وتهز رأسك هزة قليلة ، غاية القلة.. دليل شك يساورك ضئيل غاية الضآلة ، فيفتح هؤلاء المصدقون أعينهم فيك استغرابا واستهجانا كما يفتح المؤمن عينيه فيمن ظن أنه مؤمن مثله، فإذا به يستبين بغتة أن بقلبه بعض ريبة.. أنه الكفر والعياذ بالله

* * *

وفي الامس القريب تقاعد عالم من علماء الفلك فى دنيا العلم شهير نابه .. وهو نابه بما كشف هو نفسه فى علم النجوم من أشياء. وهو نابه كذلك بالكرسى الذى احتله السنين الطوال. انها وظيفة من اخطر وظائف الدنيا. أما الرجل فهو «سير هارولد سبنسر جونز»! واما الوظيفة التى عنها تقاعد فهى «الفلكى الملكى» . و«الفلكى الملكى» مدير مرصد جرينتش بالقرب من لندن. وهو المرصد الذى منه تبدأ خطوط الطول اصطلاحا علي وجه هذه الارض . وهو المرصد الذى يضبط الزمن لاهل الارض . وهو أخطر مرصد فلكى فى الامم البريطانية

فإذا تقاعد عن هذا المرصد فلكي ملكى نابه، وجب ان يتخيروا خلفا له، فلكيا ملكيا نابها، واختاروا، فكان الرجل المختار هو الدكتور «رتشارد وولى» مدير المرصد القومى الاسترالى

وحضر إلى لندن..

والتف حوله رجال الصحف عند الطائرة لما هبطت فى لندن.. وعلى العادة امطروه اسئلة وسألوه عن السفر بين الكواكب .

قال : «كلام فارغ ، وعبث وهراء»

وذهلوا .. أن الفكلى الملكى للامبراطورية البريطانية يقول أن السفر إلى الكواكب خرافة وهراء!

ولست أريد أن أقول كما قال صاحبى أن السفر إلي القمر وغير القمر هراء. ولست أريد أن أقول أنه غير هراء .. ولكنى أقول أنه أقرب إلى خيال الشعراء منه إلى وقائع العلماء .. هذا عن السفر.. أما عن الهجرة إلى القمر، والى الكواكب، والاقامة فيها، واسكانها وأعمارها، من بعد سفر ، فهراء فى هراء فى هراء !

فهراء أذن ما طلب القس من اقامة كنيسة على سطح القمر..

وهراء أذن ما طلب صاحب الفندق من اقامة فندق إلى جانب الكنيسة خاصة

أقول هذا وأعلم أن الناس تحب الخيال، لان الخيال لذيذ.. والتخيل عملية فى الذهن لذيذة، وكذلك الخرافة ، وهى لذيذة الطعم عند عاقل وغير عاقل على السواء ، وأقول هذا وأعلم أن من رجال الصحف من هم أسبق من الجمهور إلى أبواب يفتحونها عن لذائذ الخيال، ويكرهون من يوصدها .

وأنا بى بعض خيال الشعراء، والتذ الاحلام.. ولكنى أتقى المخاطر دائما بأن أفرق بين اليقظة والمنام. ولو أن حلما لذيذا طال، وضمنت له الدوام، ما رغبت فى يقظة .

ولكنى لا أكاد أقول هذا حتى ينبرى لى من المصدقين، القريبى التصديق لما يهرف الناس، من يقول كيف تنكر شيئا هو فى العقل جائز؟ وجوابى لهؤلاء - وما أكثرهم - ان الجائز فى العقل البحت شىء، والممكن الواقع أو المحتمل الوقوع شىء آخر لقد جاز فى العقل أن يكون فى بنى الناس قوم لهم ثلاث أرجل وثلاث أذرع. أو قوم لهم عينان فى وجوههم وعينان فى أقفيتهم. هذا جائز عقلا .. ولعله كان أعون على العيش عملا ولكنه لا يمت إلى الواقع أو المحتمل بسبب .

وجائز أن نتخيل قوما يمشون على رؤوسهم وأيديهم، والارجل تجدف فى الهواء من فوق، تعين على سير.. انه الجواز عقلا مجردا ولكن ليس له، فى خبرة الانسان الحاضرة، موضع فى امكان أو احتمال.

ويعود هؤلاء المصدقون، القريبو التصديق لما يهرف به الناس، يدفعون بان الناس فى قديم الزمان انكروا أشياء، ثم جاء العلم مصدقا بها. وهذا حق.. ولكنه الحق يراد به الباطل .

انهم يقـولون : انكر الناس فى قـديم الزمن، وأثبت العلم. وينسون أنه كذلك انكر الناس فى قديم الزمن وانكر العلم. وينسون كذلك انه أثبت الناس فى قديم الزمن، وانكر العلم ولا يزال ينكر .

وليس من المنطق فى شىء أن يقـال، لان رجـالا فى التـاريخ انكروا أشياء أثبتها العلم من بعد ذلك، أن كل شىء ينكره بعض الرجال اليوم سوف يثبته العلم غدا . فلسنا نعرف أن من ديدن العلم أن يثبت كل ما ينكره المنكرون.. إذا والله لسهل على الناس أن ينكروا لينالوا .

* * *

ومما انكرته وانكره تلك الأشـيـاء التي اسـمـوها بالاطبـاق الطائرة.. انهـا الاحـلام طارت لا الاطبـاق.. انكرتهـا منذ ثلاث سنوات أو أربع. وأخذ المروجون لها يهرفون بها عاما ويسكتون عنها عاما. وسكت عنها العلماء أجمعين ، الا واحدا أو احادا أصابهم ما أصاب الناس، أو هم خاملوا الذكر وجدوا فى الحديث عن الاطباق نباهة.. وسكت العلماء وسكتت مجامع العلماء .. وفى اجتماع للرابطة العلمية البريطانية، وفيه يجتمع أقطاب العلوم بانجلترا، أراد أحد الحاضرين أن يثير مسألة الأطباق فسرت فى

المجتمع عند سماع الاطباق الطائرة ضحكة شاملة، لم يكن بعدها للاطباق ذكر

وآخر أراد فى مؤتمر علمى دولى، لعله مؤتمر فى الافلاك والاجواء، أن يثير أمر الاطباق، فأطبقوا عليه بالوجه الصارم والقول الرادع .. وطلبوا اليه أن يحتفظ بوقار الاجتماع

وأخيرا فى أكتوبر هذا الماضى، أصدر وزير الحربية فى الولايات المتحدة تقرير اللجنة التى قامت بفحص هذه الاطباق. وكان تقريرا بناء على بحث. وهم تتبعوا كل خبر جاء عن الاطباق الطائرة، وعرفوا مصدره و استجوبوا هذه المصادر. وخرج التقرير يقول أن هذه الاطباق الطائرة لا وجود لها ، وانها من هوس الجماهير أحيانا، ومن خدعات الابصار أحيانا، ومن أشياء أخرى لا تمت إلي الحقيقة بسبب.. وسجلوا كل هذه الاشياء احصاء

أفمن أجل هذا لا نسمع اليوم عن الاطباق الطائرة شيئا ؟

انى لا حسب أنى سوف اسمع عنها فى الغد، لسبب ظاهر

* * *

وأعود إلي القمر، وأشباه القمر، فأقول أن الوصول اليه قد

يكون. يصل الانسان اليه حيا أو ميتا. الوصول ممكن، ولكن دون ذلك أهوال!

أهوال فى هذا الظلام الدامس الذى يخترقه السفين الذاهب إلي القمر. وأهوال بالذى يلقاه السفين، وهو بسبيله إلى القمر من صدام بالذى فى الفضاء من أجرام، مهما صغرت .. وأهوال من حر ما يلقى الذاهب فى هذا السبيل أو بردة.. وأهوال تتصل بزاده فى هذا السفين من هواء وماء، وكيف يبقي على الهواء فلا يذهب، وعلى الماء فلا يبخر. وأهول الاهوال ضياع الجاذبية الارضية.. أن البلع نفسه قد يتعذر .. ثم هناك ارتطام تسطح القمر .

ويرى المصدقون، القريبو التصديق، أن يكون على القمر، من بعد وصول ، سكنى وتعمير .

وكيف يكون سكن من غير هواء ومن غير ماء؟ .. كيف تمكن حياة؟.

قال قائل : «خراطيم بالماء تذهب من الارض»، وقال آخر : «والهواء يصنع أقراصا».

قلت : «نعم ، كل شيء فى العلم جائز!».

وعدت إلى نفسى اتساءل: كيف تكون ارضنا هذه لو ذهب عنها هواؤها وذهب ماؤها؟ .

إني بعد افتقاد الماء والهواء لا أجدني في حاجة إلي ذكر أشياء اخرى تجعل حتى الهبوط على القمر متعذرا. وقد اذكر حرارة النهار فأقول انها تبلغ ١٢٥ درجة مئوية، فهى فوق غليان الماء. وقد أذكر حرارة الليل فأقول أنها تبلغ ثمانين تحت الصفر، وهي درجة تتجمد عندها الاشياء والاحياء.. وقد أذكر وأذكر..

على أني أقول ، بعد كل هذا ، من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فهذا نوع من الكفر الذى لا يحرم به انسان من دخول جنة، أو يقذف به من أجله في نار .

والناس أمزجة.، ومن الناس من يستمتع بالخيال ولو كاذبا. فلهؤلاء أقول: استمتعوا بالخيال الكاذب مادام لكم استمتاع، فليس العقل دائما بمتعة، وليس هو دائما بواصل إلى سعادة . وقد تكون السعادة قبل الحق، هي بغية الانسان في هذه الحياة، كان سبيلها ما كان .

التنجيم وقراءة المستقبل *

لهو .. لمن لا لهو له

قبل ميلاد السيد المسيح بقرنين وبعض قرن ، وقف القائد الرومانى بجنده ، أمام القائد القرطجنى بجنده ، أما الأول فكان القنصل فلامينوس . وأما الثانى فكان هانيبال . وأراد الرومانى أن يستأنس برأى كهانه ، أيبدأ حربا أو هو يرجئ . وقال الكهان : « أمهلنا » . وعادوا فقالوا : « لا تبدأ حربا » . قال : « ولم لا أبدأ حربا ؟» قالوا : وإن الدجاج المقدس ، قد استخبرناه ، فكف عن أكل الحب» . قال : «فإذا الدجاج المقدس لم يأكل الحب ، غدا وبعد غدا ، وبعد ذلك الغد ، أأكف فلا يكون حرب؟» قالوا : « نعم تكف فلا يكون حرب» . عندئذ أمر القائد الرومانى جنده بالهجوم . وصرخ يهزأ بالكهان وهجم جنده . وهجم الآخرون . وانكشف غبار المعركة آخر الأمر عن فلامينوس ، قتيلا ، وعن خمسة عشر ألفا من رجاله الرومان ، قتلى قرأت هذا ، وعدت إلى نفسى أسألها : « ما كان يحدث لو أن قائد الرومان انتصر ؟» .

---

* هلال - ابريل ١٩٥٦

قالت نفسي : « إذن لقد قتل الكاهن وقتل الدجاج» .

ومضيت أبحث فيما يستخبره الناس ، في أمور غدهم ، من حيوان فهذا رجل عربي بدوي يريد أن يترحل غدا ، وما أكثر ما يترحل العربان ، وينظر إلى سماء صحرائه الصافية وهي من فراغ . فيأتي طائر ، غراب أو صقر أو حدة أو غير ذلك ، فيخط في هذا الصفاء حرفا ، أو لعله ظبي يخط في رمل تلك الصحراء سطرا . ويمر الطير أو الظبي من يساره إلى يمينه فيقول هذا سانح .. ويمر الطير أو الظبي من يمينه إلى يساره فيقول هذا بارح .. ويكون الطير ، ويكون الظبي ، بارحا ، ويصبح الصباح ، وتطلب الرجل البدوي حيث هو من مكانه ، فتجده لم يبرح مكانه . أنه الطير وأنه الظبي أنذره بالشر عندما برح ، فخشي الشر في غده . ولو أنه سنح ، لفهم من هذا السنوح أن الظبي ، أو أن الطير ، يقول له أنه لن يجد في غده ، إذا هو ارتحل ، إلا الخير .

وأقرأ هذا ، وأعود إلى نفسي أسألها : « كم يصدق الطير ، وكم يصدق الظبي ، وكم يكذب ؟» .

فتقول نفسي : « علم هذا عند الاعرابي» .

***

وجارية سوداء على قارعة الطريق جلست إليها . كان في وجهها سماحة ، وكانت طيبة . وأمامها الرمل على رقعة من القماش مفروش . بدأت تقول لي ، أن الرمل كالناس له مزاج ، فلا تسائل رملك إلا وهو في مزاج طيب ، وإلا جاءك بما لا تريد . وسألتني ، وسألت رملها ، فلما عرف الرمل من أمرى الشئ الكثير ، بدأت تسخبره . عرف الرمل عن الماضي الذى كان لي ، وعن حاضرى ، وإذ هكذا تهيأ ، أخذت تسأله عن مستقبلي . ويجيب الرمل كأحسن ما أود أن يكون الجواب . كان لا شك في مزاج حسن .

وتمضي السنون ، وأذكر الرمل وصدقه ، وأذكر من ذلك الكثير.

وأعود إلى نفسي أسألها : فما بال الذى لم يصدق فيه ؟

فتقول نفسي : لا تحمل الرمل فوق طاقته . أنه صدق بمقدار ما كان في مزاجه من اعتدال .

وفي ذلك البلد الغريب البعيد ، حيث الوجوه حمراء ، والشعور صفراء ، والبرد قارس . وحيث الدين لله ، والسيد المسيح وسيلته في ذلك البلد يأتي ميلاد المسيح فيحتفل الناس به ونحتفل .

ويمضى الميلاد ولا يكاد ، فإذا بالعام يمضى وراءه ، وعام جديد يبدأ ويحتفلون بالدقيقة التى يخرج فيها عام ويدخل عام . ويكون صاحبى من هؤلاء الناس الذين فى خلقهم حبهم الناس ، وحب الناس إياهم ، وله فى أهل البلد أسر كثيرة أصحاب . ويكون صاحبى أسمر اللون ، ولقوم يتيمنون ويتبركون بالسواد ، وتتفق معه أكثر من أسرة أن يدخل بيتها فى الدقائق الأولى من العام الجديد ، عقب انتصاف الليل ، فبدخوله تحل البركة فى العام .

ويكون آخر دخوله فى تلك الليلة بيتا أنا فيه . فإذا صاحبى لا تكاد تحمله رجلاه . لقد فعل الخمر فى رأسه ما فعل ، وما كان ممن تعودوه . ولكنه عب فى كل بيت دخله عبة ، هى تحية العام .

وأسف على ما كان . قلت لا تأسف . ففى سبيل الله ما صنعت أنها بيوت خمسة ، وأسر خمس ، باركت سنوات خمسا سوف تأتيها ، ربطتها لهم جميعا بالخير ، ووثقت ما بينها وبين السعادة فلن يصيب أيا منها طول العام المقبل ضير .

قال : « إلا واحدة» .

قلت : « كيف ؟» .

قال : « سبقنى إليها بعد انتصاف الليل زائر أشقر . فتطيرت الأسرة فلما دخلت كادوا أن يستقبلونى بالنعال» .

قلت : «ارفعوها؟»

قال : « لا . فليس فى هذا البلد نعال ترفع ، وإنما خيل إلىَّ»

قلت : « وأن هن رفعنها ، ففى سبيل الله ما يلقى الساعون فى إصلاح ما بين الدهر والناس» .

***

وصناعة فى علم الغيب كسبتها فتاة كانت هناك ، فى ذلك البلد السحيق ، من أهل بيتى . وهى صناعة ، أن لم تكن كسبت مالا ، وما سعت إليه ، فقد كسبت لها حسن الصحبة بالناس .

تلك قراءة الفناجين من بعد أن يفرغ صاحبها أو صاحبتها من شرب ما فيها من شاى . وتتعلق الورقات بجدار الفنجان فترسم فيه الأشكال والأوضاع .

وتنظرها الفتاة . وتأخذ فى القول فتقول ما تقول . وأحيانا تهدأ وتبطئ ، وأحيانا تتدفق ، وليس كل ما تقول ما يسر . ولقد صدق الزمان الكثير مما تنبأت به ، مما أفرح وأحزن .

وسألتها : « كيف تفعلين» .

قالت : « لست أدرى . إنى انظر إلى ما فى جدار الفنجان من أشكال وأوضاع . وأتركز عليها . وبالتركز أنساها . وتحل محلها خيالات أخرى هى التى تحكى ، وأحكى عنها » .

قلت : «فهل صدقت النبوءات؟»

قالت : «صدق منها الكثير» .

قلت : « فيمن عرفت وفيمن لم تعرفى؟» .

قالت : «فيمن عرفت أكثر» .

ألا رحمها الله ، فما عرفنا أنها تكذب قط .

***

وكما يتنبأ العربى والاعرابى بالطير والظبى ، يتنبأ أهل هذا البلد السحيق بالطيور والعناكب ، يتنباؤن بها عن المطر ، أيكون أو لا يكون . إن علا الطير فى طيرانه ، فالمستقبل جفاف وصحو . وأن هو هبط ، فالمستقبل بلل ومطر والعنكبوت يطمئن إلى بيته . فلا يكون مطر أو بلل . وهو يخرج عنه يطلب الاركان فيقولون أن مطرا سوف يكون .

***

وانظر فى هذا فأخالنى أحسب أن العلم من ورائه يدعمه . أن المطر يرطب الهواء فيخف وزنه فى الحجم الواحد ، ويصغر ضغطه ، فهيبط الطير فيه . وهو كذلك يفعل فى بيوت العناكب فتتنذر بانفكاك .

وأجد من العلم فى هذا الشئ سببا ، فأود لو أن لسائر الأشياء من العلم أسبابا .

ويضيق الناس بالأرض ، من حيث هى مصادر لعلم الغيب ، فيطلبونها فى السماء .

وهكذا فعل القدماء .

وعذرهم فى ذلك أجرام فى السماء لم يعرفوها ، وحركات لم يفقهوها ، والسماء تتحرك فتحدث النور والظلمة . والسماء تتحرك فتحدث الحر والبرد ، وتحدث الشتاء والصيف . ونسبوا إلى السماء كل تغير يحدث فى الأجواء. والاجواء قد انبهمت ، وانبهمت أسبابها ، فهى حظوظ ، وملكت السماء هذه الحظوظ . والذى ملك حظوظ الأرض ، ما أقرب ما يملك حظوظ الاحياء على هذه الأرض . واختلط التنجيم وعلم النجوم ، وصارا شيئا سواء .

ومضت القرون ، فإذا بالأرض التى تدور السماء كلها حولها ، وتدور من أجلها ، والتى تحتل موضع المركز من الكون ، فموضع الزعامة فيه ، هذه الأرض تتنحى عن زعامتها للشمس . بل ويتضح أنها ليست من الزعامة فى شئ ، وليس الناس ، وأن الكون يجرى ولا يبالى ما تصنع الأرض أو يصنع ما عليها ومن عليها .

وتنفقئ الفقاعة التى تقول إن نجوم السماء تملك حظوظ أهل الأرض.

ومع هذا يعجز العلم عن تعكير الأمل الحلو عند الناس .

يعجز عن تعكيره فى نجم فى السماء شاهق ، أو طير على الأرض سانح أو بارح ، أو رمل يضرب ، أو فنجان شاى يشرب .

***

سألت رجلا كان قديما عالج النجوم ، واستخبرها عما قسم الله للناس فى هذه الحياة : « ماذا ترى فى استطلاع طلع النجوم؟» قال : « هو لهو لمن لا لهو له» .

وأعجبنى جوابه . أنه لم يقل أنها الخرافات والخزعبلات .

قال أنها اللهو . وما أحوج أهل الأرض إلى اللهو . أن اللهو تصبر وعزاء . وصاحب هذه الحياة ما أحوجه إلى التصبر والعزاء وهو يطلب العزاء فى طبيعة الأشياء فيعجز ويأسى . فإذا هو طلبه فيما وراء الطبيعة فحق له أن يطلب وهو اذا طلبه فى الظلام بعد أن عز طلابه فى النور ، فمن ذا فى هذا يلومه . وهل اللائم أحسن حالا ، وأنفذ فى الأمور بصرا ، وقد علمنا أن الظلام يستوى فيه أعمى وبصير ؟

دعوا الناس ترجو ، ودعوا الناس تؤمل ، ودعوا من شاء يتعلق، قبل السقوط ، ولو بخيوط من عنكبوت .

اسلاميات

مكة عاصمة الإسلام *

فلنجددها لتكون جديرة بمركزها الإسلامى

«لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

هكذا أخذ هذا الملبى يلبى ، عاريا إلا من ثياب إحرامه . إن سبيله إلى مكة . والسيارة تقطع السبيل بين تلك الجبال السود عدوا ، على أرض من صنع القار سوداء . لقد خلف وراء جدة ، وهى حيث بدأ . وانتصف الطريق فخلف وراءه بحرة وأخذت السيارة تنهب الأرض نهبا ، وهو لا يزداد فى التلبية إلا جهدا وجهرا .

وعاد يذكر لمن يلبى . وعاد يذكر أنه الله . وعاد يرتل الآية : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق».

---

* هلال – أغسطس ١٩٥٥

ومـا تلاها هذه المرة حـتى سـأل السـائق أن يتـوقف . وترجل ، وأخذ يسير . وعرف المطوف ما عنى . لابد أن يدخل مكة راجلا . وصاح به : نلقاك عند باب السلام . وما عرف صاحبنا أين باب السلام ، فهذه أول مرة يسير ووجهته بيت الله .

وكانت مشارف مكة قد تراءت ، فزاد الرجل في خطاه حتى كاد أن يكون سيره هرولة ، وهو يردد :

«اللهم أجعل لى بها قرارا ، وأرزقنى فيها رزقا حلالا» .

ودخل بين بيوتها ، وعينه قد انفتحت وسعها ، وهى تلتهم كل ما رأت التهاما . والتقى بمطوفه ، فعرف أنه باب السلام ، أحد أبواب المسجد الحرام ، فطفق يقول : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام .

ودخل المسجد

فما رأى الكعبة حتى ذهل . وغمره الذهول فتوقف . وأخرجه من الذهول أن أخذ يتلو : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره» . ونظر حوله فوجد من الناس من

يصلى ، وكل فى غير اتجاه صاحبه . وما أسرع ما أدرك أن فى هذا البيت تنعدم الجهات ، وأن إلى هذا البيت تتجه وجوه المسلمين فى كل بقاع الأرض . وأخذ يتلو : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم» .

وقالوا : إلى الطواف ، فاستسلم وعينه لاتزال مرفوعة إلى هذا البيت العتيق الرفيع ، وهو فى أثوابه ، وهى من حرير أسود .

وقالوا : هذا هو الحجر الأسود فقبله . فتردد . ثم قال ما قال عمر : «والله أنى أعلم أنك حجر ، لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك» . ثم قبله . وعاد فى تطوافه إلى الحجر فأشار بيده إليه . قال المطوف . أنك لم تقبل الحجر . قال أفعل ما فعل الرسول ، كان لا يزاحم عليه . كان إذا لم يجده خاليا أشار إليه بيده أو بعصا معه .

وفرغ من الطواف ، فصلى ركعتين ثم اتجه به المطوف إلى باب الصفا .

إنه السعى

السعى بين الصفا والمروة . وهما صخرتان ، أولاهما زحمتها المنازل فما تكاد تبين .

وما ارتفع على الصفا حتى تلا .

«إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم» .

وفي لمحة تعثر فكره بـ «لا جناح عليه» . وأحس كأنما كان عند المسلمين حرج أن يطوفوا بهما ، فوسع الله من حرجهم ، وزاد .

***

وهكذا ، أخذ صاحبنا يتنقل على الأيام من شعيرة من شعائر الله إلى شعيرة ، ومن منسك من مناسك الحج إلى منسك ، وهو في غمرة من شعور ديني فياض ، من أهم خصائصه انصراف الهم ، وذهاب الخوف ، وانفساح الأمل ، فلأول مرة في حياته وعلى هذه البقعة الوحيدة من الأرض أحس أنه يستطيع أن يمشى على سطحها يضرب بقدميه في استقامة على ثقة آمنا ، آمنا من يومه الذى كان ، ويومه الذى سوف يكون ، وانحلت كل عقدة في نفسه فانبسطت وصار لا يعرف الطريق إلا مستوية سوية .

وفرغت الأيام ، فاختار أن يزيد ، فيقيم في البلد الحرام أياما. وجال في أم القرى فلم يترك بها مزارا الا زاره . فهذا موضع ولد

فيه الرسول صلوات الله عليه ، وهذا بيت أسلم فيه عمر ، هو بيت أخته . وهذه مقبرة المعلى ، وفيها رقدت آمنة أم الرسول ، والسيدة خديجة الكبرى زوجته عليه السلام ، وجده عبدالمطلب ، وعمه أبو طالب . ومد ببصره ينظر أين هم من هذا التراب ، ليشبع رغبة القلب الواعى عن درس وعن علم ، ولكنه استدرك . فقد قال له من كان على يساره : أنه لا وثنية فى الإسلام .

وحام أكثر همه حول المسجد الحرام ، فدخله نهارا ، ودخله ليلا . وكان المسجد أفعل فى نفسه أثرا والناس نيام . وسطع النور فى المسجد ، من مغرب الشمس إلى مشرقها ، فجعل ليله نهارا ، وغشية عند انتصاف الليل ، ومن قبل انتصافه ، ومن بعد انتصافه ، وفى الفجر وقبيل الفجر ، وفى كل مرة لا يجد به إلا جالسا أو قائما ، ووجد رجالا حول الكعبة يطوفون . تطواف كدورة القمر لا ينقطع أبدا .

وتقوم فى الفجر الصلاة ، فكأنما هى صلاة جمعة من كثرة من يجتمع من الناس ، يتحلقون حول بيت إبراهيم حلقة من وراء حلقة . ويصدع الامام بالقرآن ، بصوت جميل مديد ، فيردد الليل اصداءه ، فترتد إلى مسمع صاحبنا ، فينتشى ، وخال ساعة أنها الملائكة ترتل فى السماء .

***

وعاد صاحبنا إلى وطنه ، ولكل غائب إياب .

ومضى عام .

فقلت له : « هذا أوان الحج ، فهل من عودة ؟» ففكر مليا ثم قال : «إن مكة قرية لا يزورها الزائر إلا مرة» قلت : « كيف ، وهى أم القرى؟» قال : « كذلك كانت لى ، وماهى اليوم بذلك» . قلت : «ما هكذا كنت تحدثنا قبل عام» . قال : « كانت تحدثك نفسى المتعبدة ، واليوم تحدثك نفسى الناقدة» . قلت : « وماذا تنقد بمكة؟» . قال : « أن تكن مكة قرية من قرى الحجاز ، فلتكن إحدى قراها . أما أن تكون عاصمة الإسلام فلا ، وأحمد الله أن حرموا زيارتها على غير مسلم . احمد الله على أن لا يزورها بطريك أو حاخام ، فى دنيا تفهم المدنية ، من نظافة وصحة ، ونظام وجدة ، ومن منازل ومدارس ومرافق ، على وجه نقيضه هو الذى تجده حول بيت الله الحرام . إن كل شئ حول البيت الحرام كاد ، فى نظر الرجل المتمدين فى القرن العشرين ، أن يكون حراما . أن المسلم ليندى جبينه أن تكون هذه عاصمة دينه » !

قلت : « خفض الصوت حتى لا يسمعنا الناس» .

قال : « إن خشيت المسلمين فقد أن للمسلمين فى بقاع الأرض أن يستيقظوا لما هم فيه ، وأن يسمعوا الحق مرا ويستحلوه ، فما

كان الإسلام دين مراوغة ومداهنة ، وإن خشيت غير المسلمين فهم يعرفون من أحوالنا أكثر مما نعرف» .

قلت : « ما يشبه هذا الحديث حديثا منك سمعناه» .

قال : « كنت من الإسلام فى غشية وكنت عند البيت الذى قال الله فيه «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا» . فعشت فى الإسلام معنى . ورجعت إلى المدنية فلم استطع أن أعيش فى الإسلام إلا معنى ومبنى . أن المعنى الكريم لابد له من مبنى كريم . وحيث يذكر اسم الله لابد أن تفوح روائح الجنة» .

واندفع صاحبى يقول :

«والمسجد الحرام ، أين المسجد الحرام ، وأين عناية أهله به ؟ أين هو من مساجد القاهرة ، قديمها وحديثها ، وأين رحبات طوال عراض فى داخله ، وأين رحبات طوال عراض فى خارجه . وقد أقرن المسجد بالمسجد ولا أقرنه بغير المسجد . إن حال الناس تنعكس على معابدهم فعلى المعابد ينعكس العلم ، وينعكس الفهم ، وينعكس الجد ، وتنعكس المدنية ، وينعكس الثراء . وعلى المعابد تنعكس نقائض كل هذا إذا ما انحدر الناس . ومعبد الناس الأكبر أصدق مرآة ترى فيها حال هؤلاء الناس . والمسجد الحرام معبد المسلمين الأكبر ، وقبلة يتوجهون إليها كلما قاموا يدعون رب

الأرض والسماء . فقطعة من السماء وجب أن تكون هذه البقعة من الأرض » .

قلت : « أنك تهدم .. » .

قال : «وأبنى ..»

قلت : «وكيف يكون البناء ؟»

قال : «تهدم مكة كلها ثم يعاد لها بناء . ولا تقل لى أنى أهدم أثرا ، فما هذه مكة التى عرفها الرسول ، وخلفاء الرسول ، لا كما ولا كيفا . وحتى المسجد ليس بمسجد عرفه الرسول إلا موضعا . وليست الكعبة إلا موضعا كذلك . وتلك السوق الضيقة التى يسمونها بالمسعى ، بين الصفا والمروة ، يجب أن تمحى من الأرض محوا . إن السعى فيها كاد أن يكون إثما ، وذكر اسم الله فيها كاد أن يكون لاسم الله امتهانا . وكيف يذكر اسم الله ذاكر ، فى طريق ضيقة ، تزحمه فيها البهيمة ويزحمها ، وعن يمينه رجال يساومون فى شراء ثياب ، وعن يساره رجال يساومون فى شراء نعال . وهى سوق بالبدو أشبه منها بسوق الحضر » .

قلت : «ومن يقوم بالبناء ؟» .

قال : « المسلمون على وجه الأرض كل أمة مسلمة تؤدى من النفقة بالقدر الذى تطيق . أن حالا عليها مكة اليوم ، لا تقع تبعتها

على اليوم ولكن على الأمس ، القريب منه والبعيد . وما هى بتبعة حكومة هى اليوم بها ، إلا بحسبانها أمة فى الأمم مسلمة ، وكفى هذه الأمة حفظ الأمن وإجراء الحياة هناك ، وإصلاح حال القوم الأتعسين» .

قلت : « ثم ماذا .. ؟» .

قال : «وتخلى جبال مكة وشعابها من مساكنها ، فحسب المساكن ما وراء الجبال ، وليكن لكل أمة مسلمة حى تحييه ، فهذا حى مصر ، وهذا حى العراق . وذاك هى الهند فالباكستان ، فهندونيسيا ، وهلم جرا . والمسلمون والحمد لله كثرة ، ويجب أن يخرج المسلمون المؤمنون من رؤوسهم أن الله يحب الفقر ، ويحب البساطة التعسة ، ويحب أن يكون فى الأرض مرضى ليكون منه عطف . وليعلم المسلمون أنه لا حياة لمسلم فى عصر هذه المدنية ، إذا هو رضى ببيت من شعر ، خضوعا مضللا لله واستسلاما . وليعلموا أن القنبلة الذرية لا تصنع فى البدو . وليذكروا أن البداوة المؤمنة تتحيفها اليوم الحضارة غير المؤمنة من أطرافها ، بأيسر جهد ، فالصيهونى من شمال والانجليزى من جنوب ، وقد جربنا الدعاء فى صدهم ، فلم ينفع فى صدهم دعاء » .

قلت : « ثم ماذا .. ؟»

قال : «ومكة لم لا تكون القطب الذى تدور عليه الرحى ؟ إن

مكة قبلة الإسلام فى صلاة ، فلم لا تكون قبلته فى أمور عيش ، وأمور حياة وصوت المؤذن فيها لم لا يسمع على الاثير ، من الحرم، فى كل بقعة من بقاع الأرض يذكر فيها اسم الله ؟» .

قلت : «لخشية أن يقال تكتلوا» .

قال : « وما الخشية أن يتكتل المسلمون فى سبيل الله . وما الخشية أن يتكتل النصارى وكل صاحب دين وهم إنما يتكتلون إلى تعاون فى سبيل الله . إنى أتصور أحيانا أن قد اجتمع موسى وعيسى ومحمد ، وسائر النبيين ، وسائر الصديقين ، فأخذ بعضهم فى العناق برقاب بعض ، على الشوق وعلى المحبة . إن خصاما كان بين الأديان ، فيما سلف من زمان كان خصاما ، لا فى سبيل الله ، ولكن فى سبيل الشيطان . وقد من الله على خلقه فى هذا القرن بالعلم ، ومع العلم نور، والنور جدير بأن يبدد ما كان ساد فى الأنفس من اظلام» .

قلت : « ثم ماذا .. ؟» .

قال : « حسبك ، إلى أين تريد أن تأخذ بى؟» .

قلت : « إلى مكة مرة أخرى .. !» .

قال : « بعد هذا أعود ، إن كان العود أحمد . ان بقى فى العمر بقية» .

قلت : «ابقاك الله» .

كنا بالأمس سادة *
فلنكن اليوم أسيادا

اذكروا أيها العرب وأيها المسلمون سبب التقدم الذى كان وسبب التخلف الذى هو كائن . ولا تأذنوا لأحد أن يقف سيركم إلى الامام .

نعم اذكروا فقد تنفع الذكرى .

اذكروا أنه كانت لكم دولة ودولة، حين لم يكد أن يكون على ظهر الأرض دول ، وأنه كانت لكم صولة وصولة، حين لم يكن على ظهر الأرض من يجرؤ أن يصاول ، وأنه كانت لكم طولة وطولة ، حين لم يكن على ظهر الأرض من يجرؤ أن يطاول .

واذكروا انكم جاء عليكم أجيال مشيتم فى أهل الأرض جميعا أسيادا اعزة ، ورفعوا سيفا فرفعتم أسيافاً ، وأجروا خيلا فأجريتم خيولا ، وأثاروا نقعا فأثرتم ما كدر وجه الدنيا جميعا . وبالسيف وغير السيف دفعتم الظلم ، وبالسيف وغير السيف طلبتم المجد فى أقصى البلاد لما لم يكن لغير السيف لسان تسمعه وتفقه

* هلال - يناير ١٩٥٦

عنه آذان . وقلوب رأت الموت جهرة فلم تتراجع عنه ذعرا ، ولكن ارتمت فى أحضانه قهرا وقسرا .

وأذكروا ما كان فيكم من اباء الضيم ، واذكروا أنكم ابيتم ضيما فى حرب ، وكنتم أشد اباء له فى سلم .. واذكروا قول قائلكم :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا
على قضاء الله ما كان جالبا
واذهب عن دارى واجعل هدمها
لعرضى من باقى المذمة حاجبا

***

واذكروا أنه كانت فيكم حكمة يتسقطها طلاب الحكم، وكان ادب كأرفع ما تكون الآداب ، ماتت الأيام وهو لم يمت، ومرت عليه القرون فما زاده القدم إلا حلاوة وطلاوة، والا وفاء بحاجات أنفس أشقاها ما كان من عنت جاءت به صروف الايام والليالى .

وشاع الادب وذاع فى اسلافكم، فدخل القصور ، ولم يتحرج أن يدخل الأكواخ . وانعقدت له فى الاسواق المجالس. وانعقدت له الندوات فى حوانيت الوارقين وغير الوراقين ، وانتشر منها فى

عـواصـمكم الف والف ، يتـبـاحث الرجـال فـيـهـا ويتـعـارضـون ويتناظرون .

ورجل رحل فى طلب الأدب إلى عاصمة من عواصمكم ، فقرأ ما شاء الله، ثم أراد الانصراف إلى وطنه، فاكترى دابة يركبها ليخرج من البلدة . ولكنه وقف ليشترى بعض حاجته عند حانوت . فسمع نقاشا أدبيا بين اثنين من أصحاب الحوانيت . فطلب من صاحب الدابة اعادته إلى العاصمة . قال «أن بلدا فى هذه المنزلة من العرفان لا ينبغى أن يرحل عنه» .

وتمقرط الادب فى اسلافكم على قدر لم يبلغه فى ديمقراطية جاء ت من قبل أو من بعد . فرأينا بائع الجرار والفخار يصبح شاعرا ويتصل بالخلفاء . فذاك أبو العتاهية . ورأينا العطار يصبح شاعرا ، ويكون له مع الرشيد شأن أى شأن . فذلك أبو نواس ورأينا ساقى الماء ، عند باب جامع، هو جامع عمرو ، يسقى الماء ثم هو يستقى من أدب علمائه ، ولم يزل يحفظ الشعر ويقوله حتى أقبل عليه عشاق الادب اقبالا لم يبق لغيره فيه مجالا . فذاك أبو تمام .

***

وكمـا تمقـرط الادب، تمقـرط العلم وسـائر صنوف العـرفـان . والتعليم الذى قالوا أنه كالماء والهواء كان ماء وهواء لكل طالب له فى اسلافكم . وتكافؤ الفرص ، هذا التعبير الديمقراطى الحديث ، كان فـى الماضين من ذويكم معنى قديما عتيقا مألوفاً مبتذلاً حتى مـا ابتـدع له لفظ، لأنه كـان من بدائة الأمـور ، فكانت المسـاجـد مدارس يغشاها كل طالب. وتحلقت فيها الحلقـات، فهذه للفقه ، وهذه للغــة، وتلك للأدب ، وهذه لصنعــة الكلام والمتكلمين ، ،هلم جـرا. واسـمـوها بيـوت الله حـتى لا يكون لداخلها اسـتـئـذان . ويدخلها الداخل ينتقى من دروسها لا لتفرض عليه. ويدخلها طوعا، ويخـرج عنها طـوعـا. وأن طـاب له ناقش ، وعلى النقـاش كـانت تتـفـتح فـى الدروس المغـاليق . وبلغت المسـاجـد فى عـاصـمـة من العواصم الكبرى آلافا كانت الجوامع منها، على الأخص، مراكز للعلم والتعليم هائلة . ومن المسـاجد الجوامع الازهر، ولا يزال فينا من الاحياء من حضـر حلقاته . ومن المساجد الجوامع فى مصـر جـامع عـمـرو، وجـامـع الـعـسكر ، وجـامـع ابن طـولون ، وجـامـع الحـاكم ، وكلها ، إلى جانب كـثيـر غيرها ، كانت منتديات للعلم والعرفان .

سنن سنها الشرق للغرب فاتخذ من الكنائس مدارس وجامعات . فجامعة اكسفورد وجامعة كمبردج كنائس ، وما كلياتها إلا معابد . وهى معابد بناء، ومعابد اسماء .

ومن بعد المساجد جاءت المدارس ، على حال لم يسبق له مثال. وانتشرت فى العواصم والقرى، فكانت المدارس النظامية، وكانت المدارس الغورية، وكانت المدارس الايوبية ، عشرات من بعد عشرات من بعد عشرات . كانت مساكنها تأوى اساتذة . وتأوى طلابا، انقطاعا للعلم وحسبة لله. وذلك فى عصر كان العلم فيه أعسر الاشياء ، وأغلى الاشياء وأكثرها نفقة . وكانت مصادره عزيزة والكتب فيه أعز كانت الكتب من نتائج الاحبار فى محابرها، يغمس فيها النساخ أقلامهم ، لا من نتائج المطابع تغمس فى الزيت الاسود حروفها . يوم كان العلم تشد إليه الرحال ، الأيام والاشهر، يجمع الراحلون إليه منه لطلاب العرفان وكل نافرة منه شاردة فلم يكن فى الدنيا قطار ولا طائرة. ولم تكن مطايا إلا الابل، ولا غطاء إلا الشمس تسود الوجوه .

واذكروا بالعلم علماء كانوا فيكم اجلاء ، فى كل ضرب من ضروب العرفان ، لا فى علوم الدين وحدها ، ولا فى علوم

اللسان، علوم اللغة ، وحدها ، ولكن كذلك فى علوم الارض وعلوم السماء .

اذكروا في بغداد المأمون وهو يرصد مع علمائه السماء يحاول أن يجد قطر الأرض، واذكروا الحاكم فى القاهرة يبنى مع علمائه مراصد يحاول بها أن يكشف من السماء اكثر مما كشف من قبله الغابرون .

واذكروا المارستانات ، المستشفيات ، حيث كان يعلم الطب ، ويطب للمرضى . كانت المارستانات كليات للطب ، فيها العالم وفيها المتعلم ، علما وعملا .

***

وأذكروا ذلك اليوم الفريد ، في الازهر الشريف ، يوم ثار الطلاب على استاذهم ، ثورة أقرب إلى العتب منها إلى الغضب . كان الشيخ يعلم التشريح . وكان يعلمه من بعض كتبه. كتب كتبها جالينوس ، الطبيب الاغريقى المصرى القديم . وشق على الطلاب ما وصف الواصف . قالوا للشيخ : أن هذا الأمر تصوره عسير، فلابد أن نرى ، فالعين تعين على الفهم . وعز على الشيخ أن يريهم. أن تشريح الموتى حرام . وذكر الشيخ أن بالاسكندرية

مكانا عتيقا تحت الأرض كشفوا فيه عن كثير من العظام. وخف الشيخ، وخف تلاميذه إلى الاسكندرية . وفحصوا هناك ودرسوا . وخطأوا جالينوس فى بعض ما وصف .

اذكروا هذا اليوم أشد الذكرى .

واذكروا هذا الحادث البسيط التافه ، لأنه غير تافه وغير بسيط . ولأن فيه ، وفى كثير من أمثاله ، يجد الباحث سبب التخلف الذى كان .

لو أن هذه الروح فى هؤلاء الطلاب ، وتلك التى انبعثت فى الشيخ، عمت وانتشرت ، لكان الشرق اليوم من العلم الحديث، ومن القوة ، حيث يوجد اليوم الغرب، ولكنهم قالوا أنها الفلسفة ، وأنها لحرام .

أنها اللكاعة وانها الجهالة ، وأنه لضيق الذهن وضيق الافق، والتنطع فى التدين ، هو الذى ذهب بكل هذه الفرص الغالية التى كانت فلم تنتهز . وذهب بكل تلك الروح ، روح التشوق ، روح التطلع ، روح الرؤية عن كثب ، وروح التجريب التى كانت الخطوة الأولى فى كل هذا العلم الحديث الذى نرى ، وكل هذه المدنية الحاضرة العارمة .

اذكروا ما صنع الجهل والجهال بكم . واذكروا مازالوا هم يصنعون . أن الجهالة القديمة لا تزال باقية، وكذلك الجرم القديم . إن قوما أرادوا أن يدخلوا علم الطبيعة في معهد، فى بعض ما أرادوا أن يدخوله اليه من حديث العلوم . وخشوا «الطبيعة» ، كما خشيها إخوان لهم عاشوا من قبل الف من السنين، فأسموها «سنن الله الكونية» .

***

نعم اذكروا كل شيء

اذكروا سبب التقدم الذى كان، وسبب التخلف الذى هو كائن .

ولا تأذنوا لأحد، كان ما كان ، أن يقف سيركم إلى الامام .

كنتم بالأمس سادة، وأنتم جديرون أن تكونوا اليوم أسيادا .

وذلك بالرؤوس ، املأوها علما وبالايد ، املأوها عملا .

وبالقلوب ، املأوها أملا، وأنفة وعزة .

والله معكم .

رجل عاش فى متحف *

توجهت إلى القصر ازوره، وقد خلا من ساكنه، بل من سكانه، وصار متحفا.. وما المتاحف الا قطع من التاريخ: التاريخ الحى، التاريخ المرئى، التاريخ المحسوس الملموس وما هو بتاريخ الرجل الذى سكنه، ولا هو بتاريخ زمن عاشه، ولا هو بتاريخ بيئة نشأ فيها.. إنه تاريخ زمن بل أزمنة كانت قبل ذلك.. قطع من الفن خلفها شتيت من القرون فى شتيت من بقاع الارض، لاسيما أرض يؤذن فيها باسم الله، وأن الله أكبر، وان محمدا عبده ورسوله، جمعها صاحبها جمع تخير، وجمع تذوق ، والف بينها، والف منها كتابا من كتب الفن الاسلامى النادر، فلو أن صاحبها الذى كان ثم بان، كتب عند بابها «هذه صفحات فنون» لقصدت إلى هذا الباب من بعد زيارة، وكتبت عنده «بل من أجمل صفحات الفنون».

ساعتان قضيتهما فى هذا القصر، اتنقل من قاعة إلى قاعة ، فانتقل بذلك من جو إلى جو. ويثور فكرى الذى أرى حينا، وتثور

* هلال – فبراير ١٩٥٦

عـاطفـتى الذى أرى حـينا . وأهدأ، لأدخل فى جـو من الحـجـرات جديد، يثير فكرا جديدا ويثير عاطفة. وخرجت وروحى تكاد تتندى بعرقـها، لو أن للارواح ما تتندى به من عرق. خرجت بروح دافئة على كل حال .

ولست أدرى أكان هـذا مزاجا طارئا أم هـو مـزاج ولدته عندى الدار.

شعور العزة

وأريد أن أصف الدار فلا أدرى كيف أصف

مـدخل الدار.. واحب أن اسميـها الدار ولا أسمـيـها القـصـر. فالقصور هى فى العادة واسعة وهى فى العادة منيفة. وهذه الدار ليست بالواسـعـة ولا المنيفة. وأن كان لابد من قـصـر فهى قصير، وهذا تصـغير للحـجم يتـضـمن معنى للجـمـال.. فـعندى أن أفـعل الجمال واثره ما كان على صغر.

أقـول مـدخل الباب وهو من حجر نحت. واجـهة كـبيرة عريضة كلها من حـجـر صلد. وكـتب عليـهـا بالنقش فى الحـجـر اسم من أسـسـهـا وأسس الدار وزادنى غـبطة أن قـرن باسم المؤسس أسم الناحت. كتب «وقام التنفـيـذ المعلم مـحـمـد عـفـيـفى النحـات سنة

١٩٤٨». احسست بعزة، ففي نفسي تقديس العمل وتقديس العمال، واعتز بمصريتي وشرقيتي، بل وبانسانيتي، في العمل والعمال. و«المعلم» هذه وقعت في نفسي موقعا دخيلا لا يبلغه موقع «استاذ» .

قلت أن القصر ، بل القصير، لا يمت بسبب قريب إلى عصرنا هذا، وإلي بيئتنا هذه ، وهذا صحيح، الا فيما كان فيه من عمل، فهو مصرى حاضر، والا ما كان فهي من عمال، فهم مصريون حاضرون، وما أروعه عملا، وما أمهرهم عمالا .

ووجدت الكثير من الاعمال ، في سائر الدار، وقد قرنت باسماء من عملوها. وقرنت نقشا يبقى ما أبقى الزمان .

ما أنفس وأجمل

ومن المدخل دلفنا إلى دار الاستقبال. كل حائط في الدار اختفي وراء القيشاني واختفت وراء الخشب المحفور الاسقف. واختلفت الانساق واختلفت الالوان. وامتزجت في توافق عجيب. والاثاث العربى والشرقي الاسلامى توزع ، كل له موضع واتسقت المواضع جميعا. وغرفة بل بهو في الدور الثانى له نافذة شرقية، صورت فيها الشمس وهى تبزغ في دكنة البهو. إن البهو اكثره الداكن. انها الدكنة التى تخلق ذلك الجو الذى تهفو اليه الانفس

المتعبة وكذلك تهفو اليه الانفس المتعبدة. وهفت نفسى إلى الجلوس على بعض هذه الطنافس، فزجرتها. وحجرة فى الدار واسعة تنافس سائر الحجرات جمالا وكمالا فهذه حجرة كان يجتمع فيها الزائرون يوم الجمعة، ومنها يخرجون إلى الصلاة، فالمسجد كان من ورائها على بضع خطوات .

وخرجت أقول ما أجمل. قال صاحبى: ابق على اعجابك لما هو أجمل. ولقد صدق

أجمل مسجد رأيت

وخرجنا إلى الحديقة، إلي المسجد انه من حجر نحت. وانه طراز مغربى ذكرنى بمسجد المعادى، كما يذكر الجميز بالتين، أو الجوافة بالكمثرى وقرأت على ظاهر المسجد فى النقش آيات محكمات.

ودخلت المسجد، فدخلت أجمل مسجد رأيت.. أجمل مسجد على صغر. والذى رأيته من مساجد الدنيا كثير. تحفة اسلامية نادرة. الحوائط ، السقف الذهبى يتنفذ من قبابه الصغيرة النور. آيات القرآن تزين الحيطان، مقعد القراء فى أوسط الصحن، القبلة، المنبر. وذكرت عند ذلك المسجد الحرام، واسفت. وذكرت

الحرم النبوى، كما عهدته، واسفت. والجامع الاموى وغير الاموى، واسفت. وعجبت لقوم يقولون بأخلاء المساجد من زينة فعندهم أن المساجد أرضها من حصير، وحائطها من طين، وسقفها من سعف. هكذا يصفون بيت الله، وعلى غير هذا يشيدون بيوتهم والقصور

إن الانسان الذى يعز الله، يفصح عن أعزازه بما ألف الانسان من وسائل أعزاز. ومن ذلك حسن البناء، وزينة البناء، وجمال البناء. وبيت الله فى الأرض يجب أن يكون خير بيت ، وأجمل بيت.

إن الله جميل يحب الجمال

متحف الاشجار

وخرجنا إلي الحديقة مرة أخرى ومشينا فيها هذه المرة خطوات طويلة بعيدة

إن الحديقة متحف هي الاخرى فيها من كل شجر نادر غريب.. وهى لدارس النبات متعة .

قلت: أين اسماؤها ؟ فأرونى على بعضها اسماء لاتينية، وذكروا أن التسمية فى سائرها جارية. وسألت عمن يقوم عليها،

فعلمت أنه نباتي مختص مقيم.. فاغتبطت. أن متاحف الشجر فى بلاد الغرب، تبذل لها العناية التى تبذل لمتاحف الحيوان .

تلك التى نسميها حدائق الحيوان .

رجل نام فى متحف .

ووصلنا إلى ما اسموه سراى الاقامة، تلك الدار التى كان يسكنها صاحب القصر .

كانت دار الاستقبال متعة، فصارت هذه امتع، بمراحل.

الحجرة الواحدة حجرات فى حجرة .

واختفت الحوائط، حجرها وجصها، وراء كل خزف محروق فى النار أملس، لعب على سطحه الخيال صورا ، ولعب ألوانا . وتعددت أصولها. فهذا إيرانى، وهذا تركى وهذا اندلسى، وهذا مغربى.. وكل حمله إلى مصر البحر والقطار. ومنه ما لم يحمل الا خطوات فهو فى مصر أصيل.

والاسقف اختفت كذلك وراء الخشب المشكل المزخرف المذهب. ولعبت فيه الألوان. وتعددت فى الحجرات، فى أسقفها ، الصيغ .

ولكل حجرة أثاثها، واختلف الاثاث. ومنه الاثرى، القريب فى الزمان والبعيد .

والارض حجبتها الارخمة. ففى كل حجرة رخام: قطع الف الفن بينها، وفارق وتآلف من كل هذا لكل حجرة جوها واختلفت الأجواء والأجواء طعوم .

وفى جو من أجوائها أحسست بالبهجة . وفى جو من أجوائها أحسست بميل للصمت عميق. وفى ركن من أركانها تخيلت الفارابى قاعدا يقرأ. وفى ركن من أركانها تخيلت الرشيد يركع ويسجد . وفى آخر تخيلته يشرب. وغلبت أجواء التأمل والتعبد على أجواء الشراب .

وجئنا إلى حيث كان ينام صاحب الدار.

وجئنا إلى حيث كانت تنام صاحبة الدار .

ومررنا بهذا مر الكرام .

وعجبت للرجل كيف سكن مثل هذا .. أنه صنع متحفا ونام فيه

وساءلت نفسى: ألم يخش ، فى نومه والصحو، أشباح الريحان؟

وعلمت أنه بنى قبرا كتب عليه، وهو حى: هذا قبر المغفور له فلان. قلت: هذا رجل مات قبل أن يموت. وذكرت بهذا رجلا بنى قبره، ثم تردد عليه يرقد فيه الليلة من بعد الليلة، تمهيدا للرقدة التى ليس من بعدها يقظة أو قيام .

وخرجنا من دار الاقامة نطلب المعرض. حجرات لا زينة فيها.

الزينة كانت فيما احتوت، مصاحف، سجاد. قلم البسط، بل اقلامه، وذكرتنا بالطفولة. ومحابر ومرامل. ومحبرة الشيخ ومقلمته، وهى من نحاس، رأينا المشايخ فى أيامنا الاولى تدسها بين الحزام والقفطان. والمرامل، ينثر منها الكاتب الرمل يجفف حبره بعد كتابة. ومناديل وفرش. والفناجين وأكواب الشراب والملابس الشرقية المزركشة الجميلة إلى أخر ما هنا لك .

حجرة من بعد حجرة، فيها التحف توزعت وتقسمت. ومن أجل تقسمها هذا فقدت الحياة. إن التحف التى سبقت، فيما رأينا ألفت كل منها وحدة حية تنبض بالحياة. وفيها كانت تجرى الحياة، وزادها حياة وجود خدم الدار فيها ورئيس الدار ، أشبه ما كانوا وصاحب الدار فيها.

أما المتحف فكسائر المتاحف.. جميل حقا، ولكنه كسائر المتاحف، يفتقد نبض الحياة وحركتها .

وخرجنا مرة أخرى إلى الحديقة

وأقول مرة أخرى أنها حديقة فيها متعة للعلم والعلماء

ثم ترحمنا

وودعنا

قال صاحبى : العود أحمد

قلت : أحمد ان شاء الله .

عبادة الله بغير علم *
كعبادة الأصنام

فرق هائل بين أن يعبد الجاهل ، وأن يعبد العالم .

الجاهل الذى يعبد الله ، وهو لا يدرى شيئا عن الله ، وعن آثاره ، كما يكشف عنها العلم ، كاد أن يعبد الله كما يعبد الصنم، لأن اقتناعه بقدرة الله ، وبعظمة الله ، فى أسلوبه وفى منهجه ، وفى مقداره ، كمثل اقتناع يقتنعه عابد الوثن بوثنه . ينشأ عابد الوثن على ما نشأه أبواه . قيل له أنه قدير ، فآمن ، وأنه يعطى الشر ويعطى الخير ، فآمن . وحفظاه من التعاويذ ما يدفع به شره، ومن الأدعية ما يجلب به خيره . وينشأ عابد الله على جهل ، كذلك كما نشأه أبواه . قيل له أن الله قدير ، فآمن وأنه يعطى الشر ويعطى الخير فآمن وحفظاه ما يدفع به نقمته ، ويستدر به نعمته ، فراح يتلوه صباح مساء ، كالببغاء .

فهذه عبادة الجهال .

---

* هلال - مايو ١٩٥٦

قل فيها ما تقول ، واعتذر عن أهل الجهل بما تعتذر ، فلن يغير هذا من الواقع شيئا وغير هذا عبادة العلماء .

إ دة العلماء ليست عبادة لفظ فحسب ، وإنما هى عبادة فكر . تأمل . فهى عبادة فكر أولا ثم لفظ ثانيا . واللفظ افرغ ما يكر ا لم يملأه معنى .

ادة ؟

لت نفسى : ما العبادة ؟

الجواب السريع بأنها عمل ، يكون من نتائجه ، لو صد امل الإنسان بنى الناس بالعدل فلا يظلم ، ولا يسرق، ولا يجرح ولا يقتل ، ولا يسعى بين الناس بالأذى ، من أى نوع ، وأن يحب للناس ما يحب لنفسه .

ولكن لا تلبث نفسى أن تقول : ما هذه هى العبادة ، ولكنها نتائج تنتج من العبادة ، لو صدقت ، فيما هو ضرورى لحسن المعايشة فى المجتمع الإنسانى .

أما العبادة فهى عند نفسى شئ آخر . هى استكناه المعبود ، بقدر ما يستطيع الإنسان من قدرة . من هو ؟ ما هو ؟ أهو واحد كامل ، أم أجزاء ؟ أم هو أجزاء متكاملة ، كواحد ؟

هل يرى ؟ هل يحس ؟ أم هو يعقل ، وكيف يعقل ، وإلى أى مدى يعقل ؟ هل هو أشياء هذا الكون التى نراها ، وتلك الأخرى

التى لسنا نراها ، أم هـو ذلك الشـئ المطلق الذى تجرد واختفى وراء ما نرى، وما لسنا نرى ، وامتلأ به هذا الوجود؟ أم ..وأم ..؟

أنه لا سبيل إلى شئ من ذلك إلا سبيل المعرفة .

المعرفة عبادة

والمعرفة كانت فى سوالف القرون ذات طرقات غير معبدة ، يسلكها القليل ، ويسلكونها عاما ويتركونها أعواما . والمحصول الذى يعودون به من هذا الطريق كان قليلا ، كان فيما بين بعضه وبعض اختلاف تقطعت به فيما بينهم العلائق . لأنه كان محصولا يلتقط اللاقط ما يلتقط منه اعتباطا لأن العاملين على التقاطه ، على قلتهم كانوا أفرادا ، لم يربط بينهم رباط ولم تجمع جامعة . وغير هذا صار حال المعرفة منذ قرنين أو ثلاثة انتظمت أمورها ، وتعبدت طرقاتها وترابط رجالها ، واجتمعوا فئات عدة ، كل فى سبيل ، يستهدفون هدفا واحدا ، يخططون له ، على التعاون ، خططا واحدة أو متشابهة وتتفرع السبيل الواحدة فتتفرع الفئات العاملة فيه . وكل ما يجد الباحثون ، المتواصلون فى كل بقاع الأرض ، يرقم فى كتاب وكتاب وكتاب . وتقرأ الكتب فيمحصها الرأى والنقاش .

العالم الحديث أكبر عابد

فذلك هو العلم الحديث ، علم هذا الكون ، بالذى فيه من مواد وقوى ، وظواهر جارية أو ساكنة لهذه المواد والقوى . وهو إلى اليوم أثبت قاعدة يستقر عليها اعتقاد وإيمان ، ما انفسحت تلك القاعدة للعقائد والإيمان وهى رقعة تتسع على الأيام ، فهى تنفسح غدا لما لم تكن تنفسح له اليوم .

فهذا العلم هو سبيل المعرفة بالله وهو السبيل الأول والاقوم . وهو آخر سبيل نجوز أن ترتفع إليه ريبة .

والباحث فى العلم ، إذا استهدف ببحثه الكشف ، ولو بعض كشف ، فى بعض جوانب الله ، فهو أكبر عابد واكرم قائم وراكع وساجد .

والقارئ للعلم ، يريد به استكناه حقيقة هذا القائم الأعظم على الكون والقائم فيه ، إنما يعبد الله على أسلوب ، هو فى صنوف العبادات فوق الأساليب ، لأن العقل فيه يتحرك نحو الله عن علم ، ويمتلئ به قلبه عن معرفة ، ويمتزج به عقلا وقلبا ، وجامعهما النور، والنور لا يكون منه إلا الصفاء ، كما الجهالة لا يكون منها إلا العكر ، ومع العكر الظلام .

العبادة بالعلم مجهود شاق لابد أن يبذل

وقراءة العلم ، ككل شئ يحصل ، تحتاج إلى مجهود يبذل ، أن الرزق فى الأرض ، ولكن لابد للأرض من حـرث ، وطالب الرزق يرويها من بعد حرث ، بعد أن يكون قد رواها ببعض عرقه الصبيب ، فهذا رزق الأجسام ومثله رزق الأرواح . لابد في ه من جهذ يبدل . وعرق يصب ، ورزق الأرواح المعرفة ، ورزقها العلم . وهما لا يشتريان كسائر أرزاق الحياة بالمال . لابد من النزول إلى أراضيهما ، ثم الانكباب عليها عزقا وحرثا ، لتخرج من بعد ذلك الثمار . وهى ثمار تشبع الأنفس . فالأنفس تشبع وتجوع ، كما تشبع وتجوع الأجسام .

الأنفس تجوع كما تجوع الأجسام .

إن الإنسان وحده ، من بين الحيوانات ، ومن بين سائر الخلائق بمقدار ما علمنا ، هو وحده الذى له نفس تجوع بحكم الطبع ، وتريد أن تشبع ، وتعطش بحكم الطبع ، وتريد أن ترتوى . وهى وحدها النفس المتسائلة عن علاقتها بهذا العماء الذى هى فيه.

إن النفس الإنسانية تقف فى العراء فوق سطح هذا الكوكب ، يغرقها النور الهابط من السماء كل أغراق فكل شئ فيما حولها ،

فى حاضرها واضح بين ، تستشف منه دون سائر الحيوان ما قدر الله أن يستشفه إنسان . ولكن الماضى .. ولكن المستقبل .. وذلك الميلاد الذى تبدأ به الحياة ، وذلك الموت التى تختتم به الحياة .. ثم ما قبل ميلاد ثم ما بعد موت .. أمور ، على نقيض ذلك الحاضر الواضح البين المشمس ، لاهى بالواضحة ولا البينة المشمسة ، أنها ظلمات استدبرها الإنسان عندما ولد ، وظلمات يستقبلها عندما يموت . والنفس الإنسانية ، التى لم تفسدها رحابة العيش ، أو التى لم يفسدها ضيقه ، واحتفظت بصحتها على الرخاء وعلى الشدة ، لا يمكن أن تنام فتغفل عن أن تستخير عما كان قبل هذا العيش ، وعما سوف يكون بعده .

الخوف من الموت

إن الذين يتحدثون اليوم عن الحياة الدنيا ، يذكرون الخوف أشد بلاياها : الخوف من الفقر . الخوف من المرض الخوف من الظلم . الخوف من الفوضى وضياع الأمن .. وبقى خوف يخاف ولا يذكره أحد ، ذلك الخوف من الموت .

والخوف من الموت قائم ، لاسبيل إلى تخفيفه إلا الجهل المطلق، جهل الإنسان الذى هو بعض جهل الحيوان ، فالحيوان لا يكاد

يدرك ما الموت حتى يكون . فإذا هو كان أعجله الموت عن ادراكه ، وسبيل أخر تذهب ببعض هذا الخوف . تلك سبيل العلم ، وسبيل التعبد باجتنائه ، وتلك سبيل الله . فلنقم معا لنمشى فى سبيله . سبحانه لها فى العراء ، بين الركام والأقذار .

قال صاحبى :

– ولكن الحجر لا يحس .

قلت :

– وكالحجر الناس ، وانتقل بك إلى ما يحس .. إلى الكلاب . كلب رأيته اليوم فى شارع من شوارع القاهرة ، حيث الحوانيت كثيرة ، والطعام كثير ، والخير كثير . أنه أسود ، وأنه لنحيف ، وهو أعرج وكأن به المرض ، وذيله تدلى ، والماء كأنه لم يمس جلده من سنين ، والطعام لم يدخل إلى جوفه من أيام ، وأى طعام ، ويريد أن يعبر الطريق وقف على الافريز فى ضعف مترددا يخشى . أنه لايزال به حب الحياة ، وتنظره أنت فتتراجع عنه خيفة ، أنه لا يزال بك أنت أيضا حب الحياة .. وكلب آخر ، ذو جلد صقيل ، بداخله لحم مكتنز سمين ، وتنظره فتكاد تحسب أنه خرج من الحمام توا ، وقام عن المائدة توا ، وتعطر توا ، وصاحبته عند

الباب فى السيارة تصفر إليه صفيرا خفيفا ، فإذا به عند بابها ، ويدخل السيارة فتغلق الباب ، ويضيق بالسيارة ، الكاديلاك ، لأن نافذتها مغلقة ، وتفتح له نافذة السيارة فيقعد عندها يطل منها ، يرى المارة والأشياء فيتسلى ، والسيارة تنهب الطريق نهبا . فهذا كلب وهذا كلب . وهذا ابن كلب ، وهذا ابن كلب ، ولكن شتان بين حظ وحظ ، وأى فرق كان بينهما ؟ أنه فرق مولد ، فرق فراش ، إن كانت على الفراش تولد الكلاب .

قال صاحبى :

- ولم اخترت الكلب ؟

قلت :

- لأنه لا يقرأ الأدب ولا يفهم الشعر ، وليس عنده من المعانى أن النجاح فى الحياة عمل ، وليس عنده من المعانى أن النجاح فى الحياة حظ . أنه لا يفهم معنى العمل ، ولا معنى الحظ ، وهو على الطبيعة ، ولهذا هو يكشف عن الطبيعة ، وأن شئت فيفضحها أحيانا ، واخترت الكلب لأننا لا نغلق دونه الأبواب حتى لا يسمع ما نقول فيفسد ! ومثل الكلب يا عزيزى الهرة ، هرة فى خيش بدوى ، وهرة فى بيت قائم على ضفاف النيل ، وعنزة .. نعم عنزة

.. عنزة يجرى صاحبها الفقير فى الطريق لتأكل من ورقه الأبيض والأصفر ، وعنزة يتخذونها تميمة لكتيبة تتقدمها على أنغام الموسيقى وفى عنقها أطواق من فضة أو ذهب .

قال صاحبى : والإنسان ؟!

قلت :

– نعم ، والإنسان .. أتعرف محمد بن نافع ؟ صفه ..

قال :

– قليل نحيف .

قلت :

– أن القلة والنحافة ضعف ، والضعف مرض . وهل تعرف على ابن الجهم ؟

قال :

– كثير الجسم ملئ

قلت :

– ومن الكثرة والامتلاء قوة ، والقوة صحة ، وهذان الولدان، قلة ونحافة ، وكثرة وامتلاء ، من يوم ولدا . نطفتان اودعتان رحمان ، فكان منهما هذان . والنجاح فى الحياة لاشك

من دعائمه الأولى جسم سليم قوى ، وقد يقال فلان يعمل ويجد ويجتهد ، فهو جدير بالثواب .. وفلان لا يعمل عمل الآخر ولا يجد ويجتهد كجده واجتهاده ، فهو جدير بثواب أقل ، وتحلل الأمر وترجعه إلى أصوله ، فتجد أنك أنما ارجعته إلى كثرة جسم وامتلاء فى حالة ، وإلى قلة ونحافة فى حالة ، إذا فتلك حظوظ بدأت من يوم ميلاد .

ولم يكن لمحمد بن نافع رأى يسمع وهو يولد ، فى قلة جسمه ونحافة ورثها ، ولم يكن لعلى بن الجهم رأى يسمع ، أو لا يسمع ، فى كثرة جسمه وامتلائه . أنها الحظوظ الصرفة .

قال صاحبى ·

– ولكن الإنسان الواعى ، بجده واجتهاده ، يستطيع فى الحياة أن يعوض عما فاته من كثرة جسم وامتلاء .

قلت :

– نعم ، رجل يبذل جهدا ثمينا يسد به نقصا ، ليس من ذنبه ، ورجل يبذل مثل هذا المجهود فلا يسد به نقصا ، وإنما يكسب زيادة ، طفل يولد وعليه دين ، يكون أول عمله فى الحياة سداد هذا الدين ، وطفل يولد ولا دين عليه ، فيكون أول عمله

فى الحياة الكسب الخالص . ويبلغ من الحياة ما يبلغ ، فيصفق الناس له ، ويأتى الآخر فى آخر السباق ، للذى حمل من أثقال ، فلا يكاد ينظر الناس إياه .

قال صاحبى :

- فإذا استوى الطفلان ميلادا ؟

قلت :

- قامت الظروف والبيئة توزع عليهم الحظوظ أقساطا . رجل يولد فى أقصى الأرض ، فى ركن من أركان الدنيا المنسية ، حيث لا ثقافة ولا مدنية ، ورجل يولد فى قلب العاصمة ، حيث موارد الثقافة ومسارح المدنية . هذا يرى ويسمع ويغترف مما حوله ، وذاك البعيد لا يرى ولا يسمع ، وأن هو سمع فما أبعد المغترف . وفى العاصمة الواحدة .. أتعرف أدهم ؟

قال صاحبى :

- نعم . ثرى مثقف .

قلت :

- وعنده ولد واحد وابنة واحدة ، وأنت تعرف لاشك خالدا أبا محمود ، فقير ، وعنده عشرة من الأولاد ، أكبرهم جاز أن يكون

أبا لأصغرهم ، ومات الرجل ، فهل تدرى من قام بحمل هذا العبء الثقيل من بعده ؟ أنه محمود ، عبء تسعة من الأولاد أكثرهم الصغار . ابنا أدهم ، ابنه وابنته ، يتقدمان فى الحياة ، على الثقافة والثراء ، ويقال لهما فى آخر الحياة ما أنجح وما أجدر .
وأبناء خالد يخطون في سبيل الحياة خطوات ثقيلة ، بأرجل لبست أحذية .

رجال

لهم تـــاريخ

أبطال لا تقام لهم أنصاب *

ليس كالتاريخ قصة متصلة، لا نعرف لها أولا، ولن نعرف لها آخرا. وهذا الذى نحكى إنما اقتبس مما كتب كتاب التاريخ وسجلوا. وهو كالتاريخ قصة متصلة.. من أجل هذا كان لابد لنا من أن نجعل له ابتداء، ونجعل انتهاء، فى زمان وفى مكان.

أما الزمان الذى بدأ فيه فيوم من أواخر أيام يونيو عام ١٩٠٠، وأما المكان فبلدة سان كرستوبال بجزيرة كوبا من الهند الغربية. وكانت الولايات المتحدة قد فرغ جندها من محاربة الاسبانيين ومحو سلطانهم من الجزيرة. وولوا حاكما على الجزيرة، رئيس الجيش الظافر، الجنرال وود، وكان مقره العاصمة، مدينة هافانا.

ففى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم، فى بلدة سان كرستوبال، عند باب المعسكر الأكبر، تنظر فتجد ضابطين أمريكيين يدخلان اليه وقد استغرقا فى الحديث استغراقا. وهدفا

* هلال - مارس ١٩٤٩

إلى حجرة لهما، ثم أخذا يتهيآن للنوم. ورقدا على فراشهما والحديث لا ينقطع.

الضابط الأول – أنا موافقك على أكثر ما قلت، غير أنى لست أدرى أيهما أكثر وبالا علينا: حرب الأسبان، أم هذا الوباء اللعين. أتدرى اننا خسرنا من رجالنا بسبب هذا الوباء أضعاف ما خسرناه فى الحرب. كأن الملاريا لم تكفنا حتى سلط الله علينا هذه الحمى التى سموها الصفراء.

الضابط الثاني – إن المصيبة ليست فى أن تقع فينا هذه الحمى، الدكتور «ولتر ريد» فى الخامس والعشرين من يونيو عام ١٩٠٠. وتألفت البعثة منه، وهو الدكتور القديم الذى عرف البرارى الأمريكية، ومن الدكتور كارول، وهو طبيب مساعد فى الجيش، ومن لازار، وكان قد تدرب على الميكروب، فحصه وتربيته، فى معامل أوربا. وكان خامس الخمسة يدعى اجرامنتو، وهو رجل من كوبا نفسها، أكثر عمله فى البعثة شق الجثث للبحث عن الميكروب.

وجاء ولتر إلى بلدة كيمادوس، ليستقر ويعمل فى مستشفاتها، فهاله أول ما هال تلك الأجساد الكثيرة التى رآها تخرج منه

محمولة على الأعناق، وقد اشتفت من آلامها كل اشتفاء، ومن كل ألم، إلى الأبد.

وظل هو ورجاله يعملون شهرا. ثم اجتمعوا فى حجرة من حجر المستشفى يتداولون:

لازار – نعم ياسيدى لم نجد أثرا للميكروب فى هذه الحالات الثمان عشرة. لقد فحصنا دماءها، وفحصنا أبرازها، وفحصنا لعابها، فوجدناها كأطهر ما تكون فى الجسم والجسم سليم.

اجرامنتو – الحالات الأربع التى ماتت من هذه الثمان عشرة، شرحنا جثثها، وأخذنا من أكبادها، ومن معداتها وأمعائها، وكل عضو فيها، فلم نجد فيها شبه بشلة واحدة مما زعمنا أنها سبب هذا الوباء.

ريد – لقد انسد فى وجهنا الطريق لا شك. وأنا لا يهمنى انسداد طريق اتخذناه، لأن فى هذا انذارا لنا بأننا ضللنا السبيل، فما علينا للنجاح الا أن نتحول. ولكن الذى يهمنى أن نتأكد من أن الطريق مسدود حقا، وأننا لم نخدع فيه.

كارول – لا أحسب أن فى الأمر خداعا. فالحالات التى فحصناها كافية، والزرائع التى زرعناها من الميكروب، بل من مظنته، عديدة، فلو أن هناك بكتريا واحدة حية ما أفلتت. على أنه

لا يزال يتردد فى أذنى ما سمعته عن ذلك الدكتور المأفون، الدكتور كارلوس فنلى. أنى أخشى أن يكون هذا الذى شاع عنه من أفن، يستر وراءه فكرة صائبة من تلك الفكر التى تصدر أحيانا عن بعض المجانين.

ريد - أليس هو الرجل الذى يقول أن ميكروب هذه الحمى ينقلها البعوض فيما يشربه من دم المريض ؟

كارول - نعم هو يقول ذلك، فإذا جاءت هذه البعوضة فشربت من دم الرجل الصحيح، تركت فى دمه ميكروبا مما حملت، فتكاثر وترعرع وجر على الجسم الذى أضافه المرض فالموت.

لقد لاحظت أن هذه الحمى الصفراء لا تصيب المرضات، وهى قائمات قاعدات فى بؤرتها. فلو أن هذه الحمى تنقل من انسان إلى إنسان مباشرة لا نتقلت من المرضى إلى هؤلاء المرضات. وهذا ما يتفق مع نظرية هذا الرجل.

لازار - وهذا يتفق أيضا مع ما سبق أن لاحظناه من أن الداء يظهر بغتة من حيث لا ينتظر ظهوره. أنه يظهر اليوم فى بيت رقم ٣ فى شارع الأميرة ديانا، ثم إذا هو يظهر بعد ذلك على بعد كيلو متر فى بيت رقم ١٢ شارع كردوس ، كأن شيئا ينقله عبر هذه البيوت. فلعله البعوض.

ريد – وهبو أننا أخذنا بهذا الرأى ، فماذا نحن صانعون ؟

كارول – نقوم بالتجربة. نأتى ببعوضة، فنغذيها من دم مريض بالحمى، ثم نغذيها من دم ...

ريد – لماذا سكت ؟ استمر، ولا يهولنك ختام الجملة. لقد أدركت أن هذه الحمى لا تصيب الأرانب ولا الفئران ولا غيرها من الحيوانات التجريبية التى جرت العادة باقامتها مقام الانسان تتلقى المرض والموت دونه. أنك لتمام جملتك ولتمام المنطق وجب أن تقول: ثم نغذى هذه البعوضة الملوثة من دم انسان سليم. وهو سوف يجيئه المرض، وقد يجيئه الموت، وهذا قتل للنفس التى حرم الله. أليس هذا ما أردت أن تقول. أليس هذا ما عنيت؟ .

لازار – نعم هذا ما أعنى، ولكن الأمر لن يكون قتلا، إذا نحن جربناه عن رضا فى أنفسنا نحن وأنا أهب جسمى لأول تجربة.

كارول – بل أنا أكون أول واهب.

أجرامنتو – بل أنا، فجسمى من أجسام أهل الجزيرة.

ريد – لا ياأجرامنتو، جسمك لا ينفع، لأنه سبق أن أصابته الحمى فتحصن دونها، فهى لن تأتيه. على أنه يخيل إلىَّ أننا أمنا بنظرية الدكتور فنلى دون أن نلقاه، أفلا يحسن أن نتلقى الرسالة من لسان نبيها؟ هلموا بنا إليه ، هلموا.

* * *

هذا يوم من أيام أغسطس . وفيه اجتمع رجال البعثة، ولكنهم كانوا هذه المرة أربعة لا خمسة، ذلك أن الرئيس «ريد»، استدعته حكومة الولايات على عجل. وأتمر الأربعة. واتمروا سرا كأنما يأتمرون على جناية، لأن أمر هذه التجارب وجب أن يكون مكتوما. أن السلطات لن تقره . أنها لن تقر أما فيه قتل للنفس التى حرم الله. وانتهوا على أن يجرب لازار، لسعة البعوض، أول مجرب، وتطوع معه سبعة رجال لم يذكر التاريخ من أسمائهم شيئا.

هذا لازار قائم بين أسرة المرضى، وأن فى وجههم لصفرة، وفى أعينهم لحمرة، والنار تشع من أبدانهم. ووضع لازار على أجسامهم بعوضات أناثا، على ظهورها خطوط بيضاء لها بريق الفضة. فلما شربت ملئها، حملها إلى مأويها تحت الزجاج ومعها السكر والماء. ثم وضعها بعد حين على ذراعه هو، وأذرع السبعة الآخرين، حتى شربت ملئها. وتربص بنفسه، وتربص بالآخرين أن تجيئهم الحمى، وقد يجىء الموت. وقد علم أن الموت قد يجىء ثمانين من كل مائة من المرضى، وقد يجىء خمسين، وقد يترفق فيجىء العشرين. ولكن ضاع تربصهم سدى. لم تجىء الحمى أحدا منهم. فشل ذريع لاشك فيه.

ولكن الفشل من بوادر النجاح، والباب المسدود يدل على الباب المفتوح. هكذا قال ريد.

لابد أن البعوض لم يهضم ما دخل فيه من خبث. أو لعل البعوض يكون أفعل وأنكى لو أنه تغذى على أكثر من مريض. أو لعل ..

وفى صباح يوم حطت بعوضة أطعموها من دماء للمرضى كثيرة، حطت على ذراع كارول، وعلى صاحب له ، تطوع كما تطوع أصحاب له من بعد.

ومضى يوم وكارول يباشر عمله فى المستشفى كأن لم يحدث شىء. ثم بدا عليه فى اليوم الثالث هبوط قعد به على واجباته فى ذلك اليوم. ومضى يومان فإذا به يقول أنها الملاريا. وقام على سريره إلى مجهره يفحص دما أخذه من جلده. لا . ليس لميكروب الملاريا فى دمه أثر. يارحمة الله. أنها الحمى الصفراء !

وحملوه إلى عنبر بالمستشفى حملا.

وبدأ الناس يذكرون عمره. أنه فى السادسة والأربعين. وبدأوا يعددون أطفاله . وبدأوا يعددون ما قد يخلف لهم من مال. أن له مرتبا ولا شىء غير المرتب، وهو مرتب جيش، ضئيل حقير .

واحمرت من كارول عيناه، وتربد وجهه، وأصفر لونه، وجاءت ساعة حسب فيها الناس أن قلبه قد توقف. لقد قارب الموت إلا شعرة. ولكن جاءت رحمة الله.

* * *

قال كارول بعد أن صح وقام عن فراشه .

– أنا سعيد بجسمي، لأنه أول جسم أثبت أن هذه الحمى ينقل ميكروبها البعوض.

وهز لازار رأسه ثم قال:

– وما أدرك قائما أنه البعوض؟ أنك خالطت المرضى إلى يوم أن سقطت.

وسمع كارول قول لازار، ووعى منه كثيرا. ودخلت نفسه مما قال ريبة. أى وأيم الحق ما الذى أدرانى أنه البعوض؟

ومضت أيام .. وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر . وندخل فى ذلك اليوم المستشفى فتجد لازار قائما يغذى بعوضه.

وحطت بعوضة على يده، وهو قائم فى إطعامها. أنها البعوضة المخوفة. وخطر للازار خاطر بأن ينشها عن يده. ولكن صائحا فى نفسه أخذ يصيح به لا تفعل. واستجاب للصائح، وهمس بالبعوضة: «اشربى ملئك واهنئى ياعزيزتى. لقد فاتنى التطوع لك فجئت تطوعيننى غصبا، ولست والله بناكص».

وشربت البعوضة ملئها.

وتقرأ سجلات المستشفى بعد ذلك، فماذا تجد؟ . تجد:

الثامن عشر من سبتمبر: أحس الدكتور لازار بتعكر فى مزاجه. وفى الساعة الثامنة جاءته رعدة.

التاسع عشر من سبتمبر: الساعة ١٢، الحرارة ٣٩,١ درجة ، والنبض ١١٢. فى العين احتقان . وفى الوجه اختضاب. الساعة ٦ مساء، الحرارة أربعون، والنبض ١٠٦ .

العشرون من ستبمبر ظهرت الصفراء.

وهكذا تقدم المرض إلى غايته المحتومة.

وفى اليوم الأخير تقرأ:

الخامس والعشرون من سبتمبر: فاضت روح زميلنا مأسوفا عليه، مبكيا، فى الساعة السابعة والدقيقة العاشرة مساء.

وتسألهم كم خلف وراءه؟ فيأتيك الجواب: «زوجة وولدين، لا عائل لهم سواه» !

* * *

عاد ولتر ريد، رئيس البعثة من الولايات، لقيه كارول عند نزوله وهمس له بالخبر السيء، فتحرك الرجل للخبر واهتاج، وما هى الا

دقيقة حتى دمعت عيناه، ولكنه لم يأذن للدمع أن يجرى إلى الأرض، فقد مسحه خشية أن تلين قناته، وليس فى حرب، أية حرب، ينفع أحدا أن تلين له قناة ، وحرب الميكروب خاصة.

ولم يكد يستقر به الحال حتى ذهب إلى رئيس الجيش، وحاكم الجزيرة الجنرال وود. وفضح له ما كان. والجنرال طبيب قديم، فما كان منه الا أن أذن لولتر أن يسير إلى آخر المدى. وأمده بمال ليبنى لبحوثه، وليتجهز. وأمده بمال ليشترى أرانب تجريبية، وأذن له أن تكون انسانية. قوما يبيعون أنفسهم بالدراهم والدنانير، وقد يشاء القدر ألا ينفقوا منها دينارا واحدا.

وأقام «ريد» بظاهر البلدة معسكرا خصيصا بهذا البحث. لقد انفضح السر فصار اجراؤه إعلانا. وأقام خياما ، وأقام أبنية، وفى أوسطها رفع العلم. وسمى المعسكر معسكر لازار، ترحما وذكرى.

* * *

وجلس «ريد» فى مكتبه ذات يوم. فدق الباب، فدخل عليه كارول يعلن حضور اثنين من الجند تطوعا للتجارب الانسانية. فعجب «ريد» لهذه السرعة، فهو كان قد أعلن فتح الباب ، باب التطوع فى الجيش، ولم يكن جف مداده بعد.

ودخل الجندى النفر كيسجر، ودخل الجندى موران، وأديا السلام.

وأخذ «ريد» يشرح لهما ما هما قادمان عليه ، وأنه سوف يصيبهما صداع للرأس، ويقيئان القىء الأسود، وتكتوى أجسامهما بالنار. وقد يكون من نصيبهما النجاء وقد يكون الفناء . وقال أن للمتطوع من بعد ذلك ٣٠٠ دولار.

قالا : «نحن لا نبيع أجسامنا ، ولكن نهبها افتداء» .

فقام رئيس البعثة الطبيب العسكرى، قام لتوه عن مقعده، واستقام عودا، ورفع يده إلى قبعته بالسلام وهو يقول: «لكما تحيتى أيها البطلان».

ووضعوهما فى الحجر أياما، لا يدخل اليهما بعوض، ولا يصل اليهما مريض، أو من مس مريضا. وأطلقوا عليهما من بعد ذلك البعوض بعد تلويثه، وجاءتهما الحمى أشنع ما تكون.ليت لازار امتد به العمر ليعرف هذا، فيؤمن بأن الذى كان أصاب كارول من حمى، كان من بعوض، ولا شىء غير البعوض.

وجاء من بعد هذين البطلين أبطال. ولا تسلنى كم منهم مات، وكم منهم عاش. ولكن سلنى كم منهم رضى الموت، وتحداه، وتحدى آلامه. فأقول: جميعا.

ومن أغرب ما جرى من تجارب، تجارب أدى إليها المنطق القاسى الذى لا يرحم. قضى المنطق باثبات آن مخالطة المرضى لا تعطى الحمى، وأنه لابد حقا من ذلك من واسطة، هى البعوض.

وجاءوا بالرجال الشجعان، فأدخولهم بيتا. ودخل البيت وراءهم صناديق. وقيل لهم من وراء الشباك افتحوها. فلما فتحوها روعهم ما فيها. كان فى الصناديق أوسدة المرضى الذاهبين وقد جف عليها قيؤهم، وملاءات أسرة الموتى وقد جمد عليها ما كان خرج من بطونهم . وصاح بهم «ريد» من وراء الحواجز: «انفضوها لتملأوا الحجرات بأسباب الموت التى فيها». ونفضوها، وتوسدوا الوسائد وافترشوا الملاءات. افترشوها عراة . وقضوا فى الدار عشرين يوما عددا.

ولم يصبهم شىء. الا شيئا من أرق، جاءهم لما خالوا أن أرواح الموتى تحوم . حول الدار كلما جاء الليل وأظلمت الحجرات.

وقد تحسب أن فى هذا الكفاية، ولكن لا . أن عدد الابطال البائعين أنفسهم فى سبيل العلم كثيرون، فلم لا يزيد «ريد» فيما هو فيه توكيدا.

ودخل آخرون هذا البيت اللعين من جديد. وفتحت صناديق، صناديق جديدة بها من قذر الموت كل طريف. ووضع الشبان المتطوعون أيديهم على أنوفهم وهربوا من البيت. ولكنهم عادوا عن طواعية. وناموا فيه كأصحابهم السابقين عشرين يوما، مع تعديل في التجربة بسيط، أنهم ناموا هذه المرة في أقمصة من ماتوا.

وأعيدت التجربة على آخرين مع تعديل آخر أبرع. ذلك أنهم توسدوا الوسائد وعليها بشاكيره غمسوها في دماء من رحلوا، حتى شربت منها حتى أرتوت.

وخرجوا جميعا من هذا البيت كما دخلوه أصحاء. في الأجسام عافية ولكن في الانفس غثاء وميعة وانتهى ولتر، وانتهى كارول، وانتهت البعثة إلى ما قصدت اليه: أن للحمى الصفراء ميكروبا لا تراه المجاهر، وأنه لا ينتقل من جسم إلى جسم باللمس، وحتى ولا بالغمس في دماء المرضى، وأنه لابد من بعوض.

وتحركت الدنيا لما أعلنوا الخبر. وجاءهم العلماء يسألون ويستفتون من كل صعيد.

وقامت حرب على البعوض في عاصمة الجزيرة، هافانا. فلما خلصت من البعوض انقطعت عنها الحمى، فلم يبق فيها مريض.

واتجهت الانظار إلى برزخ بنما ذلك الذى أراد دليسبس أن يحفر فيه قناة كقناة السويس، تزيده مجدا على مجد، فجلبت له الخزى والخسران. وأعان على اخفاقه ، فعلى خزيه وعلى خسرانه، بعوض هذه الحمى اللعينة. كان قد فتك بالعمال فأحجموا، وأحجم معهم المسئولون.

وجزدوا بنما من وبائها، وحفروا القناة، وافتتحوها عام ١٩١٤.

ولكن لم يعش «ولتر ريد» ليرى افتتاحها ، فقد مات بعد أن انتهى من تجاربه بنحو عامين. مات عام ١٩٠٢. ولم يعش كارول ليشهد افتتاح القناة. لقد كان قلبه سكن مرة فى أبان الحمى، ولكن عاد فسكن فى عام ١٩٠٩، ولم يستأنف نشاطه من بعد سكون.

ولا أحسب أحدا من هؤلاء الابطال شهد هذا الحادث الضخم، فتح القناة التى وصلت محيطين. لا أحسب أن أحدا ذكرهم فدعاهم عند افتتاح القناة.

أنهم أبطال ، بذلوا فى سبيل المبدأ الحلو أقصى ما يبذل الناس: تلك الحياة. لقد قامروا بها مقامرة ليست بذات حظوظ. مقامرة جنى فيها من جنى الموت ، أو هو جنى الحياة، ومع الحياة

خمول الذكر. أنهم أبطال لم يهتف وراءهم هاتف، ولم تصفق لهم أيد، ولم تبن لهم التماثيل والأنصاب.

وأنها لبطولة صامتة غير صارخة، ليس لها جزاء غير رضا الضمير وغير لذة دخيلة يستلذها الوجدان.

لقد آن للناس أن يكفروا بالمجد الذى يحوطه الضجيج، لأن أكثره مجد زائف . أنه كالطبل ، أعلاه صوتا أفرغه.

إن الأمم، وإن الانسانية ، تقدمت ، وسوف تتقدم إلى غايتها المأمولة، لا بالصراخ وراء رجل أو بضعة رجال، ولكن بأبطال الوف، يعملون عمل الحياة على الصمت، وفى ضياء غير باهر، لا يبالون زخرف الحياة، ولا يجزعون من الموت، ويؤمنون بالله. وبأن المجد كله لله.

هـ . ج . ولز*

يبدأ الناس تاريخ الرجال بذكر مولدهم ، ويختمون بذكر موتهم، لأنه هكذا يجرى الزمان . وأنا أحب أن أعكس، فأبدأ بالطرف الأخطر، فأذكر متى انطفأت شعلة الرجل، من بعد أن ملأت الدنيا ضياء ، وملأ حديثه جو الأرض ضوضاء . لقد انطفأت هذه الشعلة، وحق لها أن تنطفىء ، عام ١٩٤٦ . ولقد ود الموت قبل أن يموت، ووده له الصحب والاصدقاء ، خلاصا مما هو فيه . فقد كان هرما، وكان مريضا ، وكان متعبا . أنهكته الحياة، وأنهكت أعصابه ، وثقلت على أكتافه الأعوام. فلو أنه عرف عوف الشيبانى، لقال مع عوف ، فى غير لفظه تماما :

أن الثمانين و «جنبتها» .

قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فهو مات عندما بلغ الثمانين تماما .

ولم أكن رأيته عند الثمانين ، ولكن رأيته عند الستين، أو أنا على التحقيق رأيته بعد أن سلخ من عقده السابع عاما .

---

* هلال – مايو ١٩٤٩

كنت أسكن أنا وزوجتي ، وابنتي الصغيرة ، ضاحية من ضواحي لندن ، تعرف بهندن . وخرجنا راجلين نتروض في الطريق ، في اشراقة من الشمس نادرة ، فإذا نحن بموكب جلله السواد ، كما جلله السكون، وجللته رهبة . أنها جنازة لرجل نابه ، لاشك في هذا .. وسألنا ، فقيل أنها امرأة ، وأنها زوجة الكاتب المعروف «ولز» . وحادت الجنازة عن الطريق العام، فعرفنا إلى أي هدف يهدفون . أنه مكان يحرقون فيه جثث الموتى، في هذه العطفة الظليلة بأشجارها العالية، البليلة بالمطر الذي كان . ووقفنا على رأس هذه العطفة ننظر مع الناظرين . ومر النعش، وتأملنا وراءه من أصحاب المعاطف الطويلة السوداء؟ فوجدنا «ولز» ، وقد علت وجهه جهمة خفيفة في وجه جامد ، فلو أنه كان من صلصال ما كان أكثر جمودا . وتعلقت عيناه بشيء أمامه ، لا تلويان عنه . أنه النعش ، نعش المرأة الحبيبة ، التي لن يمضي على رميها يوم حتى يصبح شيئاً قليلا من رماد ، في وعاء من زجاج ، هو كل ما سوف تعرفه من قبر ، وهو كل ما سوف يحتويها من كفن .

لا شك أن «ولز» عاد من بعد يوم أو يومين، ليأخذ هذه الزجاجة ، وما أحتوته من تراب، ليعود بها إلى بيته . ولا شك أنه

عاد إلى بيته ، وأمعن النظر فى هذا التراب طويلا . أنها ثلاث وثلاثون سنة من عمره تجمعت كلها فى هذا التراب !

***

منذ ثلاث وثلاثين سنة كانت «كترينة» تلميذة له ، فأعجبها وأعجبته . وكان تزوج قبل ذلك بابنة خال له . ولم تكن هذه بذات رأى أو ثقافة ، فهجرها وراح يعيش مع هذه التلميذة النجيبة أرخص عيش. كان اذ ذاك ابن ثمان وعشرين، وكان معتل الجسم، وكانت رقيقة البنية، فاتخذا من ذاك عذرا عن الزواج. ولكن لم يمض عام حتى تزوجا . فكانت منذ تلك الساعة إلى أن صارت ترابا، حارسته ، وكانت حاميته ، وكانت مشيرته، وكانت وكيلته فى كل ما أتم من صفقات ، وكانت القوة المحركة الدافعة من ورائه . وخرج عن حديقتها إلى حدائق الجيران يقتطف الزهور المحرمة ، فكانت مساك البيت الذى منعه أن يتهدم ، وكانت الصخرة التى تصدت للأمواج فحطمتها ، فحمت من ورائها الاسرة أن تتحطم. واستبانت العبقرية فى زوجها ، فجعلت همها فى الحياة أن تعطى لهذه العبقرية، ما وسعها الاعطاء ، وأن تغفر لها ما وسعتها المغفرة .

كل هذا لا شك دار به فكر رجلنا الكبير وهو جالس وحيدا فى بيته ينظر إلى رطل الرماد الذى احتوته تلك القارورة ، وهى كل الذى بقى له من أيام سلفت، من حلوة ومريرة .

واستبان «ولز» بعد موتها كم فقد بموتها . ودفع الدين كاملا فيما كتب بعد ذلك .. دفعه اعترافا بجميل تلك المرأة التى ساءها فلم يجد منها إلا إحسانا .

***

لا أدرى لماذا ينتظر الناس، عندما يقرأون تاريخ العظماء ، أن يقرأوا شيئاً عجبا. أن تاريخ العظماء ، أودعنى أخصص فأقول أن تاريخ الكتاب، لا يمكن أن يختلف كثيرا عن تاريخ غيرهم من خلق الله من حيث الطعام والشراب، والحب ، وتذوق ثمرات الأرض والتقلب فى أحضان العيش. فهم كخلق الله يحسنون ويسيئون ، وهم كخلق الله يهتدون ويضلون، وهم كخلق الله تستعبدهم الشهوة أحياناً ويستعبدونها أحيانا ، وتستذلهم الأثرة أحيانا ويستذلونها أحيانا ، ويركبهم الشيطان بعض الطريق ويركبونه بعضه. والكاتب الذى جعل العقل كل عماده. والمنطق محك كل أشيائه ، وتحرر من كل قيد تقيد به الناس، وتنكب عن الطريق المعبدة عله يجد طريقا

أهدى، واستهدف الغايات على سفينته هو ، وبأبرته هو ، وعلى قواعد للملاحة أخرى سنها هو ، عله يجد إلى الغايات طريقا أقصر .. هذا الكاتب العقلى تعديه الحرية فى غير ناحيته العقلية، فتصيب ناحيته الخلقية . فقد يأتى فى سلوكه أحسن مما يأتى به الناس، وقد يأتى بأسوأ مما يأتى به الناس ويحمد له الحسن ويغتفر له القبيح ، أو ما نعده نحن على القيد قبيحا ، ذلك أنه ما تحرر ، فاهتدى فى حكمنا أو ضل ، إلا لينفع الناس. وهو ما سبق القافلة ، فشق طريقه فى عماية الزمن وظلمته ، الا لينبلج من وراء هذه الظلمة النور .

وما كان «ولز» نبيا ، وما جاز له أن يكون. كان «ولز» صاحب رسالة حقا ، ولكنها رسالة فكرية . فلبنات أفكاره يحب أن يتوجه البحث والتاريخ لمن أراد بحثا وتاريخا . أما ما جرى لشخصه فى الحياة ، فلا خطر له فى ذاته إلا بالقدر الذى يتصل بالفكر ويؤثر فى نتاج العقل .

***

كان «هربرت جورج ولز» أكبر كاتب انجليزى فى القرن العشرين . شغل عقول الناس ، فداعبها ، ولاعبها ، وناوشها ، وناجزها ، وهو ، وأن لم يصل إلى الحكم ، وعلى الرغم من أنه

خاب عندما طلب النيابة، فهو أكبر رجل قلب بقلمه نظام الحكم فى انجلترا ، رأسا على عقب. وهو الرجل الذى فتح باب مجلس النواب ليدخله أحبابه وأنصاره . كانت رسالته : اشتراكية ديموقراطية محققة فى زماننا هذا .. وقد تحققت له الاشتراكية ، وتحققت الديموقراطية ، وتحققت فى زمانه ، ورأى حكومة العمال تحكم ، من بعد الحرب العالمية الأولى فى غير كثرة ، ثم إذا هى تحكم من بعد الحرب العالمية الثانية فى كثرة كاسحة .

والذى يذكر «ولز» يذكر «شو» ، جورج برنارد شو . والذى يذكر هذا وهذا ، لابد أن يذكر «وب» وامرأة «وب». ثالوث ، أو أن شئت فقل رابوع ، عملوا فى اتفاق قليل ، وفى اختلاف كثير، على بذر بذور الاشتراكية فى انجلترا ، فى زمان لم تكن أرضها بالتى تنبت فيها أمثال هذه البذور . ولكنهم اتخذوا من أقلامهم فئوسا حرثوا بها هذه الأرض ، فجعلوا عاليها سافلا ، وسافلها عاليا ، وأنبتوا النبات فنما وترعرع ، فى بطء وعلى عوادة ، وفى ثورة فكرية اتسع لها الزمان فما كاد يحس بها الناس .

وكان لكل من هؤلاء طريقته وكان «لولز» طريقته .. وهى طريقة اتفقت مع مزاجه ونشأته .

***

كان أبو «ولز» بستانيا . وكان جده بستانيا . والفرق بين جده وأبيه ، أن جده كان بستانيا ناجحا ، وكان أبوه بستانيا خائبا . وفتح أبوه دكانا يبيع فيها الصينى ، تدهوا على الأيام. وتزوج أبوه من أمه، وكانت وصيفة لسيدة ذات مقام ، وكانت فى بيت هذه السيدة ذات المقام تعلمت الرقة، وتعلمت حسن العيش . وضاقت أمه بخيبة أبيه، فهجرته ، وعادت تعمل وصيفة فى ذاك البيت الأول مرة أخرى . وظلت هناك ثلاث عشرة ، كانت فيها سند ابنها . ومن المضحك أنها كانت سند أبيه أيضا .

هذه الأم هى التى بعثت ابنها «هربرت» ليتعلم الكتابة والقراءة، ثم بعثته إلى مدرسة أهلية يتعلم فيها التجارة ووقفت إلى جانبه، حتى كان منه ما كان. فالى الأنثى فى أمه، وإلى الأنثى فى زوجته، يعزى الفضل الأكبر فى نجاح «ولز» صبيا ورجلا .

وتقلب «ولز» على الحوانيت ، يبيع القماش ، ويبيع الزجاج، ويبيع ما خف وثقل مما يستبضع الرجال والنساء. وحدث أن التحق بدكان صيدلى ، فذاق فيها من العلم أول مذاق . وكان يقرأ كثيرا ، وأعلنوا عن مكافآت دراسية فتقدم لها، ونال إحداها ، ودخل بها كلية للعلوم فى لندن ، تعد طلابها لتدريس العلوم .

وتفتحت نفسه للدرس في ظل العالم المشهور «توماس هكسلى» ، جد العالم الحاضر المعروف «جوليان هكسلى» ، وأخيه القصاص المشهور «ألدس هكسلى» . ولكن ما لبث أن أطفأ جذوة الرغبة فيه اساتذة آخرون ، لم يكن فيهم إثارة ، ولا فيما يقولون لذة . وترك الكلية بعد ثلاث سنوات ، من غير درجة . ولكنه نال الدرجة بعد ثلاث سنوات .

ترك الكلية عام ١٨٨٧ ، وله من العمر إحدى وعشرون سنه ومارس التدريس ست سنين .

ومن التدريس .. تدريس العلوم، انتقل شيئاً فشيئاً إلى الصحافة . ولكنه بقي في صحافته مدرسا، ورجل علم . بل بقي فيما أتى بعد ذلك من حياته ، مدرسا ، ورجل علم . واتصل ناشئا بالجمعية الفابية المشهورة ، Fabian Society مدرسة الاشتراكية الأولى في انجلترا . مدرسة «شو» و «وب» ، فوجهته أول توجيه إلى الاشتراكية ، ومن الاشتراكية إلى السياسة .

ومن الصحافة انتقل بعد ردح من الزمن إلى التأليف مزيجا من أدب وعلم، ومن سياسة .

وذاعت كتبه أكبر ذيوع ، لا سيما بين الشباب ، لأنه اتخذ العلم سببا يتنبأ به عن مستقبل للناس زاهر، كتب قصصا ، فيها

الحب وفيها المغامرة ، وفيها العلم محبوكا مسبوكا يفتح للناس طاقات يرون منها المستقبل بطياراته ودباباته ، وغازاته وميكروباته ومهلكاته . وفى عام ١٩٠١ وصف الحرب المستقبلة ، فكأنما كان يصف حرب عام ١٩٤٠ .

وأفرغ «ولز» أكبر مجهوده فى هذه الناحية ، ناحية مزاوجة العلم بالخيال ، وبالسياسة ، ما بين عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩١٢ .

وجاءت الحرب العالمية الأولى وانتهت ، فاتجه فى التأليف وجهه جديدة . غلبت عليه صفة المعلم فراح يكتب للناس كتابه المشهور «خلاصة التاريخ» . Outline of History كتبه عام ١٩٢٠ ، وباع منه مليونا ونصف مليون نسخة . وكتب «علم الحياة "The Sci- ence of Life عام ١٩٢٩ وكتب «عمل الانسان، وثروته وسعادته» فى عام ١٩٣٢ .

وإلى جانب ما ألف ، فى شبابه ، وفى كهولته ، من مؤلفات عديدة شتيتة ، لم يكف عن تأليف وعن كتابه حتى سكنت يده ، وسقط بالموت من بين أناملها قلمه . ولست أنسى صحيفة الأحد، تأتينى فأجس لها ضحى الآحاد ، فى العشر السنوات التى قضيتها فى انجلترا ، استمتع فيها، فى انتظار شواء الغداء ،

شواء الأحد ، بمقالة «ولز» . ولم يكن ما يقول دائما سهلا . كان من الصنف الذى يستدعى تركز الذهن، ويطلب له القارىء ركنا فى البيت هادئاً . ومع التركز اللذة، كمن يستحلب الشهد من ضرع عصى، ولكنه يجود على المجهود .

***

كان «ولز» قصاصا ماهرا ، يدبج القصة بحيث يجعلك لا تبدأ بها فتدعها حتى تنتهى منها . ولكن كان له فى القصص رأى فريد. كان ينظر إلى القصة كما ينظر إلى وعاء لابد أن يملأه شىء علم أو رأى أو دعوة كائنة ما كانت . فهو لم يكن يرى القصص غاية . ثم عاف القصص لما نضج ، حتى لكاد أن يحتقره والأسلوب كان يراه وسيلة لا غاية . ولم يكن يصبر على تنميقه وتزويقه .

وضاق مجاله فى تصوير الناس ، فلم يصور فى كتاباته من الناس إلا أشباها مما لقى : بائعا يائسا فى دكان ، أو مدرسا فقيرا يجاهد فى الحياة، أو فتاة ناء بظهرها حمل من العرف ثقيل. فلما خرج عن هذه فأراد أن يصف السياسى فى مضطربه ، والادارى فى متقلبه ، ورجل الأعمال فى عمله ، لم يصف إلا ظاهرا ، فلم يتدخل ولم يتوغل .

وجاءت الكهولة «ولز» ، وجاءته الشيخوخة ، وزادت جسمه جمودا ، وزادت شرايينه تصلبا. ولكنها لم تزد عقله إلا مرونة ، ولم تزد فكره إلا لدانة وطلب لدانة الفكر فى الجيل وأحب المرونة فى الشباب . كتب يقدم كتابا له فيقول :

«لا يمكن أن يتقدم العالم تقدما متصلا، إلا بعزم الشباب، وبأن يفتح الاشياخ للشباب الأبواب . فإلى الشباب أقدم هذا الكتاب إلى المراهقين أقدمه، وإلى الطلبة فى جامعاتهم ، وإلى التلاميذ في مدارسهم . لأنهم ، للدانتهم ومرونتهم ، أقرب الناس إلى فهم ما أسوقه ، من أن الدنيا لدنة دائما ، مرنة دائما، لا يعتريها الجمود أبداً .

ولأن الدنيا ، لا يمكن أن يقوم على تشكيلها وتحليقها ، فى مرونة ولدانة ، قوم جامدون .

كان هذا رأيه عام ١٩٠٢ .

وكان هذا رأيه عام ١٩٤٦ .

ورأى أن الشيخوخة ، حتى المتقدمة ، ليست بمانعة من مرونة عقل، ولدانة فكر ، حتى ولو ذهب الشحم، وجف اللحم ، ووهنت العظام .

رحمه الله على ما جاهد وقاسى ، وما كتب ، رحمة واسعة .

خــواطـر

المطلقة *

قلت لصاحبتي : لست قصاصا فاحكى لى حكاية مما يتصل بين الرجال والنساء من حب وكراهة .

قالت : أن حكاية ما بين الرجل والمرأة على الحب تدور .

قلت : فاحكى لى حكاية المرأة التى طلبت الحب ، فلما جاءها ، واستقر عندها ، أصابها القلق ، فأورثها القلق الشجن ، وأورثها الشجن الفراق . فلما فارقت ندمت أكبر الندامة .

قالت : لك ذلك . وأخذت تحكى .

***

كانت بالأمس القريب زوجة ، أما اليوم فقد انقطع ما بينها وبين زوجها من صلات .

ووقفت فى المنزل ترقب الحمالين يرفعون الأثاث من حجراته . وجاءها حمال يسأل ، وقد وقفت عند النافذة وأسندت ظهرها إلى الحائط تفكر :

– أهذا كل شئ يا سيدتى ؟

---

* هلال – يوليو ١٩٤٩

- نعم ، إلا هذه الكنبة الزرقاء ، وهذه المنضدة ، وهذين المصباحين ، وصندوق الكتب هذا . أما سائر الاثاث فيبقى . أنه ليس مما ينقل .

وعادت إلى التفكير ، حيث هى من الحائط : هذه الكنبة الزرقاء، لطالما نقلت من هذا المكان ، ثم عادت إليه ، تقترح هى نقلها ، فيوافق هو . فلما تنتقل ، ترى هى أنها غير مستقرة فى مكانها الجديد ، فتقترح أن تعود ، فيوافق هو . لكثر ما نقلاها ثم أعاداها . وحجرة النوم ، هذا الأثاث الذى فيها ، أو هذا الذى كان فيها ، كم نقلاه وكم بدلاه بطلوع كل ربيع !

وهنا تلحظ أمرا .

- أيها الحمال . لقد نسيت شيئا . منضدة الزينة بحجرة النوم لا ، لا . ليست هذه . ولكن تلك ، ذات المرآة العريضة ، فهذه تخرج أيضا .

وماهى إلا دقائق حتى خرج الحمالون . وسمعت أصواتهم على السلم ، يحذر بعضهم بعضا كلما مال بهم ما يحملون . وأخيرا سمعت باب الدار يغلق . لقد أغلقوه بعنف فكأنما أغلقوا بابا فى قلبها .

وابتعدت عن الحائط التى استندت إليها ، تتجهز للرحيل .

قالت : والآن لم يبق إلا أن أخرج أنا أيضا . لقد انتهى كل شئ . أنا جاهزة . ولابد أن أصل إلى الدار الجديدة قبل أن يصل هؤلاء الرجال . لابد أن ألقاهم فيها عندما ينزلون الاحمال .

ولكنها أحست بتعب فى ساقيها . أم هو فى غير ساقيها ؟ لم تدر ولكنها وجدت إلى جانبها ذلك الكرسي الأخضر الوثير فارتمت فيه ثم أخذت تفكر فيما حدث فى الأمس ، وفى أول من أمس .

***

ذكرت زوجها وهو يقول وذكرت نفسها وهى تجيب :

– أظن هذا خير ما كانت تنتهى إليه الأمور بيننا . أليس كذلك يا عزيزتى . اتفاق على فراق . لم نتعلل إليه بخصام ، ولم نختمه بخصام .

– نعم . هو ذاك يا عزيزى . هذا خير كثيرا مما يحدث بين كثير من الناس .

وما آمنت بالذى تقول ، ولكنها أرادت أن تبادله كذبا بكذب .

وساد السكون حينا ، ثم عاد الكلام . قال لها وهو جالس فى أقصى الحجرة .

- نعم . نحن الآن نستطيع أن نرتب أمورنا فيما بيننا ، بدون مرارة ، وبغير انفعال . فقد مضت الساعة التى يكون فيها للانفعال مجال .

ولم تستطع هى ردا ، لأن صوتها انحبس . ولكن لما كان لابد من رد ، فقد ردت بهزة من رأسها . ووافقت طبعا . وساد السكون بعض حين ، حتى قطعه يقول :

- إنا ما كنا نستطيع أن نمضى هكذا أبدا . لقد حاولنا أن نجبر الصدع ، والصدع يأبى أن ينجبر . وكان لابد من نهاية . فهذه هى النهاية .

وخارت عزيمتها برهة ، فقالت :

- أظن أننا نستطيع أن نطيل المحاولة أياما أخرى .

- هذا ما قلناه مرارا وتكرارا ، أربع سنوات يا عزيزتى ، ثم ننتهى إلى حيث كنا . أنك تعلمين ذلك .

وتحس بأن عزتها قد جرحت ، فتقول .

- لقد حاولت أن أحبك ، ولكن الحب لا يصطنع اصطناعا . أنا بالطبع أحبك ، ولكن ليس بالكفاية التى يجب على المرأة أن تحب زوجها .

ومضت تشرح هذا الحب الذى لم يكتمل . وبيد رقيقة أخذت تخز جانب زوجها وخزا . بسن السكين أولا ، ثم بنصلها ، تغور به فى لحمه قليلا قليلا . حتى إذا تم غوره ، أخذت تدور بالنصل ليزيد الجرح بذلك ألما . والصوت لم يرتفع . والوجه لم يحتر . وطلبت اليه أن يناولها الزبدة . ففعل . وطلب إليها أن تناوله الخبز . ففعلت . وأخذا على المائدة يمضغان ، ويطيلان مضغا . وقاما عن المائدة وقد نسيت هى طبق الحلو اللذيذ الذى قضت جانب غير قصير من النهار تصنعه له لأنه كان لونه المحبب المختار .

وما قامت عن المائدة وضيقها ، حتى أحست أن الدنيا تنفسح أمامها وسعها .

وجلسا فى الصالون :

أنه فتح الراديو كعادته كل ليلة بعد العشاء . وخالت أن فى الموقف تناقضا . لقد تحدثا عن الفراق ، وتحدثا عن الطلاق ، ومع هذا فهما يجلسان فى هذه الحجرة سويا ، على المقاعد وبين الاثاث الذى اختاراه سويا . والقط على عادته قد جلس على الأرض بين أقدامها يلعق ذيله . وسكتت ، وسكت . فظنت سكوته ، كسكوتها ، تفكيرا فيما فكرت هى فيه . أنه لا بد يدرك أنهما

يحسنان الحديث معا ، ويستطيبانه ، وأنه لابد يدرك أنهما يأنسان، أحدهما بصاحبه ، وإلا فما هذا الاجتماع ، وقد صحت النية على غير اجتماع . وأنه لابد يدرك أن بينهما احتراما لم ينقص منه هذا الخلاف القائم وخطر لها أن تبدأ الحديث فقالت :

– ما هذا الحديث السخيف الذى جرى بيننا على المائدة ؟

– سخيف ؟!

– لا . لا . لم يكن سخيفا .

وملأها الرعب فصرخت فيه :

– إنى لا أريد أن أفارقك . إنى لا أدرى كيف أعيش بدونك .

ومضت تستكمل حديثها ، على الصمت ، تخاطبه فى ضميرها ، وهو لا يسمع : وأنت أيها المسكين ، كيف تعيش بدونى ؟ إنت الذى قضيت هذه السنوات الأربع تحبنى ، وتحتال لسرورى ، وتخطط وتدبر لهناءتى . أنت الذى عودتنى ألا يكون اعتمادى على أحد سواك .

ثم إذا بهذه الفكرة الخفية الخرساء تخرج على لسانها سؤالا واضحا ناطقا :

– وأنت ، كيف يكون حالك من بعدى ؟

– ثقى يا عزيزتى أن حالنا ، من بعد افتراق ، سيكون خير حال .

– ربما . لن يطول الزمن بنا حتى نعرف . فى الخريف نفترق .

– بل الآن . غدا . لقد اتفقنا .

– لم نتفق على شئ .

وبان عليها الفزع مرة أخرى ، أنها لم تعرفه بعد على طول العشرة . ومضى يقول :

– لا بقاء بعد الذى قلناه الليلة . وكل ما قلناه صحيح . وغير الصحيح أن نخدع بغيره أنفسنا بعد اليوم .

وألقى الصحيفة التى كان يقرأ فيها . ووقع نظره على القط . فقال لها :

– أتأخذين القط معك ؟

فلم تجب . وجرى دمعها على خدها . وكان بكاء صامتا .

فقام هو عن مكانه ، وأخذ يذرع الحجرة رواحا وجيئة ، وهو يحاول أن يعطيها دائما ظهره ، ونظرت إلى ظهره تتأمله . نعم ، أنه الظهر الذى ألفت أن تراه مرارا . ونظرت إلى مشيته . نعم ، أنها المشية عينها ، وأنهما الذراعان تتأرجحان على هذه المشية ،

فى طول وسراحة ، وقد ألفت أن تراهما تكرارا . وأصابعه الطويلة الرقيقة ، وصفحة وجهه الدقيقة ، وشعره الأسود المتموج ، ووقع حذائه على الأرض ، ذلك الوقع الذى تعلمت أن تتبينه من بين وقع الأحذية جميعها .

واستمر يقول لها :

– والكتب . خذى منها ما تشائين . وسوف أحزمها لك غدا .

ونظرت إليه ، فى جموده ، وفى بروده ، فاستمر يقول :

– والسرير . خذى السرير ومنضدة الزينة .

ولم تستطع جوابا . ولكنها قالت له ، من حيث لا يسمعها ، أو يسمع أحد : لا . بل خذ أنت السرير . فأنا أنام فلا أتحرك ، فسوف تكفينى الكنبة . أما أنت فتتقلب كثيرا .

ومضى يقول :

– وخذى الراديو أيضا .

وعندئذ تماسكت فقالت :

– لا ، بل احتفظ بالراديو فأنت أحوج للموسيقى منى .

– لا . أنى سآخذ الفونوغراف القديم .

فانخرطت فى البكاء وهى تصيح فيه :

– بل خذهما جميعا .

وهنا لم يستطع إلا أن يعود كما عرفته . عاد يطوقها بذراع ويقول : « لا تبكى هكذا » . ولكنه ما لبث أن قال :

– بالله صدقينى إذا قلت لك أننا سوف نتعود هذا الجديد الطارئ . بعد شهرين ، أو بضعة من أشهر ، أو عام . لقد فشل زواجنا ، أنك قد وجدت فيه شقاء ، وهذا قد أشقانى ، أن أشقى ما يشقى به الزوج أن يحس بأنه فشل فى اسعاد زوجته .

فضمت إليه جسمها ، وقالت عندما استطاعت أن تقول :

– ولكنه كان لنا من هذا الزواج صحبة طيبة .

وتعلقت الفتاة المسكينة بما تتعلق به كل امرأة عندما تصحو من بعد فوات ، برعاية الزوج ، وحمايته ، وصحبته ، وحبه ، ورحمته . ولكن جاء صوته القاسى يحسم الأمور :

– لقد حسمنا فى هذا الأمر الليلة ، وغدا يأتى الحمالون

ينقلون غدا؟!

– أذن فبعد غد .

– وأين أذهب أنا ؟

– سأبحث لك عن دار إذا أردت ذلك ، أو تبحثين أنت إن شئت . أنه لابد لى من البقاء هنا . أما أنت فتستطيعين الآن أن تعيشى فى المدينة.

وما أتم قولته حتى ظهر فى وجهه أعياء شديد ، فأرخى ذراعه من حولها ، وذهب فارتمى فى الكرسى البعيد .

أما هى فرفعت مجلة كبيرة الحجم إلى وجهها . وجعلت تقرأ . وما كانت تقرأ ، ولكنها الذكريات أخذت تمر بها تباعا سراعا ، تسارعها دموعها الهاطلة . وأحست كأن حشاشة نفسها تتساقط فى هذه الدموع . نعم ، نعم ، إنها هى التى أخطأت . لقد كان خطؤها هى أن رضيت به زوجا .. ولكنى كنت صغيرة عند ذاك . لم أكن طفلة ، ولكنى كنت أصغر منى اليوم بمئات السنين ، وأحبنى ، وتدله فى حبى ، وكان عطوفا كريما . وكانت الوحدة تقتلنى فرضيت . ولم أدر لم لم أسعد معه . بل لم أكن أدرى أنى غير سعيدة معه . وقال الناس : ما أوفق . وقال الناس : أننا اختلفنا خلافا يكمل بعضه بعضا . ونسمع فندعى الإيمان . وبعد سنتين قال لى : أنك غير سعيدة معى يا عزيزتى . وجبنت فأنكرت . فضاعت فرصة الفراق فى حينه ، ومضى الزمان يزيدنا تقريبا ، ويزيدنا رباطا ، ويزيدنا شركة ، وينسج من حولنا نسجه كما تنسج العناكب ، ولكن بخيوط من فولاذ . ومضى عام ثالث فجاء يقول لى من جديد أنك غير هانئة . فكذبت وقلت بلى . وأعطيت الزمان فرصة أخرى يزيد بها نسجة أحكاما . واليوم ..

وقطع حديثها إلى نفسها قيام فتاها من مقعده . لقد تذكر أن الخادم لا تأتى الليلة فقام إلى المطبخ يغسل الصحون . وقامت وراءه تجفف ما يغسل . قال لها :

– أن بيننا وجوها للخلاف كبيرة .

– وبيننا وجوه للوفاق كثيرة .

– وفاق فى صغائر الأشياء ، أما كبارها .. ومع هذا فقد أحسسنا بالسعادة معا بعض حين .

– نعم . نعم . فعلنا .

– أن كثيرا من الازواج لم يوفقوا فى الزواج بعض توفيقنا . أنا لا أذكر أننا تخاصمنا يوما .

– لم نتخاصم قط .

وسادت دقيقة من الصمت ، عاد بعدها يقول :

– الأولى أن تأخذى أكثر هذه الصحون ، فلن تكون بى حاجة إلى الكثير . أنه الافطار ، ثم لا يكون بعده فى البيت طبخ . سيكون طعامى دائما فى خارج الدار .

فلم تكد تسمع هذا حتى ملكها الذعر ، وجرت هربا إلى حجرة النوم ، وقد عمها الظلام . فجرى وراءها ، وتباشر أهل الأرض ،

وتباشرت السماء ، بأن سيكون ، فى ظلمة هذه الحجرة ، لهذا الفراق لقاء . فقد يضل النور ، ويهدى الظلام . وليس للعواطف الثائرة العارية كسواد الليل غطاء . وفى ثورة من حبه أراد تقبيلها ، فأشاحت بوجهها . فقام عنها ، وخرج من الحجرة مبصرا ، ولكنه لا يرى .

كانت هذه هى الحاسمة .

***

ومضت هذه الليلة ، وجاءت الليلة التى تليها . الليلة الأخيرة التى ظللهما فيها سقف واحد . ماذا صنعت فيها ، وماذا صنع ؟ لم تذكر شيئا ذا بال . أنه خياله وخيالها يتلاقيان ذهابا وجيئة . هو يحزم كتبا ، وهى تحزم ملابس . ويتبادلان الحديث كأن لم يحدث شئ . حتى النكات تقارضاها . وساءلت نفسها ما سوف تصنع ؟ وأجابت بأنها سوف تجد عملا . وقال لها : «أكتبى لى كلما وجدت حاجة» .

قالت : « بل أكتب كل يوم» .

قال : « لا . أكتبى لى الحين بعد الحين» .

***

هكذا فكرت فتاتنا البائسة ، فى تلك الساعة الأخيرة التى قضتها وحدها فى البيت ، والبيت قد فرغ من أكثر أثاثه ، واستيقظت مما هى فيه والدمع قد غسل وجهها وفاض إلى ثيابها، وتذكرت الحمالين ، وقدرت أنهم لاشك بلغوا دارها الجديدة ، فنهضت عن ذلك الكرسى الأخضر الوثير الذى جلست فيه لآخر مرة . وهمت بالخروج فتعثرت بالقط . وأخذ القط يموء كأنما خشى شيئا ، ومسحت فروه بيدها آخر مسحة وجرت إلى السلم تفر مما هى فيه . وأصابها على السلم شئ من غثاء من شدة الألم ذكرت زوجها .. من ذا الذى يخيط له من بعدى ثوبا تمزق أو يرتق له جوربا تخرق ؟ من ذا الذى يلتقط له زرا عن قميصه سقط؟ من ذا الذى يعد له طعامه ؟ من ذا الذى يمسح فوق جبينه إذا جاءه السهاد وعزه النوم ؟

وصاحت صيحة أخيرة : يا الله ! كل الأحزان إلا حزنى هذا ، وكل الوجائع إلا وجيعتى هذه . ويزيد فى وجيعتى أنها من صنع يدى ، فأنر لى الطريق يارب الأنوار جميعا ، أرفع فتيلا فى سراجى ليخرج منه النور ساطعا ، فقد عمشت عينى واختلطت عليها المسالك .

الخاطبة *

قرع باب البيت، ونظرت الخادمة من النافذة العالية لترى من القارع، ثم هرولت، وقد اهتاجت بعض اهتياج، إلى ست الدار تخبرها من القادم. وحدثت حركة هنا وهناك، غرضها تعديل ما لم يكن معتدلا من الأثاث ، واخفاء ما فى ظهوره مأخذ على الرونق، والأناقة، وعندئذ فقط أذن للخادمة أن تفتح الباب، وأن تعتذر عن التأخر عن فتحه بما تعودت أن يحضرها من أعذار واخذت المرأة الطارقة طريقها الى الدور الأول على صوت الترحيب الذى هبط عليها من فوق. واستقرت المرأتان فى حجرة الجلوس تتبادلان التحية . وتنظر الى المرأتين فتجد النسبة واضحة بينهما من حيث النعمة والثراء، ومع هذا لاتعدم أن تجد فى المرأة الطارقة لباسا مهندما، وجسما ملفوفا ناعما، تلفه ملاءة عظيمة سوداء . وتنصت الى المرأتين تتحدثان، فتحس كأن الفروق قد انعدمت بينهما لأن الثقافة متقاربة، ولقد جاءت هذه المرأة الطارقة لأمر تتحدث فيه، أو على الأصح لأمر تعيد الحديث فيه، ولكنها تنتظر حتى تجىء

* هلال - ديسمبر ١٩٤٩

القهوة، ثم تشرب، فبهذا قضت اللياقة وأوجب العرف والأدب، وجاءت القهوة، وفرغ فنجاناها وابتسمت المرأة ذات الملاءة ابتسامة عريضة وهى تسأل عن الست الصغيرة، أين هى اليوم وما تكاد الآذان التى تتسمع عند الباب، ومن خلل الشقوق والرتوق، تصغى للسؤال عن «الست الصغيرة» حتى تتسابق الى حيث اختفت الست الصغيرة حياء وخجلا، تنهى إليها بأن الحديث فى أمرها قد بدأ، وتظل هذه الأرجل المتسابقة فى رواح وجيئة تنقل المشهد ومايقال فيه حرفا حرفا كما يفعل المذيع فى مباراة كرة أو مراقبة موكب.

ولاشك أن القارىء قد أدرك أن هذه المرأة الطارقة هى الخاطبة. ولاشك أنه أدرك أن هذه الزيارة لم تكن أول زيارة لهذه الخاطبة. ولاشك أنه أدرك أن خدم البيت، وصبيته وصباياه قد فهموا من عودة الخاطبة أن حبل المفاوضة متصل غير منقطع، ومن أجل هذا كانت ثائرتهم وكان زئاطهم .

وتعود الخاطبة فتسأل عن الست الصغيرة وتلح فى أن تراها، لأن الشوق براها، فتفهم الأم أن الخاطبة تريد أن تعيد نظرة. وتتأبى «الست الصغيرة» أن تعود . ولكنها بالحيلة وبالصبر

وبالاغراء تقوم فتتزيى وتتزين ثم تدخل على استحياء . وتلقاها الخاطبة الماهرة بفيض من المديح فى قوامها وهندامها . والوجه الذى كأنه القمر، والشعر وجدائله التى قدت من سواد الليل والليل سحر، وبما شاء الله، وسبحانه الله فيذهب عن القلب الصغير بعض خوفه، وتلين العريكة الشابة من بعد تصلب وعناد. ولكن صوتا فى نفسها خافتا يعتب على الزوج المرجو : ألم يكن فيما تأدى اليه عنها من خبر كفاية؟

وعلى سبيل تغيير الحديث تسأل هذه السيدة الخاطبة عن البك الصغير، اسم الله عليه، وتحب أن تراه، أن لها ابنا عزيزا عليها وهى من أجله تحب وتعز كل الأبناء، وتفهم الأم ماتريد الخاطبة، فتبتسم وتقول فى غير احتياط كبير : لا .. إنه لايزال صغيرا والوقت أمامه متسع كثير .. فتقول الخاطبة فى صراحة من بعد مواربة «ياسيدتى أن الزواج الباكر عصمة وزين» .

وتنتهى هذه الزورة، وتنتهى معها الصفقة، أو هى تعود وتتكرر، لتعود «الست الصغيرة» لتعانى فى مستقبل الزورات أشد مما عانت فى ماضيها، أو هى يلين قيادها بالمران والعادة ويسهل طبعها الشموس فتصبح الطاعة عندها طبعا . وتصبح هى شيئا

لامساك له، كالوحل، يتطرى ويتشكل بعد أن كانت شيئا ذا مساك، كالفولاذ قد يميل، ولكنه لايتطرى فيتشكل ويتعجن وكان فى ذلك للفتاة تدريب على الزوجية المقبلة التى كانت كلها تطريا وتشكلا وتعجنا . والقالب الذى تتشكل فيه وتتعجن هو قالب الرجل، وهو لايميل ولايلين، لأنه من صاج حديد، وأن طلى بالقصدير، أو طلى بالفضة أو ماء الذهب.

* * *

فهذه صورة للخاطبة عرفتها صغيرا وددت لو عرفت كم أبقى منها الزمان كبيرا .. وهى صورة أصورها لا لأسخر منها أو أغرى غيرى بالسخرية بها، ولو أنى أردت ماجهدت كثيرا، فالناس دائما متهيئون للضحك والزراية بكل قديم، ولكنى وصفت الخاطبة لأمهد للقول بأنها كانت بعض أدوات ذلك المجتمع التى لم يكن بد منها أنها كانت تجد من يدعوها عن طواعية ، ويرحب بها عن رغبة، وينقدها عن جهودها فى كرم وسخاء، مع كثير من الشكر والامتنان، كانت واسطة الزواج لمن لايعرف غيرها من واسطة، فى مجتمع كان الحجاب فيه سائدا وكانت الثقافة فيه قليلة والجهالة متفشية، ومع الجهالة اقرار للرجل الزوج بالسيادة الكاملة واقرار من المرأة الزوجة بالخضوع الكامل .

وتغير الزمان فكثرت الثقافة وارتفع الحجاب، وتغير نظر الرجل الى المرأة أن قليلا وأن كثيرا، وتغير نظر المرأة الى نفسها كثيرا. وجاء دور الشابات الجديدات الذى عنده يلقين الخاطبة، فسألن عن معنى الخاطبة، فلما عرفته، وعرفن أنها سمسارة تجوب المنازل تبحث عن سلعة، وعرفن أنهن هذه السلعة، ربأن بأنفسهن إن يكن سلعة وأن يكن بضاعة ورفضن الخطبة والخاطبة .

وحدث مالابد منه

حدث أن امرأة، كان لها واجب تؤديه فى هذا المجتمع، منعت من أداء هذا الواجب، وليس يعنينا أنها تعطلت، ولكن يعنينا أن واجبها تعطل، كالسوق التى خلت من سماسرتها تتوقف لاشك حالها. ولم نستبدل بوظيفة الخاطبة وسيلة أخرى تقوم مقامها، وتؤدى فى الوصل بين الشبان والشابات مثل أدائها، فحدث من هذا اختلاط واختباط فى سوق الزواج كان له ضحايا وكان فيه بوار، كان هذا فى المدن وفى أواسط الناس. أما فى الريف فله أسلوبه المألوف، وما إلى الريف نقصد بهذا الحديث .

لقد تحررت المرأة فى الشرق اقتداء بتحرر المرأة فى الغرب، ورفضت أن تكون سلعة كما رفضت تلك أن تكون، ثم جرت المرأة

الغربية فى سبيل تحررها إلى غاية الشوط، فلقيت الرجال فى الجامعة، ولقيتهم فى العمل، ولقيتهم فى النادى، ولقيتهم فى المطعم والمشرب ولقيتهم فى الكنيسة وفى فرص للقاء عديدة رتبتها لهم ولهن الكنيسة . ولقيت المرأة الرجل على خلوة .. وخرجت معه على انفراد ومنهن من عادت بأنوثة موفورة. ومنهن من غرها الغرور فدفعت عن ذلك غاليا، أنوثة غير موفورة، وأتهم الرجال النساء بنقص فى الأعراض جديد، فقام النساء يتهمن الرجال بنقص فى الأعراض جديد وقديم، ومنذ أن عرف الزمان، وقال النساء إن اليد الواحدة لاتصفق ولكن تصفق اليدان. وطلب بعضهن حرية الرجال فى طهارة وعندما لايتطهرون . ونشأ عند بعضهم وبعضهن معان للعفة جديدة لم تكتب بعد فى سجل الآداب ، ولكن كتبت فى دفتر الأحوال.

وأصبح الشرق يرى كل هذا ويعجب .

يرى القبلة تؤخذ على الملأ فينكر .. ويرى الفتى يخاصر الفتاة فى المرقص فيستعيذ . ويرى الشاب يجرى وراء الشابة فى ملعب فيقول لأمر ماجرى . وتتزين الشابة فتقصد إلى الكنيسة، فيقول ما أرادت الله ولكن أرادت الشيطان، وما القس إلا ذريعة.

ويخرج الشرق من كل هذا بأن الغرب فاسد بطبعه، مضيع للعفة بجبلته، وينسى أنها جبلة الإنسان كائنا ما كان وأنه هو الى ذلك لصائر، وينسى أنها المرأة خرجت على الحرية تصيد بدل أن يصاد لها، وأنه لابد للصيد من طعم، وأنها تلقى للرجل بطعمها موزونا مقدرا فيأبى الرجل إلا أن يبتلعه جزافا. وينسى الشرق، وينسى على الأخص ذكوره، أن الأنثى عندما تبتسم فى لطف، أو حتى عندما تغمز بعين، لاتطلب العاشق العابر، ولكن تطلب العاشق المقيم تطلب الزوج، وتطلب الولد، وتطلب من حيث لاتدرى أو تدرى عمار الكون باعطائه طفلا يولد مكان شيخ يموت، وينسى الشرق، وينسى ذكوره، إن المرأة لايمكن أن تفسد إلا إذا فسد فى قبالتها رجل .

ويصيح المنتصرون للعفة فى الشرق ، وقد يكونون ممن قضوا ليلهم فى خمر ونهارهم فى زمر، أن ردوا النساء الى حيث كن، ولايصيح أحد منهم بأن ردوا الرجال إلى حيث يجب أن يكونوا .

وتلك صيحة مقضى عليها بالصمم يصيب آذان الناس من رجال ونساء .

إن عجلة الزمان دارت فى الغرب الى غاية، وعجلات الأمم مربوطة بعجلة الزمان، كأنها التروس الصغيرة فى الآلة الكبيرة، وكما أننا لم نستطع وقف عجلة الزمان فى صناعة أو تجارة، ولا فى زى ولا فى تعليم، ولا فى مظهر أو مرفق من مرافق المدنية الغربية فى فيضها الجارف، فسوف لانستطيع أن ننجو بما سوف نحسب أنه خير المثل وغاية الغايات فيما يتعلق بفتى وفتاة، ورجل وامرأة.

* * *

إن الخاطبة ذهبت ولن تعود، وذهب عهدها ولن يعود . وأحدث ذهابها وذهاب عهدها فراغا . والطبيعة تأبى الفراغ، وسيملأ هذا الفراغ الغرب بما استحدث أن لم نملأه نحن بما نستحدث . وأجد الناس تنفق جهودا فى التسخط وفى الترذيل والتقبيح لاتنفع، وجهودا فى محاولة الرجوع الى الوراء لا غناء فيها، فما أحد براجع، والخير كل الخير أن نقر تحرر المرأة، وأن نقر سفورها، وأن نقره لاسفور نقاب فحسب، ولكن سفور عقل وسفور فكر وسفور لسان وسفور اختلاط وأن ننظم هذا الاختلاط فنخلق من ذلك أعرافا جديدة مكان العرف القديم . وأن ننظمه بحيث نهدى

الفـتـاة الطيـبـة الى الفـتى الطيب، ونـزيد الفـرص للقـاء طالب بمطلوب على براءة وحسن مقصد، فيبنى الزواج ، الذى هـو غاية كل حى، على اختيار متكافىء، ليس فيه مشتر ومشترى، ولا بائع ولا مـبيع. وسـوف تتطلب منا حـتى هذه الحرية المنظمـة قـربانا، فلنتـقـرب به عن رضى، ولنذكـر دائمـا عند التـقـرب به أن للنظم جميعا، ماتحرر منها وما تقيد، ضحايا وقرابين اقتضاها الزمان من كل الأمم وكل القرون.

في بيت المرض *

وقفت العربة عند باب الدار، وخرج صاحبنا منها على قدميه، لا تعينه عن يساره ذراع، ولا يتوكأ بيمينه على عصا. ولم يسمع توا لباب العربة من بعد خروجه منها صوت انغلاق ، لأنه كان لابد أن تنزل وراءه منها زوجته، وأن تخرج منها حقيبته . أما الزوجة فهي الفرد الأحد الذي أودعه سره بأنه الى هذا المستشفى قادم. أما الحقيبة فاحتوت من الزاد ما يحتاج اليه الحي عندما يمشي اختيارا الى حدود ما بين الحياة والموت ليحتكم عندها الى الاقدار. ولهذا لم تكن بالحقيبة الكبيرة.

وصعد الاثنان سلم الدار ، وهي من رخام. ولم يفطن أحد منهما الى جمال تنسيقه، والافتنان في تلوينه. ولم يفطن أحد منهما الى طراز الدار الجميل، بأقبائه وشرفاته. كان الزوج يندفع الى الامام بعزم الرجل الذي عرف أن القضاء حم وليس له بد من السير في الطريق الى الغاية. وأما الزوجة فحملت أقلق القلبين، وأكثرهما تشككا في نوع هذه الغاية. وكانت الشمس قد غابت

---

* هلال – نوفمبر ١٩٥٠

فأعانت على انامة الحواس، ما ظهر منها، وايقاظ الاحاسيس، ما اختفى منها واستتر.

وماهى الا دقيقة حتى كانت تقودهما الى أعلى الدار امرأة فى بياض، بياض يلفها الى قدمها، وبياض يعلو رأسها. إن الثياب البيض أقمن بدار تختلط فيها الآمال السود بالآمال البيض فتزيد حظها من بياض. ويدخلان جميعا الى حجرة، هى بيت هذا المريض الى حين، وهى كل ما سوف يرى بعينيه من الدار لاسبوعين، أو لعلها ثلاثة أو لعلها عشرة. من يدرى! أو لعلها ليوم واحد هو شر من ألف يوم.

ويأتى الطبيب مرحبا باسما.. ان ابتسامته من بعض أدواته، وهى السلاح الأول من أسلحة جراحاته. إن الجراح عليه أن يذهب بالحس من النفس، قبل أن يذهب بالحس من الجسم. وتسأل الزوجة: متى تكون الجراحة؟ فيقول رب الجراحة : غدا. ولكن الزوجة تريد جوابا أكثر تحديدا. إنها تريد أن تعود غدا، فمتى تعود؟. فيقول : فى العاشرة . وهو يعلم أنها التاسعة أو قبل ذلك. إن عنده ان الزوجة لابد أن تعفى من قلق المعركة وهى دائرة.

ثم يخرج الطبيب.. ثم تودع الزوجة.. ثم يبقى المريض وحده لأول مرة. لقد خلا الى نفسه فى هذه الحجرة ولكنه لا يجد ما يفكر فيه . وفض مافى حقيبته، ومما فيها الكتب، ولكن انى له القعود لقراءة . ودار فى الحجرة وفى حمامها يتعرف الى مافيهما. يتعرف اليهما قبل الرقدة التى لا يرى من بعدها شيئا. ويطرق الباب طارق. فهذا العشاء : فنجان من شراب. ثم يعود الصمت وتعود الوحدة. ثم يطرق الباب طارق.. انه الحلاق. ويرقد المريض ويأخذ يجرى الرجل بموساه فى رقعة من الجسم هائلة. ثم يأتى بالصبغة من بعد ذلك فليصبغ بها موضع ما حلق. إن لونها كلون الدم. وتحمر الرقعة ويراها المريض، فيذكر المجازر، فيجزع بعض الشىء. أنه أول جزع يصيبه.

ويخرج الحلاق، ويعود المريض الى الصمت والى الوحدة.. وأخيرا يغلبه النوم فينام.

وفى الصباح يطرق الباب طارق ثم طارق ثم طارق. وتتوالى الحوادث سراعا. والجراح.. أين الجراح؟ انه لا يراه. ثم تضرب فى جسمه هنا ابرة، وهنا ثانية، ثم ثالثة فى الذراع ما يحسها المريض حتى يعلم انه المخدر الأول والأصغر، ذاك الذى يعقبه ،

عندما يحمل هو الى حجرة الجراحة بأسفل الدار، المخدر الأكبر والأكمل.

الا ما أسرع ما يعمل الفكر فى الأزمات. إن هذه الخاطرة كلها خطرت للمريض فى كسر من ثانية، ثم غاب عن الوجود فلم يدر شيئا.

ثم يكون أول شيء يطرق سمعه: «انها انتهت». فإذا به يسأل: «ماذا انتهى»؟. فيقال له أنها الجراحة، وقد انتهت، وانها الظهيرة ويكون الصوت صوت زوجته. فتأخذه نوبة للبكاء شديدة، تعفيه منها أغفاءة تأتيه سريعة ثقيلة.

ثم يستيقظ، ويكون هو السائل هذه المرة: «هل انتهت»؟.

فيجيبه صوت الزوجة من جديد، وهو لا يكاد يدرى من أى صوب يجيء: نعم انتهى كل شيء ياعزيزى، وقد أمسى النهار. ويعلم لأول مرة أنه قد كتب له البقاء، ذلك لأنه لا يعى من حديث الظهيرة شيئا.

إن الجراحة التى قدر هو لها عشر دقائق قد استغرقت تسعين دقيقة. ولكنه لا يدرى ، وهو فى جهالته ناعم.

ويبدأ عراك الجسم، وحده، للحياة.

إن الجراح لا يحيي ، ولكنه يمهد لجسم سبيل الحياة، وعلى الجسم من بعد ذلك أن يسير في هذه السبيل، وقد يصل الى غايتها، وقد يسقط في الطريق.

ثم يأخذ المريض يساوره هم تلك الأيام والليالي التي سوف لا يعرف فيها الرقاد، الا رقادا على ظهر، ولا يعرف فيها النظر، الا النظر الى فوق ، الى سقف. ويؤلمه ظهره فيخففون عنه بحشايا القطن، وبنفائخ المطاط، وهي انما تنقل الألم من مكان كان فيه إلى مكان سوف فيه يكون. ثم تتدخل الطبيعة الخيرة على الأيام، فيعمل قانون العادة، فيألف الظهر رقاده، وتذهب عنه أكثر الآلام. والمريض لا يدرى عن تجلد كان ذلك أم تبلد .

ثم يأخذ يستيقظ الى ماهو فيه من عجز، فينزل اضطرارا عما كان عرف على الحركة من حرمة، وما كان احتفظ به والحياة جارية من كرامة، ويستسلم ويسلم أمر نفسه اسلاما. انها الضرورة. والضرورة تخضع الآبى، وتذل العاصى. ويحمد الله انه أعطى من حرمته ولبذل من كرامته لرجال. ويحمد لمصر، دون من عرف من سائر الأمم، حفظها في ذلك مروءة الرجل العاجز فلا تقبل هذه العثرة منه يد امرأة.

وهو يفرغ من أكثر الألم، ويألف العون فى هذا العجز ، ليشتغل برتابة الأيام والليالى.

انه لا يعدم الداخل من بابه والخارج، من أهل الدار ومن غير أهل الدار. إن الحركة فى المستشفى لها أوقات تكثر فيها ثم تخف. ثم هى تنقطع الساعات. وهى تنقطع الساعات الطويلة لولا ربة الابرة التى تزور بها المريض كل ثلاث ساعات، لا يمنع منها نور أو ظلام، ولا يقظة أو منام. انها البنسلين، ذلك المطهر الداخلى الذى لابد من دورانه فى الجسم كما يدور الخفر، يطلب من المكروب الغازى ما يصيد. إنه يحفظ الجسم، وهو يجاهد فى سبيل الشفاء، أن يشغله شاغل غريب عما هو فيه من جهاد.

والقراءة التى كانت مشغلته فى الصحة، يحاولها على الرقاد، فما أسرع ما يعافها. ويأخذ ينظر الى سقف الحجرة فيجعل منه، ومن أشكال فيه، موضوع دراسة. ومساحات فيه تركتها فرشة النقاش غير متجانسة، يخلق منها المريض الأشباح ويصنع الارواح ويحركها فتغدو فى عينه وتروح. وعند المصباح، فى أوسط السقف، يتجمع الفراش فى الليل ليحترق ويموت. فيشتغل بالتفرج على هذه المأساة التى تكرر ولا يفطن الى ما فيها من غباء من معشر الفراش قاطن.

وفراشة تعلقت بين المصباح والسقف، وثبتت، ولم تسكن. ويري فى هذا الوضع شيئا غريبا. ثم يحقق النظر من بعيد ويدققه، فيعلم أنها وقعت فريسة فى نسج عنكبوت. ويبحث عن العنكبوت فلا يراه. ثم يقع عليه البصر أخيرا، فيراه شيئا صغيرا جاثما على السقف لا يتحرك كأنما أخذته من النوم سنة. لقد ألقى بشباكه فصادت شيئا بالنسبة الى جرمه ضخم، فقبع يتربص به الموت. واصطبر طويلا، ولكنه اصطبر واثقا.

ويصبح الصباح، بل والاصباح، فيلقى المريض بنظراته من النافذة فلا يرى دائما أبدا الا منظرا واحدا، بيتا له زرقة السماء، ثم الشجر الكثيف يلمح من بين خضرته ماء النيل يجرى فى فيضانه متدفقا الى شمال، ثم طريقا يروح فيه المارة ويغدون. ويلمح فيه سيارة عامة فيود لو كان فيها. إن جلسة على مقاعدها، ولو من خشب، لا تساوى الساعة قرشين أو ثلاثة، ولكن مائة قرش.

وأخيرا يؤذن له، فتأخذ تنفك عن المريض أربطته، كما ينفك عن السجين قيده.

ويتداوى فى وحدته من رتابة الحاضر بذكر الماضى، لاسيما الماضى القريب، فيذكر الجراح، ويعود الى ذكره، وتتضح له عنه

فكرة خالها عجيبة. بعضها أن هذا الرجل، ذا المبضع، يحمل بين جنبيه قلبا جسورا لا يحمل مثله فى جسارته أحد. أنه يبقر بطن رجل آخر، ويحمل تبعة ذلك وحده. وهو يفتح بذلك بابا يدخل منه عـزريل وعزيرل وعـزريل، وهو مع هذا يغالب العزارلة جميـعـا ويسددونهم باب الموت الذى فتحه، ويسده بأحكام. وبعضها أن هذا الرجل، ذا المبضع، قد اطلع من المريض على شيء لم يطلع عليه هو، ولا أمه التى ولدته، ولا حتى صاحب كفنه عندما يأتى موعد الاكفان. انه جوفه، ذاك الذي صنعه الله، ولم يقدر لأحد، غيره سبحانه، فى الحياة أو على الموت، أن يراه.

وتمضى ليال من بعد ليال، ثم يقال للمريض أنه غدا يستطيع القيام، ويحاول هذه الليلة أن ينام فلا يدرى كيف ينام.

وما يكاد فى الصباح يرى بصائص النور الأولى حتى يتهيأ كما يتهيأ لعيد. ويستبطيء الذين اعتادوا أن يطرقوا بابه كل صباح، فيقول يعتمد على رجليه واقفا. وما تكادان تمسان الأرض ويثقل عليهما الجسم، حتى يحس بأن الأرض أخذت تدور من حوله فيرتمى على سريره فى حذر خشية الدوار. ويعود الى رقاده راضيا به الى حين.

إن ساكن الظلمة طويلا يعشيه أن ينظر فى قرص الشمس. والقيود، وهى من حديد، ترفع عن الأقدام ولكنها تظل الأيام تحس بأثقالها.

ويأخذ المريض يتعلم المشى من جديد كما يتعلم الطفل الوليد.

وبالحركة يسترد الحرية. وبالحركة يسترد حرمته ويسترد كرامته. وبالحركة يرى من الدنيا ما لم يكن يرى. وأحب ما يراه من مكان ذلك الحمام الذى ما كاد يتعرف اليه أول الأمر حتى امتنع عليه.

وتأخذ الحياة تتزين ويكسوها رونق وجمال.

والمستشفى، بيت التمريض هذا، يبدأ يأخذ من هم صاحبنا، ومن فكره، ومن قلبه. انه لم يعد سريرا واحدا وسقفا واحدا ونافذة أو نافذتين، ولكن قرية عظيمة تعج بالحياة، وتصطخب بها الحياة، فبكل حجرة مريض، ولكل مريض قصة . ومن حول كل مريض قلوب. وهذا العدد العديد القائم على التمريض، من رجال قليلين ونساء كثيرات، وقد كان تراءى له أول الأمر كتروس الساعة التى يدفع بعضها بعضا فى نظام واستمرار، يأخذ يتراءى له الآن إنه من دم ولحم، وإنها عزائم إنسانية على المشقة صابرة.

ويتحدث الى هؤلاء النساء ذات الأزياء الواحدة، فيعلم انهن مختلفات الأنواع، مختلفات الطباع، مختلفات الفكرة والنظرة والعاطفة، ولكن يجمعهن جميعا تجربة للحياة قلما أن تجتمع لأحد. إنها تجربة فى الامزجة الإنسانية كيف تعالج، وفى النزعات والنزوات فى ذكور وإناث كيف تصابر. ويخطر للمريض أن الطبيب يطلع من شجون بنى الناس على غير قليل، والمحامى والقاضى يطلع من شئون بنى الناس على الشىء الكثير، ولكن الممرضة تطلع على شئون الرجل المريض وشئون المرأة المريضة وهما فى حالة استسلام تتكشف فيها الامزجة صادقة، ويفتضح فيها الخبىء المستور من الانفس عاريا لا يحجبه حاجب. ويخطر له أن التى تنجح فى هذه التجربة جدير بها أن تنجح فى تجارب الحياة ومحنها، ومنها محنة الزواج. وأن الممرضة أجدر النساء بنجاح فى زواج.

وكما فى القرى ينتقل الكلام، وتنتقل الاحاديث، وتكون ثرثرة، فكذلك فى بيت التمريض هذا، تأتى مريضنا الأخبار، وهو راقد حينا، وهو واقف حينا، وهو يجر قدمه أحيانا أخرى.

ويعلم أن جاره مريض جاء من الهند أم من سيام، أو لعلها سرنديب جاء حاجا. ويأتيه الخبر بأنه رجل من حبه الطعام فهو يضيق بالمائدة التى يؤلف الطب ألوانها. وهو طلب الكباب وتوابعه،

ويطلب الفاكهة، ويخص المانجو، ويريد أن ينفق في كل هذا بغير حساب. ويخرج من المستشفى سليما. ولكنه يعود بعد يومين اثنين، الى نفس الحجرة. ويأتي الليل فيسمع مريضنا من تلك الحجرة غثاء كالعواء. ويعلم انه كما تطرد المعدة بضاعتها فكذلك تطرد الامعاء. ويذكر انها الهند أو ما حولها، فتدخله الخشية أن يكون صاحبنا قد حمل من بلاده ذلك الوباء الذى أعجز مصر أشهرا وقضى من الأنفس على خمسة وعشرين ألفا. ويصبح الصباح فيأتونه بالإفطار فلا يأخذ منه غير الشاى. انه الشيء الواحد الذى طهرته النار. ويمضي النهار وتأتي الأطباء، والجار في حجرته، فيطمئن صاحبنا المريض. وتأتي الليلة الثانية فيسمع من عواء الغثاء ما سمع في ليلته الأولى. ولكنه لا يبالى. أنه علم أن صاحبنا هذا، وهو من حبه الطعام، ما خرج من بيت التمريض هذا، حتى جمع حوله من طيبات الدنيا ما جمع، وأطلق لشهوته العنان، فكان من ذلك ما كان. وتأتي الليلة الثالثة فيخرج من تلك الحجرة، لا الغثاء ولا العواء ، ولكن صوت جميل يصدح بالغناء.

وتخلو الحجرة من ساكن قديم ليسكنها ساكن جديد. إن سكان هذه القرية للرحيل وأن أقاموا فأطالوا. إنها أبواب تطل فيها بوجهك فتري وجوها، وتطل ثم تطل فتراها حتى تألفها. ثم يأتي يوم تطل فيه فترى وجوها غير الوجوه، وترى مكان الألفة

وحشة .

وهكذا استوحش المريض لما قيل له أن الخروج غدا.

ويلبس بذلته التى خلعها منذ أسابيع، ويضع على رأسه طربوشه، وينظر فى المرآة فيرى هيئة كاد ينساها. وينظر اليه من عرفه من أهل البيت فينكره.

ويهبط السلم، وهو ينظر ما حوله، وهو مستيقظ هذه المرة لما يرى. ويعجبه بناؤه وتعجبه اقباؤه وتعجبه أبهاؤه.

ويدخل السيارة عند باب الدار، دار التمريض، بل دار الشفاء. ولا يسمع لبابها توا ردا. ذلك لأن من ورائه زوجته. وبقيت وراء لتتلقفه أن مال منه ميزان. أما الحقيبة الواحدة فصارت حقائب، فهذه لها مؤخرة السيارة.

ثم يسمع لبابها انغلاق . ثم تدور آلتها ، ثم تأخذ تجرى عجلتها ويبلغان الدار.

وعندما يخلوان الى نفسيهما، يعطى المريض لزوجته قبلة، يضمنها كل ما أحس قلبه من شكر لها، بما قلقت، وبما أرقت، وبما عانت، وبما جاهدت. وتتلقى هى هذا الشكر الصامت فتعرف فيه كل هذه المعانى، فتطيب نفسا، وتقر عينا.

ويحمدان الله.

ويحمده الكاتب.

أتمنى .. لنفسى وللناس *

أتمنى ، وقد ينفع التمنى .

أتمنى لكل فرد ، أن يدخل الحب قلبه ، ولكل أسرة ، أن يدخل الحب قلوبهم ، وللأمم أن تنتفى من بينهم الكراهة ، ولو لم يحل مكانها الحب فكفى بانتفاء الكراهة بين الأمم أملا أنى حيثما رميت بنظرى ، فى أمر نفسى ، أو فى أمور الناس ، وجدت الشر كثيرا، ووجدت الخير قليلا . وأنا كلما رميت بفكرى إلى الأصول التى ينشأ عنها الشر ، وينشأ عنها الخير ، وجدت فيها الحب قد غاضت ينابيعه ، والكره قد أترعت ينابيعه حتى فاضت ، وأتعس مصادر هذه الدنيا وأنكدها تلك التى إذا فاضت فاضت شرا ، وملأت الكون حزنا وملأته غما .

وأبدأ بأن أتمنى للناس لأننا فى أوائل العام الميلادى ، وكانت أكبر صفة لدعوة صاحب هذا العام الحب عليه صلاة الله وسلامه.

---

* هلال - فبراير ١٩٥٥

التغلب علي الخوف

وكما تمنيت لكل فرد أن يدخل قلبه الحب ، ولكل أسرة ، ولكل أمة ، أتمنى أن يخرج من قلب كل فرد وكل أسرة وكل أمة .. الخوف ليس أتعس فى الحياة ولا أنكد من رجل يقوده في طرقات الحياة قلب خائف، أو أسرة أو أمة تسير فى شعاب المقادير بقلوب وجلة مضطربة .

إن الرجل يخاف اليوم الذى يأتى وما أتى . ويهاب السنة القادمة ، وما قدمت . ومن الناس من يهاب الساعة التى هو ليس فيها .

قرأت لشاعر الأندلس ، وطبيبه ، موشحه الرائع الذى يبدأه بقوله :

أيها الساقى إليك المشتكى

قد دعوناك وإن لم تسمع

حتى إذا بلغت من ذلك قوله ·

غصن بأن مال من حيث استوى

خفق الاحشاء موهون القوى

بات من يهواه من فرط الجوى

كلما فكر فى البين بكى

ماله يبكى لما لم يقع

حتى إذا بلغت هذا توقفت عنده برهة ، وإذا بى أصيح : أنه الخوف يا أبا بكر ، خفت الفراق ممن تهوى فبكيت ، وأحب الناس الدنيا ، وخافوا منها الفراق فبكوا . وبت من فرط الجوى تبكى ، وباتوا . وأفضت الدمع مدرارا ، على ما لم يقع ، وأفاضوا .

محاربة الطمع

وإذ أنا أتحدث هكذا إلى أبى بكر الحفيد ابن زهر ، إذ جاء يطرق باب خاطرى قول أبى الطيب المتنبى :

زودينا من حسن وجهك مادا

أم فحسن الوجوه حال يحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنيا

فإن المقام فيها قليل

فقلت لنفسى هذا رجل أحكم ، وبطبائع الأشياء أعرف . أنه يطلب الحسن ، ويعرف أنه لغير دوام ، وأن المتعة به قليلة محدودة . وتبعا لذلك فإن الخوف لها ، وعلى الحرمان منها ، لابد قليل محدود . فهو لا يكاد يبكى لما وقع أو لم يقع ، إلا دمعة سانحة عابرة . وكذلك يفعل بالدنيا . إن وجه الدنيا ، حتى لو أقبلت عليك بوجه حسن ، فإنما هو وجه لابد حائل ، فإن لم يحل هو ، حلت

أنت ، وكانت النتيجة سواء ، فأنت بعض الدنيا . أنك ترى الدنيا والدنيا تراك ، وكلاكما الدنيا فى ثاقب العقول والافهام .

إن أبا الطيب لا شك حكيم فى حبه . ولكنه وا أسفاه لم يكن حكيما فى عيشه . وعزته الحكمة فى العيش فعزته السعادة فيه ، ومات غريبا شقيا . اشقاه الطمع . وهذا ينتقل بى ثالثة إلى التمنى .

وأنى لأتمنى لمن أحب من الناس ، وكذلك بعد الذى قلت لابد أن أقول ولمن أبغض ، أتمنى لهم جميعا قصر الاطماع إذ يمدونها، واختزال الآمال إذ يصورونها ، وأن يوفقوا بين الأمل والمقدرة على نيله ، وسماح الدنيا بأمثاله ، فإن هم رسموا هذا الثالوث خرج المثلث ، لا حاد الزوايا أشد الحد ، ولا منفرج الزوايا أشد انفراج ولا بين أضلاعه فروق هائلة تجعل مساحته بائرة ، بين أشكال هذا الوجود ناشزة حائرة.

***

دخلنا على المرحوم طيب الذكر حميد الأثر ، عبدالعزيز فهمى ، وهو بفراشه وقد شد عليه الموت ، وسد عليه منافذ الحياة أو كاد ، إلا رأسا بقى على يقظة تتمنى رؤوس الاصحاء أن يكون لها مثلها

قال : «ادعوا لى» قال أحدنا : « ندعو الله القدير أن يمن عليك بالعافية» فما كان من الشيخ إلا أن نظر إلى صاحبنا ، بقدر ما يستطيع من فى مثل حاله آن ينظر ، وقال « يا أخى ، لا تطلب من الله شيئا عسيرا ، وأطلب منه شيئا معقولا ميسورا» !

رحمه الله . لم تكن لتفوته الحكمة حتى وهو قاب قوسين من وفاة .

والحق ، مثل هذا الدعاء، لو هو آمن به ، أكان يسعده ، أم كان يشقيه ؟ وهل فى التشبث بأمل خائب إسعاد ؟! ولكن الناس فى حياتهم ، وبصرف النظر عن الموت ، هكذا يتشبثون بالأمل الطويل العريض .

لقيت رجلا فى مسجد جامع ، فى بلد غريب . ووقف تحت قبته العالية الرفيعة يتأملها مليا . قلت : « رفعة من بعض رفعة الله» قال : «أريد أن أبلغها» ونظرت إليه فوجدت رجلا طوله ذراعين أو تزيد قلت : «كيف ؟» قال . « أدعو الشيخ فيرفعنى» يريد صاحب الضريح . فنظرت إليه ونظرت إلى الضريح ، ولم أحر جوابا فمضيت .

ولكن فى الحياة ما أكثر الرجال الذين يقفون تحت القباب ، وما أكثر النساء . وكذلك ما أكثر الأضرحة .

ولم يكن الرجل هازلا فيما يقول . أنه الجهل . وهذا ينتقل بى إلى رابعة التمنى .

الحكمة والعلم

وأنى لأتمنى لمن أحب من الناس ولمن عساى أن لا أكره ، أما الجهالة المطلقة وأما الاستنارة .. وعني بالجهالة المطلقة وأما الاستنارة .. وأعني بالجهالة المطلقة تلك التي عندها المرء لا يحس بالشمس آن هى طلعت أو غربت . فهو الحجر الذى حدث عنه الشاعر فقال .

ما أسعد العيش لو أن الفتي حجر

تنبو الحوادث عنه وهو ملمون

هذا إن أمكن . وما أعزه مطلبا ، وهو عزيز لأن السعادة عنده تكون كاملة . ومرادفة أن تكون عند المرء استنارة وأن تكون حكمة . وليست الحكمة بمرادف العلم ، ولكنها شئ يضاف إلى العلم فيجعل منه شيئا نافعا . أما العلم وحده فما أكثر ما أشقى . وأكثر أشقاء من العلم نصفه . أن من أهل العلم من يشقى ولكن يشقى أكثر منهم أنصاف العلماء وأرباعهم وأعشارهم . وقد ذكرت في أول التمنى الحب والكره وأكثر الكره مصدره الجهل ، وأشقى به الرجل الجاهل ، أو العالم الذى انتصف آو ارتبع أو اعتشر .

إن مصائب الأمة ، كل أمة ، تأتى من علمائها الجهال . وبلية الأمم بهم أشد إذا هم تقدموا ، بزعمون أنهم الدعاة الهداة . وأن يكن فيما قلت شئ تذاق منه الكراهة فإنى استغفر الله .

إن التمنى شئ كثير

وأن التمنى شئ عسير

والتمنى غير الترجى ، فالمنى أمل بعيد ، والرجاء أمل قريب .

فدعونا نتمنى ، ففى التمنى الترويح والسلوى .

منى أن تكن حقا تكن أحسن المنى

وإلا فقد عشنا بها زمنا رغد .

رقم ٧ الرقم السعيد *
فى حياة الناس والكون

كانت صبيحة اليوم الأول من هذا العام .

وكانت هى إلى جانبى ، على الفراغ ، تقلب أوراق الكتشينة وترتب، وأمامها المنضدة الصغيرة قد انبسطت عليها الأوراق، أحمرها وأسودها ، وعلى أشكالها الأربعة المعهودة .

وفجأة جاءتنى بأربع ورقات منها، ووضعتها علىَّ حيث كنت أكتب، ووضعتها على وجوهها فلم يبن منها إلا ظهورها . قالت أحرز ما هذه؟ قلت ما يعلم الغيب إلا الله. قالت اكشف عنها ، فكشفت ، فإذا بها الواحد والسبعة والتسعة والخمسة . قالت احرز ما هذه؟ قلت ليس هذا علم الغيب فأدفع به، وأنما هو الغباء. ورتبت الأوراق كما وجب أن تكون ، فكانت ٧ ، ٥ ، ٩ ، ١ .

أنه رقم العام الجديد .

قالت انظره ، واستخبر لنا ربك، عن هذا العام ، كيف يكون .

قلت صلتى بالله محدودة ، وهى بالجن مقطوعة ، ولم أتعلم قراءة الرمل ولا رمى الحصى . وانتشاءم ، عندما يتعطل عندى

---

* هلال - فبراير ١٩٥٧

الفكر ، على عادة الناس. ولكني قائل لك شيئا انفع مما قالت قبلنا، في هذه الارقام، القرون .

***

ونظرت في الاربعة الأرقام، ووقفت عيني عند السبعة أكثر مما وقفت عند غيرها. ووقفت على عادة وقفت بها عندها أعين القدماء. أن السبعة عندهم اختلفت عن رقم سبقها، ورقم جاء من بعدها ، من الأرقام العشرة الأولي ، بين الواحد والعشرة. كل هذه الارقام لها بين هذه العشرة الأرقام الأولى ، أما رقم تقسمه هي، أى بلغة الحساب مضاعف لها ، أو رقم يقسمها ، أى بلغة الحساب عامل لها .

فالواحد مضاعفاته ٢ . ٣ . ٤ الخ

و ٢ مضاعفاته ٤ . ٦ . ٨.

و ٣ مضاعفها ٩

و ٤ تقسم ٨ ، وتقسمها ٢ . أى مضاعفها ٨ ، وعاملها ٢ .

و ٥ تقسم ١٠ ، ٦ تقسمها ٢ و ٣ ، ٨ تقسمها ٢ ، ٤ ، و ٩ تقسمها ٣ ، و ١٠ تقسمها ٢ ، ٥ .

أما ٧ ، فلا تقسم ، ولا تنقسم . وقد انفردت بين الاعداد العشرة الأولى بهذا .

***

ونظر الناس إلى السماء قديما، قبل الاسلام ، وقبل المسيحية ، فوجدوا أجرامها ، منها الثابت فى الكرة السماوية ، وهذا عدد الحصى ، ولكنها منها المتحرك . وعدوها فكانت الشمس، والقمر ، وعطارد ، والزهرة والمريخ والمشترى وزحل .

كانت سبعة . وأسموها بالكواكب، واسموا مداراتها بالسموات السبع .

وحيث أن صارت السماوات سبعا فقد صارت الارضين عندهم سبعا. ولست أتعرض لصحة هذا أو خطأه، ولكنى أقول ما قالوا .

وجعلوا لكل كوكب إلها نظيرا ، عبدوه ، فكانت الآلهة عندهم سبعة .

وجعلوا لكل آله يوما يعبدونه فيه . وسموا هذه الأيام بأسماء الآلهة، التى هى أسماء الكواكب . وبقيت اسماء الأيام هكذا إلى أيامنا هذه ، لا فى العربية ، ولكن فى اللغات الأوروبية . فيوم الأحد يوم الشمس Sunday ، ويوم الاثنين يوم القمر Mon-day ، ويوم الثلاثاء يوم المريخ Mardi ، ويوم الاربعاء يوم عطارد ، Mercredi وهلم جرا .

وبهذا خلق الاسبوع ، فأيامه سبعة .

والله خلق الكون فى سبعة أيام .

وقال الموسويون ، أن الله خلق الكون فى ستة أيام، واستراح فى اليوم السابع. وجعلوا اليوم السابع يوم راحة . والسبت عندهم لفظ معناه الراحة . ومنه يوم السبت، فهو يوم راحة اليهود وبعض النصارى . وأكثر النصارى على أن الأحد يوم الراحة . والجمعة عند المسلمين يوم الصلاة الجامعة، ثم ينتشرون فى الأرض ويبتغون من رزق الله .

***

وتنظر إلى السماء ، إلى الدب الأكبر، فتجده ٧ نجوم .

وتنظر إلى السماء ، إلى الدب الأصغر، وفيه النجمة القطبية، فتجده ٧ نجوم .

ونظروا إلى الثريا ، وعدوا بها ٧ نجوم .

والاغريق عدوا الفضائل فكانت أربعة . عدها أفلاطون فى جمهوريته فكانت : الحكمة، والشجاعة ، والاعتدال، والعدل، ووصفها أفلاطون على أنها عمد الانفس طبعا . واختلف معه أرسطو ، فوصفها على أنها مما تكسبه العادة و تكسبه البيئة .

وجاءت المسيحية ، فأقرها الآباء الأولون ، وزادوها ثلاثا ، هى الإيمان ، والأمل ، والحب ، وهى بالله وفى الله طبعا ، فصارت الفضائل بذلك سبعا .

وكان لابد أن يقابلها من الرذائل سبع أخرى فكانت : الكبر ، والطمع ، والاشتهاء ، والحسد ، والشرة ، والغضب ، والكسل .

***

وأهل الكهف كانوا سبعة .

هذه هي عدتهم فى أكثر المصادر المسيحية . ومنها من قال ثمانية.

وفى القرآن الكريم : «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ، رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم . قل ربى أعلم بعدتهم» .

وفى طفولتى ، فى السويس ، مسقط رأسى ، كنت أسمع «السبع بنات» ، فأعلم أنه مستشفى بظاهر المدينة يقوم على العناية به فتيات من الراهبات سبع .

وفى القاهرة سمعت كذلك بالبنات السبع ، وعلمت أنه بيت التمريض الذى عهدته على الطفولة ، وعلى ما عهدت كذلك يقوم

بالتمريض به راهبات . ولا أحسب أنهن سبع ، فقد يكن دون هذا، أو فوق هذا . ولعلهن كن سبعا في قديم هذا . ولعلهن كن سبعا فى قديم الزمن لما فى السبعة من علاقة بالايمان وثيقة ، في النصرانية ومن قبلها ، ثم اختلف الرسم من بعد ذلك وبقى الاسم .

وفى القرآن ، يرى الملك رؤياه ، ويرى بقرا ، فتكون عدته سبعا . «وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون» .

وجهنم لها سبعة أبواب . «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم» .

والطواف بالكعبة سبع مرات .

والسعى بين الصفا والمروة سبع مرات . «إن الصفا والمروة من شعائر الله . فمن حج البيت أو أعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا ، فإن الله شاكر عليهم» .

وغير ذلك .

فالسبعة لها موضع فى الأديان ، من قديم الزمان . ولها حتى فى الهندوكية موضع كذلك .

***

وإذا نحن انتقلنا من الجليل الكبير ، إلى الصغير القليل ، وجدنا الناس تذكر للدنيا عجائب فإذا هى سبع . وأطلق هذا الأسم ، عجائب الدنيا السبع ، قديما ، فى العهد الاسكندرى القديم ، على أشياء من صنع الفن سبعة منها أهرام الجيزة ، وفنار الاسكندرية ، وحائط بابل ، وحدائقها حدائق سميراميس ، ثم تمثال لأله الآلهة زيوس فى اولمبيا ، ومعبد ارتيميس ، وضريح هاليكرناس .

وهى اسماء أكثرها مغرق فى الغرابة لمن يدرس تفصيل تاريخ ذلك الزمان . وتعاقبت القرون فعد أهلها من عجائب ما عرفوا فى دنياهم سبعا زعموا أنها عجائب الدنيا .

ويحدثونك هذه الأيام عن عجائب الدنيا ، فيذكرون لك برج أيفل ، فى باريس ، بأنه أعلى شيء فى الدنيا بناء . وقد بزته اليوم ناطحات السماء . وهو بنى عام ١٨٨٩ . بمناسبة معرض باريس لذلك العام . بناه اسكندر جستاف أيفل ، مهندس فرنس .

وقد حكم عليه بالسجن سنتين وغرامة ٢٠,٠٠٠ فرنك ذهبا لاختلاسات له كانت في شركة قناة بنما . ولم ينفذ الحكم لأسباب فنية .

***

وفي مصر يغني أطفال الحارات هكذا ، يقول صبي ، ويرد عليه صبية كثيرون :

الثعلب ؟

فات ، فات

وذيلة ؟

سبع لفات .

ويتحدث المصريون عن رجل يعرف اللغات الكثيرة فيقولون أنه «يتكلم بالسبع تلسن» . ويقعد العاشق الريفي منهم ، في ضحوة نهار ، عند ساقية قريبة وأخريات من حولها غير قريبة ، وقد أسند ظهره إلى نخلة ، وأخذ يغني ، فإذا به يصدح بالأغنية الشهيرة التي أولها : «سبع سواقي بتنعي ما طفوا إلى نار» .

فهذا ما عن لي ، عن رقم ٧ ، في رقم العام الجديد ، رقم ١٩٥٧ .

فكل عام وأنتم بخير وعافية .

أصحابى الذين خابوا *

الدنيا حظوظ.. هذه عقيدتى من زمن بعيد، وهى عقيدتى اليوم. من أجل هذا لا أحمد كل الحمد من ينجح فى الحياة ، ولا أذم كل الذم من يخيب فى الحياة. لأن الذى ينجح فى الحياة يفعل ذلك بناء على ما عنده من مواهب، و«المواهب» من الهبة، فهى أشياء تعطى ولا تكتسب. والموهبة شىء قد يربو على العمر ويزكو، ولكنه لا يربو ولا يزكو من عدم. فهو يولد مع الوليد، حتى لقال العلماء أن الرجل يتم تكوينه فى عامه الأول، وقصدوا بذلك أنك لا تستطيع أن تغير الطفل، ولا أن تغير أصول طباعه ومواهبه، بعد عامه الأول. وسواء آمنت بهذا القول أو لم تؤمن، فهو يؤكد ما نريد ايضاحه من أن مواهب الرجل منا ، ومواهب المرأة، تولد أصولها مع ميلادها أو ميلاده.

ثم تأتى البيئة من بعد ذلك فتؤثر فى هذه الطباع، فى هذه المواهب، أما سلبا ، وأما ايجابا . والبيئة نفسها ليست من صنع الإنسان. إن الإنسان وأشباهه من سائر الحيوان تتميز جميعها

---

* هلال - مارس ١٩٤٧

عن النبات بأن لها أرجلا ، رجلين أو أربعا، أى تتميز بالحركة ولكن الإنسان، فيما يختص ببيئته له حركة كالسكون. إن الفرد منا يرتبط بالبيئة ارتباط النبات بأرضه ، وهو لا يستطيع أن يقتلع نفسه من بيئته، ولا أن يتحرك بعيدا، لأن فى ذلك تمزق جذوره، وجفاف ماء الحياة فيه، وتقطع أسبابها. وهو الى سن كبيرة لا يخطر له فى بال أن يتزحزح عن البيئة إن لم تكن صالحة، ولا يخطر له فى بال أن يتهم البيئة، لأنه هو بعضها، وبعض الشيء لا يثور على سائره، ولأنه هو عبدها، والعبد قل أن يثور على سيده.

ثم الفرص.. إنه فى البيئة الواحدة تغدو فرص الحياة وتروح، والفرص ليست من خلق الإنسان، ولا هى بالشيء الموقوت الذى لا يعرف له ميعاد فينتظر، أو يعرف له اتجاه فيجلس الناس فى طريقه. إن الفرص سوانح، وهى كسوانح الطير وبوارحه، قد تترصد لها الساعة من بعد الساعة ثم لا تجيء، وإذا هى جاءت، لزمك احسان الرمى لنصيبها، وليس كل الناس له بمحسن. إن الرمى لا يحسنه فى الناس الا القليل، لهذا لا ينجح فى الناس النجاح الصريح الذى لاشك فيه غير القليل.

فدون النجاح فى الحياة عوائق، هى ضروب ثلاثة: عوائق من طباع، وعوائق من بيئة، وعوائق من فرص تأتى ثم تفلت. وقد تجتمع فتجعل النجاح أعسر من دخول الجنة، ولكن كثيرا ما يسعف الطبع وتسعف البيئة وتأتى الفرص فتقف عند بابك، فتصبح الموانع من النجاح دوافع اليه. وندر أن تجتمع كل هذه دفعة واحدة لرجل، الا رجلا اصطفته الآلهة – كما زعم الاغريق – للإعزاز والتدليل .

ان النجاح أكثر ما يكتسب غلابا وصراعا. وكل رجل منا كالنوتى فوق سفينته، فقد يسكن له الماء وتهب الريح على هواه، ولكن الماء أكثر ما يكون مضطربا تنشره وتطويه الأمواج، والريح أكثر ما تكون عاصفة هوجاء ، فيعمد النوتى عندها الى ما سموه فى لغة البحار الصفح والاصلاح ، فيقتبس من الريح وهى تعارضه نصيبا يدفعه، يدفعه الى حيث ما يريد هو لا الى ما تريد الريح. ويصل الى غايته أخيرا، وبعد مشقة، وبعد زمن يقصر أو يطول. وقد يطول الزمن فوق ما يطول العمر، فيفنى الرجل المجاهد كما تفنى الموجة فوق سطح الماء، وفى نفسه لبانة لم تقض، وفى قلبه من أجلها حسرة. وقد تنقلب به السفينة على الرغم من الجهود

الشاقة، وعلى الرغم من المهارة والنية الصادقة، لأن الموج كان أعتى وأغلب .

والناس لا تفهم من الأشياء الا غاياتها ولا ترى من هذه المعارك الدائمة الدامية الا خواتيمها . وهم فى سباق الحياة، كما هم فى سباق القوارب ، يتكوكبون عند الهدف الأخير، يصفقون للرجل الذى وصل أول واصل بأول قارب. أما سائر القوارب فتنسى، أو هى لا تنسى لأنها لم تذكر قط، ولن تذكر أبدا .

والناس ، من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل .

وأنظر الى أخوانى وأصحابى ، والزملاء والمعارف الذين نجحوا فى الحياة، والذين خابوا ، فأجد أثر المولد أحيانا ، وأحيانا أثر البيئة، وأحيانا أثر الفرص، وأجد هذه الآثار تعمل عملها ، منفردة أو مجتمعة، كسبا أو خسارة .

ففلان كانت تبشر أكثر البشائر بأنه خلق لينجح. ذكاء مفرط، ومولد فوق فراش من حرير، ومال للتربية وفير. ولكنه لم ينجح، أو لعلى أكون أقرب الى الصواب إذا قلت أنه لم ينجح النجاح المنتظر.. والسبب فى ذلك البيئة. فالبيئة كانت بيئة راحة، كانت

بيئة الطعام المختار، واللباس الأنيق، والسيارة الفخمة، فلم يكن له على العمل من دوافع الا الرغبة فى أن يكون بالتعليم وجيها من الوجهاء . وهو دافع أضف من قوته أن صاحبى ولد وهو نصف وجيه. وبعد ختام التعليم الثانوى تهيأت له الفرصة أن يختار مدرسته العالية، فاختار أبعد المهن عن الرفاهية وأقلها شبها بكسل النعمة: اختار الهندسة، وبعد لأى وصل الى غاية المطاف منها. ولكن ماذا صنع فى الحياة من بعد ذلك؟ لا شيء. خمول فى الذكر، وخمود فى البيت، وذكاء مفرط تثلم على الأيام، كسكين الفولاذ الذى صدىء من طول تركه .

وصاحب آخر، ولن أسميه، ولو أنى سميته لعرفه الكثير. فهذا على نقيض ذلك، ولد على السرير المتواضع، ونشأ على العيش الأخشن، ولم تهبه الطبيعة ذكاء زائدا - ونقول هذا تأدبا - ولكنها وهبته الصحة، ووهبته الجلد على العمل، وكلاهما صفتان من صفات أبيه التاجر. وعرف أبوه بالتجربة أن الحياة بها فرص تنتهز، فطفق ينتهزها لولده، حتى كان تعليمه كله بالمجان. وذهب الى أوربا أيضا بالمجان ، فكان له النجاح الذى يحسده عليه كل الناس، وصار لى المثل الناطق والشاهد الذى لا يكذب ، بأن الذكاء

ليس لازما للنجاح لـزوم العمل المتواصل . بل كدت أؤمن بأن الغباء على الجد أنجح للمرء من ذكاء يصحبه تكاسل وتخاذل وارتخاء.

وصاحب ثالث، تهيأت له أسباب النجاح ولكنه خاب. اختتم دراسته بنجاح، وحل من جدوله سطوره الأولى. وكان فطنا، وذا لسان، وكان للناس عليه اقبال. ولكن أضر به أن أباه كان فقيها، فورث عنه البصر النظرى، وورث معه التردد الذى يرى دائما أن فى الأمر قولين. فهو يفكر فيحسن التفكير، وهو يخرج فيحسن التخريج ، حتى إذا جاء وقت العمل تحنبل، فلم يستطع أن يصدع بالذى يرى. والفكرة عنده تدور فى رأسه ثم تدور، يحاورها وتحاوره، ويداورها وتداوره، حتى إذا ظن أنه فاعل، تمهل يؤدى أعمالا تافهة يمهد بها للذى اعتزمه، أو هو هكذا ظن، وما هى الا مهرب أو مهارب مما ظن أنه فاعله. وهو قد يتشجع على العمل أخيرا ، ولكن بعد أن يكون قد أجهده الفكر، فأفرغ جهده، فلم تبق له بقية تعين على عمل. كالرجل الذى أجهده السهر فلما أقبل الصباح سعى على ساق متخاذلة لا تقوى على السير، وعين متثاقلة لا تكاد تنفتح على هدى .

وصاحب رابع نجح نجاحا باهرا، الى أن صار ابن خمسة وعشرين، وأنظر اليه اليوم، وقد فات الخمسين أو كاد، فلا أستطيع أن أقول أنه نجح فى الحياة. انه يعيش عيشة طيبة هادئة كعيشة بعض الناس ، ولكن أين هى مما أملناه له ودلت عليه مخائله. وأدرس أمره، فأعزو تلك الخيبة الى أنه لم يكن له غاية فى الحياة. وكيف يكون النجاح بدون غاية، بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية؟

ذكرنى هذا بالفتاة «أليس» فى الكتاب العالمى المشهور «أليس فى بلاد العجائب» ، جاء فيه أن «أليس» وقفت عند مفترق الطرق وهى لا تدرى أى طريق تأخذ. وجاءت قطة تسعى، فنادتها الفتاة وسألتها: «أى هذه الطرق آخذ» ؟، قالت القطة : «هذا يتوقف على أية غاية تقصدين»، قالت الفتاة : «ليس لى غاية». فقالت القطة: «إذن فخذى هذا الطريق أو هذا أو هذا».

ثم صاحب خامس ، وسادس ، وسابع.. قليل نجح وتقدم، وكثير خاب وتأخر، واتصلت أسباب النجاح فيهم والخيبة بأرث من مواهب قد يرخص وقد يغلو، وبيئة قد تصلح وقد تفسد، وبفرص قد تحضر وقد تغيب، ثم يتيقظ المرء لهذه المؤثرات جميعا، يستغلها إن أعانت، ويرتفع فوقها إن أعاقت، فيجاهد ويصابر، والعاقبة دائما للصابرين والمجاهدين .

سألت عن السعادة *

تحليل طريف للسعادة وكيف نفهمها من أقوال الفلاسفة والعلماء

فى عصر يوم قريب كنت أجلس الى مكتبى، فى بيتى، أكتب. وجاءت الساعة الرابعة، ثم انتصفت الخامسة، فسمعت طقطقة الأطباق والفناجين تجيئنى من بعيد. وطلبت الشاى وحدى فى خلوة من نفسى ، فهكذا كان مزاجى. وقمت عن المكتب لأجلس على مقعد أريح وأروح، يميل عليه الظهر وتتمدد الأقدام. وأفرغت الشاى لنفسى، فسمعت فى الفنجان خريره، ورأيت بخاره ينعقد ضبابا، دليل درجة فى حرارة الجو منخفضة، فدفئت به قبل أن أرشف منه.. ونظرت من النافذة فإذا الضباب ينعقد أيضا فى السماء، فهذا لا شك الشتاء، والشجر الطويل أخضر متطامن، والسكون من حولى شامل.. وأحسست فى نفسى راحة وسلاما .

قلت : «أهذه هى السعادة» ؟ .

قالت نفسى: «نعم».

---

* هلال – فبراير ١٩٥١

قلت: «إذن أصفها»..

قالت نفسي: «إذن تفسدها».

ونظرت حولي ، الى الحوائط، فإذا في صحبتي مئات من الرجال ضمتهم هذه الكتب، على هذه الأرفف، عددت عشرات منهم تحدثوا عن السعادة، على وجوه شتى، وعلى أعماق من الفكر متفاوتة. وذكرت امرأة بينهم تحدثت عن السعادة فقالت: «ما السعادة؟.. كل إنسان يتحدث عنها، والقليل من الناس من يعرفها، والذين يحسونها لا يضيعون الوقت في وصفها. فإذا هم وصفوها، فذلك لأن الشقاء انتابهم ففتق أذهانهم وحل عقدا في لسانهم» ؟.

وأعجبني هذا الرأي.. لمدام رولان، تلك التي فقدت رأسها على مقصلة من مقاصل الثورة الفرنسية.

وكان الى يميني، في هذه الحجرة، في هذه الصحبة الكريمة من الرجال، الفيلسوف الشهير «شوبنهاور» راقدا في كتاب فقلت له : «ماذا ترى في السعادة» ؟.

قال : «إنها ليست في كسب اللذائذ، ولكنها انتفاء الآلام. ويكفي ألم واحد لتعكير صفو الحياة. فالصحة سعادة، والصحة لا يحسها أحد. ولكن دملا واحدا صغيرا مؤلما يحسه الرجل فيذهب

بسعادته، ولا يغنيه عن ذلك صحة سائر الأعضاء. وقد يكون للرجل منا في الحياة رغائب كثيرة، وتتحقق هذه الرغائب الا واحدة، وتتحق الآمال الا أملا واحدا، فنحس من أجل فواته بالخيبة، ولا يكاد يغنينا الى جانب فوات هذا الأمل الواحد تحقق عشرة آمال».

قلت : «هذا رأى بديع».

قال : «رأى قال شيئا شبيها به فولتير.. فدونك فسله».

وايقظت فولتير بلمسة خفيفة من يدى، فهو رجل عنيف.. وقلت «ما تقول في اللذة والسعادة» .

قال : «الأفراح أحلام، والأحزان يقظة».

قلت : «وما ضر أن يكون الفرح حلما، وما ضر أن تكون الحياة كلها حلما متصلا» ؟.

قال: «ولكن الحلم وا أسفاه لا يتصل ، ولابد للراقد من قيام.. والقائم من النوم لا يكاد يذكر ما كان فيه من حلو ، ولكنه يذكر ما كان فيه من مر».

وتحرك «جيته» شاعر الألمانية، في مكانه.. فعلمت انه يريد أن يقول شيئا.

قلت: «ماذا ترى في اللذة والألم، والسعادة والشقاء» ؟

قال : «أن دفعك الشر شيء معقول، أما طلبك خيرا مما أنت فيه فحماقة وجنون».

قلت: «هذا مذهب الكلبيين».

قال: «وعندهم أن اللذائذ سبيلهم الى الآلام.. ومن أجل هذا انكروا اللذائذ جميعا. وشاعركم، شاعر العرب يقول:

ما أحسن العيش لو أن الفتى حجر

تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

قلت. «ومن أين لك شعر العرب» ؟

قال. «لقد أصبت من أدبهم طرفا، وازدهاني.. وشاعركم أيضا يقول:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل

عما مضى منها وما يتوقع

فصفاء الحياة عنده وسعادتها فى غفلة تنسى الماضى وتذهل عن المستقبل».

قلت: «ولكنه أيضا يقول:

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه

ويسومها طلب المحال فتطمع

إذن فالسعادة عنده أطماع وآمال وطموح».

قال: «ولكنه طمع في المحال، وهذا بعض أحلام اليقظة.. وهو يغالط في الحقائق نفسه، فهو يخدرها. وعن أي شيء يخدرها؟ عما يسوء ويؤلم».

وكنت أحسب هذا سوف لاشك يوقظ المتنبي، ولكنه لم يفعل.

وأحسست بقلق في رف عال من رفوف الكتب ونظرت فإذا جول سميث ، الشاعر الانجليزي، ضجر بالذي سمع.

قال: «إنك تسأل عن السعادة، وتسأل الشيوخ، والشيخوخة تذهب بحلاوة الحياة فلا يبقى الا مرارتها».

قلت: «ولكنها أيضا تأتي بتجارب الحياة. ومع هذا فماذا ترى أنت في السعادة» ؟

قال : «إن السعيد سعيد في نفسه، لا بالذي تأتي به الدنيا. فالسعادة مزاج نفسي، إذا هو جاءها لم تعرف ما الشقاء.. ولقد أذكر أني رأيت عبدا أسيرا في حصون فلاندرز، أصاب من أسباب الشقاء شيئا كثيرا ولكنه لم يحس بشقاء. كان أعرج أعوج الجسم مقيدا. وكان عليه أن يعمل من ساعة شهور شعاعة الشمس الأولى الى ساعة اختفائها، وأن يعمل كل يوم وكل سنة الى أن يموت. ومع كل هذا كان يرفع صوته مديدا بالغناء.

وود لو رقص، لو كانت له رجل يرقص بها. وكان أكثر العسكر فى هذا الحصن مرحا، فأى فلسفة عظيمة نافعة هذه. ولم يكن عليه مظهر للحكمة ولكنه كان فى هذا حكيما. ويتصيد أسباب المرح في كل حادثة، وعند كل أحد فيزاط به. وظن بعضهم أنه، لقلة إحساسه، قليل العقل مأفون، ولكنها قلة فى العقل ود الحكماء لو كان لهم مثلها».

وعدت الى فنجاني، وكنت غفلت عنه، فوجدته قد ذهب عنه أكثر حره، فرشفت منه ثم أكملت. وخطر لى فى فترة الصمت هذه أنى ربما كنت ملت الى رجال الأمس أسألهم وحدهم عن السعادة، فقلت أعود فأطرق باب رجل ذى فكر وذى علم، من رجال هذه الأيام.. وما طرقت الباب حتى انفتح.

قلت: «ما السعادة؟ ».

قال: «إن السعادة شيء لا يمكن تعريفه بمعادلة رياضية. والسعادة ليست تفاحة تؤكل. إن السعادة صفة من صفات العيش الطيب الهنيء. إنك إن حاولت تعريف السعادة قل نصيبك من فهمها.. إنها كالكهرباء تحس ولا تعرف. وكالموسيقى التى تشجو، كل ما يتقن الناس من عرفانها شجوها. والسعادة لا تعرف

الحدود ولا تعرف الظروف ولا تعرف الطبقات ولا تعرف المستويات. وكل رجل يطلب السعادة، ولكن ليس منهم من يعرف على التحديد ماهى».

قلت : «فكيف أتمثلها» ؟

قال . «تتمثلها فى رؤية الرجل السعيد وهو يبنى قاربا، أو يكتب سمفونية، أو يعلم ابنه، أو يزرع الزهر فى الحديقة، أو يبحث عن العنقاء فى الصحراء».

قلت : «كفانى».

وعدت الى فنجانى أملأه من جديد، وأنا أقول: ما أشبه اليوم بالأمس، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وأفرغت فنجانى على فراغ من ذهنى. إلا من صوت جاءنى من بين الأرفف الوسطى لشاعر يتغنى.

ولكم قام فى الورى من كليم.

وحكيم وفيلسوف عظيم.

وأتونا بكل قول عقيم.

* * *

فقطعت عليه .. وقمت أطلب الكتاب فإذا به لعمر الخيام . فقلت: «شنشنة أعرفها من أخزم».

الفهرس

الحرية والاستبداد

الحب والجمال

العلم بين الحقيقة والخيال

اسلاميات

رجال لهم تاريخ

خواطر

رقم الإيداع
٢٠٠١ / ٤٤٠٥
977- 07- 0761 - 9

هـذا الكتـاب

حديث الزمان كتاب لم يسبق نشره للعالم والمفكر الدكتور أحمد زكي، وقيمة هذا الكتاب من قيمة العالم الجليل الذى كتبه وجسد فيه زادا ثقافيا يمتع العقول والوجدان .

والدكتور أحمد زكي عرفته الاجيال السابقة والحاضرة كأحد العمالقة الذين أثروا الحياة العلمية والأدبية فى مصر والوطن العربى على مدى نصف قرن.

وهذا الكتاب يتيح للشباب على وجه الخصوص وللقارىء عموما عمق رائع للثقافة بكل الوانها .. فيه الاسلوب المميز والثقافة المستنيرة والتجارب الانسانية الرائعة لكاتب مصرى رائد فى كل انواع الفنون والعلوم نلتمس من دره وصدفاته ما نشاء . فكان عدد مجلة الهلال أمل كل قارىء ينتظره ويحرص على اقتنائه فور صدوره، وكان مقال الدكتور أحمد زكي هو بيت القصيد فى كل عدد .. ففيه الفكر والمعرفة وسلاسة العرض ورقة الأسلوب ، ما يجعل القارىء فى كل مكان حريص على اقتناء هذه المجلة فى كل شهر .

والانجازات عديدة ومتنوعة فى مجال العلوم والفنون والثقافة ويأتى هذا الكتاب، فيضيف الكثير من فكره وتجاربه وتتجلى فيه قدرة العالم الاديب الذى وهب من القدرة على التعبير ، ما جعل كتاباته لها اثرا خاصا فى نفوس وعقول القراء وهذا جعل كتاباته فى الدرجة الأولى بين الاثار الادبية والعلمية معا.



